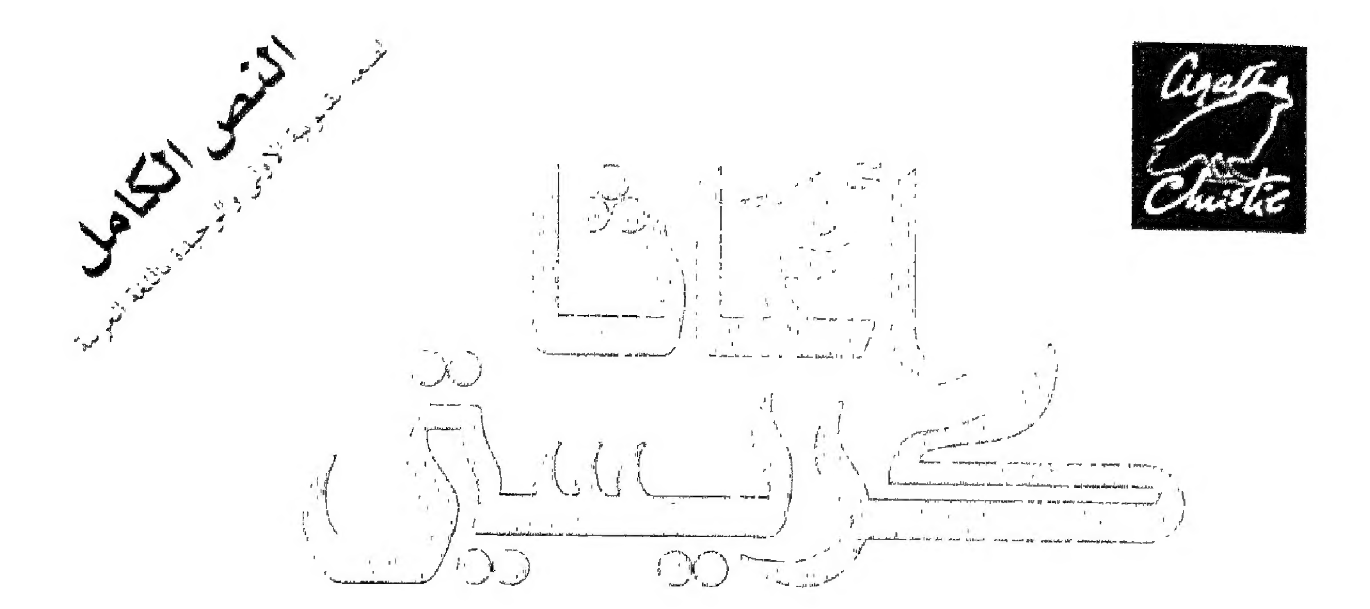
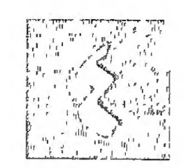


ذو البَدْلَة البُنِّيّة





ذو البَدْلَة البُنِّيّة

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٢٤ بعنوان

The Man in the Brown Suit

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الثالثة

٢٠٠٤

أغاثا كريستي

ذو البَدْلَة البُنِّيّة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٢٤

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البِرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

تنفيذ الغلاف: عروة مؤمن ديرانية



بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

وقفت الممثلة الروسية نادينا (التي أثارت الاهتمام في باريس) على خشبة المسرح لتحية المشاهدين وانحنت لهم مرة ثم أخرى، ومضى الفرنسيون المتحمسون يضربون الأرض بأرجلهم تعبيراً عن إعجابهم بينما كانت الستارة تُسدل محدِثةً حفيفاً ومخفِيةً وراءها بريق الألوان الحمراء والزرقاء والبنفسجية للديكور الغريب.

غادرت الممثلة خشبة المسرح بثوبها الأزرق والبرتقالي الفضفاض، وتلقاها رجلٌ ملتحٍ مرحّباً بحماسة. كان ذلك هو المدير الذي صاح قائلاً: رائعة يا صغيرتي، رائعة. لقد تفوقت على نفسك الليلة.

تقبلت السيدة نادينا هذا الثناء بما خلّفته لها العادة من قلة احتفاء بذلك، وأسرعت إلى غرفة تغيير الملابس حيث تكدست باقات الزهور في كل مكان دون ترتيب، وحيث كانت الملابس ذات التصميمات العصرية معلقة على المشاجب، وكان الجو حاراً يعبق برائحة الأزهار والعطور.

وأسرعت الوصيفة المسؤولة عن ملابس نادينا لمساعدة سيدتها وهي تتحدث على نحو متواصل وتغدق عليها المديح المقيت، لكن دقات على الباب قطعت عليها سيل مدائحها، فذهبت لترى مَن بالباب

ثم عادت وهي تحمل بيدها بطاقة.

- أتريد السيدة استقبال هذا؟

- دعيني أنظر.

مدت الممثلة يداً كسلى، ولكن ملامح الاهتمام المفاجئة بدت في عينيها عندما رأت الاسم المكتوب على البطاقة: «الكونت سيرجيوس باولوفيتش». قالت: نعم، سأقابله. أعطيني هذا الثوب الفضفاض الأصفر بسرعة، وعندما يأتي الكونت يمكنك الانصراف.

- حسناً يا سيدتي.

أحضرت الوصيفة الثوب الفضفاض، ولبسته نادينا بسرعة وجلست تبتسم مع نفسها وهي تنقر بيدها على زجاج طاولة الزينة دقات بطيئة.

أما الكونت فقد سارع لاغتنام الفرصة التي مُنحت له لرؤيتها. كان رجلاً متوسط الطول، ونحيفاً جداً، وأنيقاً جداً، وشاحباً جداً، وسئِماً لدرجة غير عادية. أما ملامحه فلم يكن فيها ما يميّزه كثيراً، كان رجلاً يصعب تمييزه ثانية إذا ترك المرء سلوكه المميز جانباً. وقد انحنى بتهذيب مبالَغ فيه قائلاً: سيدتي، إنها فرصة رائعة حقاً.

هذا ما استطاعت الوصيفة أن تسمعه قبل مغادرتها الغرفة مغلقة الباب وراءها. وعندما اختلت نادينا بزائرها تغيرت الابتسامة التي كانت ترتسم على شفتيها وقالت: رغم أننا من بلد واحد إلاّ أننا لن نتحدث بالروسية.

وافقها ضيفها قائلاً: قد يكون ذلك أفضل، طالما أن أياً منّا

لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الروسية.

ونتيجة لهذا الاتفاق شرعا يتحدثان بالإنكليزية، ولم يعد بمقدور أحد الآن -وقد اختفت سلوكيات الكونت المميزة- أن يشك أن الإنكليزية ليست لغته الأم. والحقيقة أنه بدأ حياته العملية في لندن فناناً يغيِّر أدواره بسرعة.

قال: لقد حققتِ نجاحاً باهراً هذه الليلة... أهنئك على ذلك.

قالت المرأة: ومع ذلك فأنا قلقة. إن وضعي الآن ليس كما كان؛ فالشكوك التي ظهرت أثناء الحرب لم تخمد أبداً. أحسّ بمَن يراقبني ويتجسس علي باستمرار.

- ولكن لم تُوجّه لك أبداً تهمة الجاسوسية؟

- إن خطط رئيسنا أكثر حرصاً من أن توقعني بذلك.

قال الكونت مبتسماً: عاش «الكولونيل»! أليست مذهلة تلك الأخبار القائلة إنه يعتزم التقاعد؟ التقاعد! تماماً مثل أي طبيب أو جزّار أو سمكري.

أكملت نادينا: أو كأي رجل أعمال آخر. يجب أن لا نفاجأ بهذا؛ هكذا كان «الكولونيل» دائماً... رجل أعمال رائعاً. لقد نظّم الجريمة كما ينظم المرء مصنع أحذية. لقد قام -دون توريط نفسه- بتخطيط وإدارة سلسلة من العمليات الهائلة، ملمّاً بكل فرع من فروع «مهنته» إذا صح التعبير. سرقة جواهر، تزوير، تجسس (وهذه الأخيرة مربحة جداً وقت الحرب)، أعمال تخريب واغتيالات سرية... لا تكاد تجد شيئاً لم يمارسه. إنه أكثرهم حكمة ويعرف متى يتوقف، وعندما بدأت اللعبة

تصبح خطيرة تقاعد موفور السلامة بعدما جمع ثروة ضخمة!

قال الكونت بارتياب: هممم! الأمر... مزعج لنا جميعاً. فنحن دون عمل الآن.

- لكننا تسلمنا حسابنا، وبكل سخاء أيضاً!

كان في نبرتها شيء من السخرية الخفية جعل الرجل ينظر إليها نظرات حادة. كانت تبتسم مع نفسها وقد أثارت نوعية ابتسامتها فضوله. لكنه واصل حديثه بطريقة دبلوماسية: نعم، لقد كان «الكولونيل» عظيم الكرم دائماً. إنني أعزو الكثير من نجاحه لهذا السبب، وإلى خطته الثابتة في تقديم كبش فداء مناسب. إنه عقل عظيم، لا شك أنه عقل عظيم! وهو رائد المبدأ القائل: «إذا أردت لشيء أن يتم بأمان فلا تفعله بنفسك»! ها نحن جميعنا متورطون في الجريمة تماماً، ونحن في قبضته كلياً، ومع ذلك ليس لأي منّا أي نقطة يمكن أن تدينه. نعم، ليس لأحد منا نقطة ضده... ومع ذلك فالرجل العجوز يؤمن بالخرافات. أعتقد أنه ذهب قبل سنوات لواحدة من العرّافات اللاتي يقرأن الطالع، وقد تنبأت له بحياة مليئة بالنجاح، ولكنها أخبرته أن سقوطه سيكون عن طريق امرأة.

أثار الكونت اهتمامها الآن. رفعت بصرها متلهفة وقالت: هذا غريب، غريب جداً! أقلتَ عن طريق امرأة؟

ابتسم ورفع كتفيه، ثم قال: لا شك أنه سيتزوج الآن بعد أن تقاعد. ربما شابة من حسناوات المجتمع تقوم بتبذير ملايينه بأسرع ممّا جمعها.

هزت نادينا رأسها وقالت: لا، لا، ليست هذه طريقة سقوطه.

اسمعني يا صديقي، سأذهب غداً إلى لندن.

- ولكن ماذا عن عقدك هنا؟

- سأغيب ليلة واحدة فقط، وسوف أذهب متنكرة بحيث لن يعرف أحد أنني غادرت فرنسا. وما هو سبب ذهابي حسب اعتقادك؟

- ليس من أجل المتعة في هذا الوقت من العام. إن شهر كانون الثاني (يناير) شهر يكثر فيه الضباب البغيض! لا بد أن ذلك لتحقيق منفعة، أليس كذلك؟

- بالضبط.

نهضت واقفة أمامه وكل ما فيها ينضح بالكبرياء المغرور وقالت: لقد قلتَ لتوك إن أحداً منّا لا يملك أية نُقطة تؤخذ على الرئيس. حسناً، لقد كنتَ مخطئاً في ذلك؛ فأنا لديّ. أنا، المرأة، كان لي من الذكاء والشجاعة (نعم؛ لأن الأمر يحتاج للشجاعة) ما يجعلني أخدعه وأخونه. هل تذكر قضية ألماسات شركة دي بير؟

- نعم، أتذكرها. في كيمبرلي قبل اندلاع الحرب بقليل، أليس كذلك؟ لم تكن لي علاقة بالأمر ولم أسمع بالتفاصيل أبداً، فقد أُخفيت القضية لسبب معين، أليس كذلك؟ كانت غنيمة كبيرة أيضاً

- بلغت قيمة أحجار الألماس مئة ألف جنيه. لقد قمنا بها اثنين... بناء على أوامر الكولونيل بالطبع، وهناك رأيت الفرصة متاحة لي. كانت الخطة تقضي بتبديل بعض ألماسات دي بير بعيّنات من أحجار الألماس التي أُحضرت من أميركا الجنوبية بواسطة اثنين من المنقّبين عن الألماس صادف وجودهما في كيمبرلي في ذلك الوقت، وكان من المحتم أن

تحوم الشكوك حولهما.

تدخل الكونت معلقاً باستحسان: عمل ذكي جداً.

- إن الكولونيل ذكي دائماً. لقد قمت بدوري، ولكني فعلت شيئاً لم يتوقعه الكولونيل أيضاً. لقد احتفظت ببعض الألماسات التي أُحضرت من أميركا الجنوبية، ومن السهل تماماً إثبات أنها لم تمر أبداً بين يدي شركة دي بير. وبوجود هذه الألماسات بحوزتي تكون لي الهيمنة على رئيسي المحترم؛ فبمجرد أن تتم تبرئة الشابين سيبدأ الشرطة في الاشتباه بدوره في هذا الأمر. إنني لم أقل أي شيء طَوال هذه السنين، فقد اكتفيت بوجود هذا السلاح بيدي لاستخدامه عند اللزوم، ولكن الأمور اختلفت الآن. أريد ثمناً لسكوتي... وسيكون ثمناً باهظاً، بل أكاد أقول مذهلاً.

قال الكونت: أمر غريب، ولا شك أنك تحملين هذه الألماسات معك أينما ذهبت؟

جالت عيناه بهدوء في الغرفة غير المرتبة. ولكن نادينا ضحكت بهدوء وقالت: لا حاجة لأن تفترض شيئاً من ذلك؛ فلست مغفلة. إن الألماسات في مكان أمين لا يحلم أحد أبداً بالبحث عنها فيه.

- لم أحسبك مغفلة أبداً يا سيدتي العزيزة، ولكن هل لي أن أتجرأ وأقول إنك متهورة نوعاً ما؟ إن الكولونيل ليس من النوع الذي يتساهل في أمر ابتزازه.

ضحكت وقالت: لست خائفة منه. رجل واحد فقط خفت منه في حياتي... وقد مات.

نظر الرجل إليها بفضول وقال بشكل عرضي: دعينا -إذن- نأمُل أن لا يعود للحياة مرة أخرى.

صاحت بحدة: ماذا تعني؟

بدا أن الكونت قد فوجئ بعض الشيء وقال: لقد قصدت فقط أن من شأن بعث الأموات أن يكون فظيعاً بالنسبة لك... مجرد نكتة سخيفة.

تنهدت بارتياح وقالت: آه، كلا، إنه ميت وقد شبع موتاً؛ لقد قُتل في الحرب. كان رجلاً أحبني ذات يوم.

سألها الكونت دون مبالاة: في جنوب أفريقيا؟

- نعم، بما أنك سألت. في جنوب أفريقيا.

- أي في موطنك الأصلي، أليس كذلك؟

أومأت برأسها موافقة، ونهض الزائر وذهب لأخذ قبعته قائلاً: حسناً، أنت تعرفين أمورك أفضل مني، ولكن لو كنت مكانك لخشيت من «الكولونيل» أكثر من خشيتي من أي عاشق بائس. إنه رجل من السهل جداً التقليل من خطره.

ضحكت ضحكة استهزاء وقالت: وكأنني لا أعرفه بعد كل هذه السنين!

قال بهدوء: أتساءل إن كنتِ تعرفينه حقاً؛ أشك بذلك كثيراً.

- آه، لست مغفلة! كما أنني لست وحيدة في هذا. إن سفينة البريد القادمة من جنوب أفريقيا سترسو في ميناء ساوثهامبتون غداً،

وعلى ظهرها رجل جاء من أفريقيا بناء على طلبي بشكل خاص، وقد قام بتنفيذ أوامر معينة أعطيته إياها. وسيتوجب على الكولونيل أن يتعامل معنا كلينا، لا مع واحد منّا فقط.

- هل هذا من الحكمة؟

- هذا ضروري.

- هل أنت واثقة من هذا الرجل؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة غريبة وقالت: "أنا واثقة منه تماماً. هو ليس بالكفء، ولكنه موثوق تماماً". سكتت ثم أضافت بنبرة غير مكترثة: إنه -في الحقيقة- زوجي.

* * *

الفصل الأول

الجميع كانوا يطلبون مني كتابة هذه القصة مرتبة؛ بدءاً بأهمهم (اللورد ناسبي) وانتهاء بأدناهم (إيميلي، خادمتنا السابقة التي رأيتها في آخر زيارة لي إلى إنكلترا وقالت لي: يا إلهي يا سيدتي! يمكنك أن تكتبي من كل هذا قصة رائعة... تماماً كقصص الأفلام!).

وسأعترف أن لديّ مؤهلات معينة للقيام بهذه المهمة؛ فقد كنت على صلة بالقضية من بدايتها، وكنت مشغولة بها طوال الوقت، بل وساهمت في نهايتها أيضاً. ولحسن حظي أيضاً فإنني غطيت النقص الذي لم أشهده من مفكرة السير يوستيس بيدلر التي رجاني أن أستخدمها.

ها هي القصة إذن، وها هي آن بيدنغفيلد تروي مغامراتها.

* * *

لقد أحببتُ المغامرات دائماً؛ فحياتي كانت رتيبة جداً. كان والدي، البروفسور بيدنغفيلد، أحد أعظم الخبراء في إنكلترا في موضوع الإنسان البدائي. كان عبقرياً حقاً... كان الجميع يشهدون له بذلك، وكان ذهنه يعيش في العصور الحجرية القديمة، وكان ما ينغص عليه حياته أن جسده يسكن العالم الحديث. لم يكن أبي يهتم بالإنسان

المعاصر، بل إنه كان يزدري إنسان العصر الحجري الحديث باعتباره مجرد راعٍ للمواشي، ولم تكن حماسته تبدأ إلاّ عندما يصل لفترة العصر الحجري الأوسط!

ولعله من سوء الحظ أن لا يستطيع المرء الاستغناء تماماً عن الإنسان المعاصر؛ فهو مجبر على شيء من التعامل مع الجزارين والخبازين وبائعي الحليب والخضار. وبما أن أبي كان منغمساً في الماضي، وبما أن أمي ماتت عندما كنت طفلة رضيعة، فقد تعين عليّ أنا أن أتولى الجانب العملي من معيشتنا. وبصراحة فإنني أكره الإنسان الحجري، سواء أكان من العصر الحجري القديم أو الأوسط أو الحديث أو من أي عصر آخر. ورغم أنني قمت بطباعة ومراجعة كتاب والدي «إنسان النياندرتال وأسلافه» إلاّ أن رجال النياندرتال أنفسهم كانوا يسببون لي الاشمئزاز، وكنت دائماً أشعر أن من حسن حظي أنهم انقرضوا في عصور سحيقة.

لا أعرف إن كان أبي قد شعر بأحاسيسي هذه أم لا. ربما لم يشعر، وعلى أية حال لم يكن ليهتم. لم يكن يهتم بوجهات نظر الآخرين أبداً، وأظن أن ذلك كان في الحقيقة علامة على عظمته. وبنفس الطريقة عاش بعيداً تماماً عن مستلزمات الحياة اليومية. كان يأكل ما يوضع أمامه بطريقة رائعة، ولكنه كان يبدو متألماً بعض الشيء عندما يأتي موضوع دفع ثمن الطعام. ولم يكن لدينا مال أبداً؛ فشهرته لم تكن من النوع الذي يدر عائداً نقدياً. ورغم أنه كان عضواً في كل الجمعيات المهمة تقريباً، وحمل ألقاباً كثيرة، إلاّ أن عامة الناس لم يكونوا يعرفون عنه إلاّ القليل. ورغم أن كتبه الضخمة العميقة كانت تثري المعرفة الإنسانية، إلاّ أنها لم تكن تجذب العامة. في مناسبة واحدة فقط قفز والدي فجأة ليحتل مكاناً تحت الأضواء العامة. كان قد قرأ بحثاً في إحدى الصحف حول

موضوع صغار الشمبانزي. إن صغار الشمبانزي تشبه الإنسان أكثر مما يشبهه الشمبانزي الناضج الكبير، وقد سارعت تلك الصحيفة التجارية «ديلي بَدجيت» -وقد افتقرت إلى الموضوعات المثيرة- إلى الصدور بعناوين بارزة تقول: "إننا لا ننحدر من القردة، ولكن هل انحدرت القردة منّا؟ أستاذ بارز يقول إن الشمبانزي إنسان انحط". بعد ذلك بوقت قصير جاء أحد الصحفيين لرؤية أبي وحاول إغراءه بكتابة سلسلة من المقالات الشعبية عن هذه النظرية، وقد غضب أبي غضباً نادراً ما كنت أراه منه؛ فقد أخرج الصحفيّ من البيت دون حفاوة، ممّا شعرت معه بالأسف في سري، لأننا كنّا بحاجة ماسة إلى المال في ذلك الوقت. والحقيقة أنني فكرت -وقتها- بأن أركض وراء ذلك الشاب وأخبره بأن والدي قد غيّر رأيه وسوف يرسل له المقالات المطلوبة. كنت أستطيع كتابتها بنفسي بسهولة، وكان المرجح ألا يعلم والدي أبداً بالصفقة؛ إذ لم يكن من قرّاء صحيفة ديلي بَدجيت. ومع ذلك فقد رفضت ذلك الأسلوب لأن فيه مغامرة كبيرة، ولذلك لبست أفضل قبعة عندي وذهبت حزينة إلى القرية لمقابلة بقّالنا الغاضب الذي لا يُلام على غضبه.

لقد اشتقت إلى المغامرة وإلى الإثارة، ويبدو أنني قد حُكم عليّ أن أحيا حياة تقديم الخدمات المملة الرتيبة. كان في القرية مكتبة عامة مليئة بالكتب الروائية البالية، وكنت أستمتع بقصص المغامرات. وكنت أذهب للنوم وأحلم بالرجال الأقوياء الذين «يُسقطون خصومهم من أول ضربة». ولم يبدُ أن أحداً في القرية يستطيع إسقاط خصمه من ضربة واحدة أو حتى من عدة ضربات!

كانت عندنا أيضاً السينما التي تعرض حلقات أسبوعية عن «مغامرات باميلا». كانت باميلا شابة رائعة لا يخيفها شيء. كانت تسقط من الطائرات وتغامر في الغواصات وتتسلق ناطحات السحاب وتدخل

عالم الإجرام دون خوف. لم تكن -في الحقيقة- ذكية؛ فقد كان رئيس المجرمين يمسك بها في كل مرة، ولكن لأنه كان يبدو مشمئزاً من ضربها على رأسها ضربة بسيطة، فقد كان يحكم عليها دائماً بالإعدام في غرفة الغاز أو باستخدام وسائل مبتكرة وبارعة بحيث كان البطل ينجح دائماً في إنقاذها عند بداية حلقة الأسبوع التالي. كنت أخرج من السينما ورأسي يدور... ثم أصل إلى البيت لأجد إنذاراً من شركة الغاز يهدد بقطع الغاز عنّا إذا لم ندفع الفاتورة المتراكمة!

ومع ذلك، ورغم أنني لم أكن أتصور الأمر، إلاّ أن كل لحظة كانت تقرِّب مني المغامرة أكثر.

ربما لم يسمع كثير من الناس في هذا العالم عن اكتشاف جمجمة قديمة في منجم بروكن هِلْ في روديسيا الشمالية. لقد نزلت من غرفتي ذات صباح لأجد والدي مهتاجاً اهتياجاً شديداً. قصّ علي القصة كلها: أتفهمين يا آن؟ إن في هذه الجمجمة -دون شك- تشابهاً معيناً مع جمجمة جاوة، ولكنه تشابه ظاهري... ظاهري فقط. كلا، إننا هنا أمام ما كنت أردده دائماً... شكل أسلاف سلالة نياندرتال. لماذا نُسلِّم بأن جمجمة جبل طارق هي أكثر جماجم نياندرتال المُكتشفة بدائيةً؟ لماذا؟ لأن موطن هذه السلالة كان في أفريقيا. وقد عبروا إلى أوروبا...

قلت بسرعة وأنا أمسك بيد والدي الذاهل: لا تضع المربى على السمك يا أبي. نعم، ماذا كنت تقول؟

- لقد عبروا إلى أوروبا على...

عند هذه الكلمة سكت إذ غصّ غصة كادت تخنقه نتيجة لقمة فيها عظام السمك.

قال وهو ينهض بعد انتهائه من الطعام: يجب أن نبدأ على الفور؛ لا وقت نضيعه. يجب أن نكون في موقع الحدث... لاشك بوجود الكثير من الأمور التي يمكن اكتشافها في المنطقة. سأكون مهتماً بملاحظة ما إذا كانت الأدوات هي نفسها التي كانت مستعملة في العصر الحجري الأوسط... وأظن أن بقايا الثور البدائي ستكون موجودة هناك، ولكن ليس بقايا الكركدن ذي الصوف. نعم، لن تلبث مجموعات كبرى أن تبدأ العمل قريباً جداً. يجب أن نكون على رأسهم. هل ستكتبين لشركة كوك اليوم يا آني؟

ألمحت له بإشارة رقيقة: ماذا عن المال يا أبي؟

نظر إليّ نظرة تأنيب وقال: إن أفكارك تصيبني بالاكتئاب دائماً يا ابنتي. يجب أن لا نبخل. كلا، كلا، يجب أن لا يبخل المرء في سبيل قضية العلم.

- أشعر يا أبي أن شركة كوك قد تبخل.

بدا والدي متألماً وقال: يا عزيزتي آن، ستدفعين لهم نقداً.

- ليس عندي أي نقد.

بدا والدي مغتاظاً جداً وقال: لا أريد يا ابنتي إزعاج نفسي بهذه التفاصيل المالية السوقية. ماذا عن المصرف... لقد تلقيت من مدير المصرف بالأمس ما يفيد بأن لدي في رصيدي سبعة وعشرين جنيهاً.

- أظن ذلك المبلغ هو ما أنت مدين به للمصرف.

- آه، صحيح! اكتبي للناشرين الذين ينشرون كتبي.

أذعنتُ لأمره بارتياب؛ لأن كتب والدي كانت تحقق من المجد

أكثر ما تحقق من المال. أحببت فكرة الذهاب إلى روديسيا كثيراً، ثم رأيت في مظهر أبي شيئاً غير عادي لفت انتباهي فقلت: أنت تلبس حذاء غريباً يا أبي. اخلع الحذاء البني والبس الأسود بدلاً منه. ولا تنس اللفاع حول رقبتك؛ فالجو بارد جداً اليوم.

بعد دقائق خرج أبي يمشي متشامخاً وقد لبس الحذاء المناسب واللفاع. وقد عاد متأخراً في تلك الليلة، وقد حزنت إذ رأيته عائداً دون لفاعه ومعطفه.

- يا إلهي! أنت على حق يا آني؛ لقد خلعتهما لكي أدخل الكهف لأن المرء يتسخ كثيراً عندما يدخل هناك.

أومأت برأسي بإشفاق وأنا أتذكر مرة عاد فيها أبي وهو ملطخ بالطين من رأسه حتى أخمص قدميه.

إن السبب الأساسي لإقامتنا في ليتل هامبسلي هو أنها قرية قريبة من كهف هامبسلي، وهو كهف مدفون ومليء بآثار من العصر الحجري الحديث. كان في قريتنا متحف صغير وكان أبي وأمين المتحف يقضيان معظم ساعات النهار في التنقيب تحت الأرض وإخراج بقايا حيوانات الكركدنّ الصوفي ودببة الكهوف.

سعل أبي سعالاً شديداً طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي لاحظت ارتفاع درجة حرارة جسمه وطلبت له الطبيب.

مسكين والدي... لم تتح له الفرصة أبداً؛ لقد أصيب بمرض ذات الرئة، ومات بعد ذلك بأربعة أيام.

* * *

الفصل الثاني

كان الجميع لطفاء معي. وقد قدّرت لهم هذا الموقف رغم ما كنت فيه من ذهول. لم أشعر بحزن شديد؛ فوالدي لم يحبني أبداً. كنت أعرف ذلك جيداً، ولو أنه أحبني فربما كنت سأحبه. لا، لم يكن بيننا حب، ولكن كلاً منا كان ينتمي للآخر، وقد اعتنيت به وأُعجبت في قرارة نفسي بعلمه وإخلاصه غير المحدود للعلم، وقد آلمني أن يموت أبي عندما وصل اهتمامه بالحياة إلى أكبر مدى. كنت سأشعر بسعادة أكبر لو تمكنت من دفنه في كهف مع رسومات حيوانات الرنة والأدوات الحجرية، ولكن قوة الرأي العام جعلتني أكتفي بقبر مرتب له (مع لوح من الرخام) في المقبرة الكريهة لقريتنا.

وقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى اتضح أمامي أنّ الشيء الذي كنت أتوق إليه دائماً (وهو الحرية) قد أصبح الآن ملكاً لي. كنت يتيمة ومفلسة عملياً، ولكني كنت حرّة. وفي نفس الوقت أدركت سر هذا اللطف غير العادي الذي غمرني به كل هؤلاء الناس الطيبين. لقد حاول أحد أصدقاء أبي جاهداً أن يقنعني بأن زوجته كانت في أمس الحاجة لمساعدة واحدة معها في البيت، وفجأة قررت مكتبتنا المحلية الصغيرة أنها بحاجة لمساعدة لأمين المكتبة، وأخيراً زارني الطبيب، وبعد تقديمه

لأعذار سخيفة مختلفة حول عدم قدرته على إرسال فاتورة مناسبة همهم وتلعثم كثيراً وفجأة طلب الزواج بي.

ذهلت كثيراً. كان الطبيب أقرب إلى سن الأربعين منه إلى الثلاثين، وكان رجلاً صغير الحجم بديناً. كان أبعد ما يكون شبهاً عن بطل «مغامرات باميلا»، وفكرت دقيقة ثم سألته لماذا يريد الزواج بي. ويبدا أن سؤالي هذا قد أربكه كثيراً وتمتم قائلاً إن وجود زوجة يشكل عوناً كبيراً للطبيب العام. ويبدا موقفه بعد هذا التبرير أقل شاعرية من ذي قبل، ومع ذلك فقد ألحّ عليّ شيء في داخلي بأن أقبل عرضه هذا. كان الأمان هو ما عرضه علي. الأمان... والبيت المريح. وإنني -إذ أفكر الآن في هذا الأمر- أرى أنني ظلمت ذلك الرجل الضئيل. كان يحبني بصدق ولكنّ رقةً في غير مكانها منعته من طرح قضيته على هذا الأساس.

على أية حال فقد ثار حبي للرومانسية فقلت: إنه لطف كبير منك، ولكن لا. لا أستطيع أبداً الزواج برجل إلاّ إذا أحببته بجنون.

- ألا تظنين...

قلت حازمة: نعم؛ لا أظن.

تنهد وقال: ولكن -يا فتاتي العزيزة- ما الذي تنوين عمله؟

أجبته دون تردد: أريد المغامرة ومشاهدة العالم.

- آنسة آن، أنت ما تزالين طفلة تماماً. أنت لا تفهمين...

- الصعوبات العملية؟ نعم، أفهمها يا دكتور. لست طالبة عاطفية ساذجة. إنني فتاة جشعة عنيدة سليطة اللسان، وكان من شأنك أن تعرف ذلك لو تزوجتني!

- ليتك تعيدين التفكير...

- لا أستطيع.

تنهد ثانية وقال: لدي عرض آخر أقدمه لك. لي عمة تعيش في ويلز وتريد فتاة شابة تساعدها. هل هذا يناسبك؟

- لا يا دكتور، أنا ذاهبة إلى لندن. إن كان من مكان تحدث فيه الأمور فهو لندن. سأبقي عينيّ مفتوحتين لأن شيئاً سيظهر! ستسمع عنّي بعد ذلك في الصين أو في أي من بلاد الدنيا.

كان زائري التالي هو السيد فليمنغ، محامي والدي في لندن. وقد جاء من المدينة خصوصاً لرؤيتي. كان هو نفسه عالم أجناس متحمساً، ومعجباً جداً بأعمال والدي. كان رجلاً طويلاً هزيلاً بوجه نحيف وشعر أشيب. نهض لتحيتي عندما دخلت الغرفة وربت على يدي وهو يمسكهما بحنان وقال: طفلتي المسكينة... المسكينة!

ودون رياء واعٍ، وجدت نفسي أقوم بدور اليتيمة المحرومة؛ فقد دفعني بسحره إلى هذا الموقف. كان عطوفاً ولطيفاً وأبوياً... ولا يراودني أدنى شك في أنه اعتبرني فتاة مغفلة تماماً تركت على غير هدى لتواجه عالماً قاسياً. وقد شعرت من البداية بعدم جدوى إقناعه بأنني على العكس من ذلك. وقد أرتني الأمور فيما بعد أن إحجامي عن تلك المحاولة كان أفضل.

- طفلتي المسكينة، هل تعتقدين أن بوسعك الإصغاء إليّ وأنا أحاول توضيح بعض الأمور لك؟

- آه، نعم.

- كما تعرفين كان والدك رجلاً عظيماً جداً، وسوف تقدّره الأجيال القادمة، لكنه لم يكن رجلاً بارعاً في أمور العمل.

كنت أعرف ذلك تماماً، إن لم يكن أفضل من السيد فليمنغ نفسه، ولكنني امتنعت عن قول ذلك. واصل حديثه: لا أحسبك تفهمين الكثير في هذه الأمور. سأحاول شرح الأمور لك قد الإمكان.

شرح لي شرحاً مطولاً لا ضرورة له. وبدا أن زبدة الكلام هي أن والدي قد تركني أواجه الحياة بمبلغ سبعة وثمانين جنيهاً وبعض الجنيه. بدا ذلك مبلغاً قليلاً لدرجة غريبة. انتظرت بذعر ما سيقوله لي بعد ذلك، وخشيت أن يكون للسيد فليمنغ عمة في أي مكان تحتاج لفتاة شابة لمرافقتها. ولكن بدا أنه لا يملك مثل هذه العمة.

أكمل حديثه: إن السؤال هو المستقبل. لقد فهمتُ أنك لا تملكين أقارب أحياء؟

قلت وقد خطر ببالي من جديد شبهي ببطلة أحد الأفلام: أنا وحيدة في هذا العالم.

- هل لديك أصدقاء؟

قلت بامتنان: كان الجميع لطفاء معي.

- ومن لا يكون لطيفاً مع واحدة بهذا الشباب وهذا السحر؟ حسناً، حسناً يا عزيزتي، يجب أن نرى ما يمكننا عمله.

تردد لحظة ثم قال: ماذا لو تأتين عندنا لبعض الوقت؟

قفزت لهذه الفرصة. لندن! المكان الذي تحدث فيه الأمور.

قلت: هذا جميل منك. أحقاً أستطيع الحضور إليكم؟ ففي الوقت الذي أدرس فيه الاحتمالات يجب أن أبحث عن عمل أكسب منه رزقي.

- نعم، نعم يا طفلتي العزيزة. أفهم ذلك تماماً. سوف نبحث عن شيء... مناسب.

أحسست غريزياً بأن آراء السيد فليمنغ فيما يخص «الشيء المناسب» متباعدة كثيراً عن آرائي، ولكن تلك لم تكن اللحظة المناسبة للتعبير عن آرائي.

- إذن فقد اتفقنا. لم لا تعودين معي اليوم؟

- آه، أشكرك. ولكن هل السيدة فليمنغ...

- ستسعد زوجتي كثيراً بمجيئك إلينا.

وإنني لأتساءل إن كان الأزواج يعرفون زوجاتهم بالقدر الذي يظنونه؟ إذ لو كان عندي زوج لكرهت أن يُحضر إلى البيت أيتاماً دون أن يستشيرني أولاً.

أكمل المحامي: سوف نرسل لها برقية من المحطة.

وسرعان ما حزمت أمتعتي الشخصية القليلة. تأملت قبعتي بحزن قبل أن ألبسها. كانت في الأصل ما أسميه بقبعة ماري، وأعني بهذا نوعية القبعة التي يجب على الخادمة أن تلبسها في يوم خروجها في إجازة.. ولكنها لا تلبسها! قبعة مهلهلة من القش الأسود لها حافة منخفضة انخفاضاً مناسباً. وبإلهام العبقري رفستها بقدمي ذات مرة ونخستها مرتين وبعجتها في أعلاها وثبتّ فيها شيئاً تشكيلياً يشبه الجزرة، وكانت

النتيجة جميلة تماماً. كنت قد ألقيت بالجزرة طبعاً، وبدأت الآن أخرب بقية عملي اليدوي. عادت «قبعة ماري» إلى حالتها السابقة مع زيادة في مواقع ضربها مما جعلها تبدو أكثر إثارة للاكتئاب من قبل، فربما كان من الأفضل أن أبدو منسجمة مع المفهوم السائد عن اليتيم. كنت مرتبكة قليلاً خشية سوء استقبال السيدة فليمنغ لي، ولكني رجوت أن يكون لمظهري تأثير مخفف للنقمة.

كان السيد فليمنغ مرتبكاً أيضاً؛ أدركت ذلك ونحن نصعد الدرج إلى البيت المرتفع في ساحة كينسينغتن الهادئة. حيتني السيدة فليمنغ بترحاب كبير. كانت ممتلئة الجسم وهادئة من نوع «الزوجة والأم الطيبة». أخذتني إلى غرفة نوم نظيفة وتمنت أن يكون فيها كل ما أحتاجه، وأخبرتني بأن الشاي سيكون جاهزاً بعد ربع ساعة، وتركتني أرتب أغراضي الخاصة.

سمعت صوتها يرتفع قليلاً عندما دخلَتْ غرفة الاستقبال في الطابق الأول. كانت تقول: "حسناً يا هنري، لماذا...". لم أسمع بقية كلامها، ولكن مرارة النبرة كانت واضحة. وبعد ذلك ببضع دقائق وصلت إلى مسامعي عبارة أخرى بصوت أكثر مرارة: "أوافقك الرأي؛ فهي بالتأكيد فتاة جميلة جداً!".

إنها حياة قاسية حقاً؛ إذ لا يكون الرجال لطفاء مع المرأة ما لم تكن جميلة، ولا تكون النساء لطيفات معها إن كانت كذلك.

تابعت ترتيب شعري وأنا أتنهد بعمق. عندي شعر جميل؛ إنه أسود (أسود حقيقي، وليس بنياً داكناً) وهو يغطي أذنيّ. عندما أنهيت تسريحتي كدت أبدو مثل اليتيمة التي تخرج بضفيرة وقلنسوة من تلك التي تُربط تحت الذقن ورداء أحمر.

عندما نزلت لاحظت أن السيدة فليمنغ قد ركزت نظرها على أذني المكشوفتين بنظرات لطيفة تماماً. كان السيد فليمنغ يبدو مرتبكاً. ليس عندي شك في أنه كان يقول في قرارة نفسه: "ما الذي فعلته الطفلة بنفسها؟". وإجمالاً فقد انقضت بقية اليوم على أحسن ما يرام، واستقر الأمر على أن أبدأ على الفور البحث عن شيء أفعله.

عندما ذهبت للنوم نظرت إلى وجهي في المرآة نظرات جادة. أكنت حقاً جميلة؟ وبصدق فإنني لا أستطيع القول إنني أرى ذلك! لم يكن عندي أنف إغريقي مستقيم أو فم وردي صغير أو أي شيء من الأشياء التي يجب أن تكون عند الفتاة الجميلة. كنت أفضّل كثيراً أن تكون لي عينان زرقاوان أيرلنديتان بدلاً من العينين الخضراوين الداكنتين المرقطتين بالأصفر! ومع ذلك فاللون الأخضر جيد للمغامِرات.

لففت ثوباً أسود حولي بإحكام ثم مشّطت شعري فوق أذني مرة أخرى، وأخيراً لففت كتفي بشريط أحمر وغرست ريشة قرمزية على شعري... النتيجة كلها أفرحتني كثيراً.

قلت بصوت مرتفع وأنا أومئ برأسي لصورتي في المرآة: آنا المغامِرة. الحلقة الأولى: «بيت كينسينغتن!».

حقاً إن الفتيات سخيفات.

* * *

الفصل الثالث

أحسست بملل كبير في الأسابيع التي تلت ذلك. بدت لي السيدة فليمنغ وصديقاتها مملات جداً؛ كنّ يتحدثن لساعات عن أنفسهن وأطفالهن والصعوبات التي يواجهنها للحصول على حليب جيد للأطفال وعما يقلنه لشركة الألبان عندما لا يكون الحليب جيداً، ثم يعرجن للحديث عن الخدم وصعوبات العثور على خدم جيدين وعما قلنه للموظفة في مكتب تشغيل الخدم وعما قالته الموظفة لهن. لم يبد أنهن يقرأن الصحف أبداً أو يعتنين بما كان يحدث في العالم. كنّ يكرهن الأسفار؛ إذ يرين كل شيء مختلفاً عن إنكلترا، ولكن كانت الريفيرا لا بأس بها بالطبع لأن المرء يلتقي فيها بجميع أصدقائه.

كنت أصغي إليهن وأكبح عواطفي بصعوبة. كانت غالبية هؤلاء النسوة ثريات، وكان العالم الواسع الجميل كله ملكاً لهن يستطعن التجول فيه، ومع ذلك كن يفضلن البقاء في لندن القذرة المملة ويتحدثن عن بائعي الحليب والخدم! وعندما أتذكر الماضي الآن أرى أنني ربما كنت قليلة التسامح نوعاً ما، ولكنهن كن غبيات بالفعل... غبيات حتى في عملهن الذي اخترنه: فقد كانت لمعظمهن حسابات منزلية يُجرينها بشكل غريب جداً ومهلهل إلى أبعد حد.

لم تتقدم شؤوني الخاصة بسرعة كبيرة؛ فقد بيع البيت والأثاث، ولم يكد الثمن يكفي إلاّ للوفاء بديوننا فقط. وحتى ذلك الوقت لم أوفق في الحصول على وظيفة... دون أن يعني ذلك أنني أردت بحق العثور على وظيفة! فقد كان لدي كل الاقتناع بأنني إذا ذهبت أبحث عن مغامرة فإنني سأجدها في وسط الطريق. إن نظريتي هي أن المرء يحصل دائماً على ما يريده. وكانت نظريتي توشك أن تُثبَت عملياً.

كان ذلك في بداية شهر كانون الثاني (يناير)، بل في الثامن منه توخياً للدقة. كنت عائدة من مقابلة غير موفقة مع سيدة قالت إنها تريد سكرتيرة مُرافِقة، ولكن بدا -في الواقع- أن ما تطلبه هو خادمة تنظيف قوية تعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم مقابل خمسة وعشرين جنيهاً في العام. وبعد أن تركتها ونحن نتبادل كلاماً مُبطناً غير مؤدب مشيت في شارع إدجوير (فقد جرت المقابلة في بيت في منطقة سينت جون وُد)، ثم عبرت حديقة الهايد بارك إلى شارع مستشفى سينت جورج. وهناك دخلت محطة قطار الأنفاق عند زاوية هايد بارك، وأخذت تذكرة توصلني إلى طريق غلوستر.

وعندما وصلت إلى الرصيف (داخل محطة الأنفاق) مشيت حتى آخره. كان عقلي الفضولي يريد أن يقنع نفسه إن كانت هناك حقاً محولات للسكة الحديدية وفتحة بين النفقين بعد المحطة مباشرة في اتجاه شارع داون، وقد تملكني سرور أحمق إذ اكتشفت أنني كنت على صواب. لم يكن على الرصيف الكثير من الناس، وفي نهايته كنت أقف أنا ورجل واحد فقط. وبينما كنت أمرّ بجانبه أخذت أشتمُّ بارتياب؛ فلئن كانت توجد رائحة لا أطيقها فهي رائحة كرات نفتالين العث، وكان المعطف الثقيل لهذا الرجل يعبق بتلك الرائحة. كان معظم الرجال قد

بدؤوا يلبسون معاطفهم الشتوية قبل شهور، ولذلك كان ينبغي لرائحة النفتالين أن تكون قد تلاشت بمرور هذا الوقت. كان الرجل يقف أبعد مني قريباً من حافة النفق. بدا غارقاً في التفكير، وكان يمكنني التحديق فيه دون أن أبدو وقحة. كان رجلاً ضئيل الجسم نحيفاً ذا وجه بني داكن وعينين زرقاوين، وكانت له لحية سوداء صغيرة.

استنتجت في نفسي: لقد جاء لتوه من الخارج... هذا هو سبب الرائحة التي تفوح من معطفه. لقد جاء من الهند. إنه ليس ضابطاً بالجيش، وإلاّ لما كانت له لحية. ربما يعمل في زراعة الشاي.

في هذه اللحظة استدار الرجل وكأنه يعود أدراجه على الرصيف من حيث أتى. نظر إليّ نظرة عابرة ثم وقعت عيناه على شيء ورائي فتغير وجهه. تقلص وجهه خوفاً... بل كاد يكون ذعراً. تراجع خطوة إلى الوراء وكأنه يتقبض عفوياً تفادياً لخطر، ناسياً أنه كان يقف في أقصى طرف الرصيف، فسقط وانقلب. صدرت عن السكة التماعة ضوء قوي وصوت طقطقة. صرختُ، فجاء الناس مسرعين. وخرج اثنان من مسؤولي المحطة من حيث لا أدري وتوليا الأمر.

بقيت حيث كنت، مشدودة إلى المكان بشيء من السحر الرهيب. كان جزء مني مرتاعاً من هول الكارثة المفاجئة، في حين كان الجزء الآخر مهتماً ببرود بالطريقة التي استخدمت لرفع الرجل عن السكة وإعادته إلى الرصيف.

- دعوني أمر، أرجوكم... أنا طبيب.

اندفع رجل طويل بلحية بنية اللون من جانبي وانحنى فوق الجسد الهامد، وفيما هو يفحصه بدا أن إحساساً غريباً بعدم الواقعية يتملكني.

لم يكن هذا الشيء حقيقياً... لا يمكن أن يكون كذلك. وفي النهاية نهض الطبيب وهز رأسه قائلاً: لقد مات وشبع موتاً. لا يمكن فعل شيء.

كنا قد تجمعنا كلنا واقتربنا أكثر، ورفع حمّال حزين صوته قائلاً: أرجو أن تتراجعوا إلى الوراء. ما معنى التجمع حوله؟

تملكني غثيان مفاجئ، واستدرت على غير هدى وأسرعت أصعد الدرج ثانية نحو المصعد. أحسست أن الأمر كان مرعباً جداً ويجب أن أخرج إلى الهواء الطلق. كان الطبيب الذي فحص الجثة قد سبقني تماماً. كان المصعد على وشك أن يصعد، وانطلق يركض. وعندما انطلق أسقط ورقة صغيرة.

وقفت والتقطتها وركضت وراءه، ولكن بوابة المصعد أغلقت في وجهي، وبقيت ممسكة بالورقة بيدي. وما أن وصل المصعد الثاني إلى مستوى الشارع حتى وجدتُ أن لا أثر للرجل. تمنيتُ أن لا تكون الورقة التي فقدها ذات أهمية، ثم تفحصتها لأول مرة. كانت قصاصة عادية من ورق الملاحظات خُربشت عليها بعض الكلمات والأرقام بالقلم الرصاص. هذه صورة عنها:

"٢٢ ١ ٧, ١ كيلموردن كاسل".

من المؤكد أنها لم تبدُ -ظاهرياً- ذات أهمية، ومع ذلك ترددت في إلقائها. وبينما كنت أقف هناك أحملها بيدي فركتُ أنفي لا إرادياً باشمئزاز... رائحة النفتالين ثانية! رفعت الورقة بقرف إلى أنفي وشممتها. نعم، كانت رائحتها رائحة نفتالين قوية. ولكن...

طويت الورقة بعناية ووضعتها في حقيبتي، وسرت إلى البيت ببطء أفكر طوال الطريق.

أوضحت للسيدة فليمنغ أنني شهدت حادثاً مروعاً في نفق القطار وأنني متضايقة وأريد الذهاب إلى غرفتي لكي أستلقي قليلاً. أصرت المرأة الكريمة على أن أشرب فنجاناً من الشاي، وبعد ذلك تركتني أذهب لشأني، وعندها شرعت في تنفيذ خطة وضعتها وأنا عائدة في طريقي إلى البيت. أردت أن أعرف ما الذي سبّب ذلك الإحساس الغريب بعدم الواقعية الذي شعرت به وأنا أراقب الطبيب وهو يفحص الجثة. في البداية استلقيت على الأرض متخذة وضع الجثة، ثم وضعت وسادة بدلاً منّي وبدأت -حسب أفضل ما أذكره- تقليد كل حركة وإيماءة قام بها الطبيب. وعندما انتهيت كنت قد حصلت على ما أردته. أقعيتُ على أعقابي وقطبت جبيني وأنا أنظر إلى الجدران أمامي.

نشرت صحف المساء خبراً مختصراً عن رجل قتل في نفق القطار قائلة إن شكوكاً تحوم حول ما إذا كان ذلك حادثاً أم انتحاراً. وقد بدا لي أن ذلك يجعل واجبي واضحاً، وعندما سمع السيد فليمنغ روايتي وافقني الرأي وقال: لا شك أنهم سيطلبونك للتحقيق. أتقولين إن أحداً غيرك لم يكن قريباً بحيث يرى ما حدث؟

قلت: لدي إحساس بأن أحدهم كان قادماً من ورائي، ولكن لا يمكنني الجزم... وعلى أية حال لم يكن القادم قريباً منه كما كنت أنا.

عُقدت جلسة التحقيق، وقام السيد فليمنغ بعمل جميع الترتيبات وأخذني إلى هناك معه. بدا خائفاً من أن يشكل التحقيق محنة قاسية بالنسبة لي، وكان عليّ أن أخفي عنه رباطة جأشي.

حُدّدت هوية القتيل، وهو ل. ب. كارتون، ولم يعثر الشرطة على شيء في جيوبه ما عدا طلباً من أحد سماسرة البيوت لمعاينة بيت

على النهر القريب من مارلو. وكان الطلب باسم ل. ب. كارتون، فندق راسل. وقد تعرف موظف الفندق على الرجل وقال إنه وصل إلى الفندق في اليوم السابق لمقتله وإنه حجز غرفة بذلك الاسم. تم تسجيله باسم ل. ب. كارتون من كيمبرلي، جنوب أفريقيا. كان واضحاً أنه جاء من السفينة مباشرة.

كنت الوحيدة التي رأت شيئاً من الحادث. سألني قاضي التحقيق: أتظنين أنه كان حادثاً؟

- أنا متأكدة من هذا. لقد أخافه شيء، وتراجع إلى الوراء دون التفكير بما كان يفعله.

- ولكن ماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي أخافه؟

- هذا ما لا أعرفه. ولكن كان هناك شيء. كان يبدو مذعوراً.

أشار أحد المحلفين البليدين إلى أن بعض الرجال يخافون من القطط وأن الرجل ربما رأى قطة. ولم أرَ في رأيه هذا ذكاء كبيراً، ولكن بدا أن المحلفين قد اكتفوا برأيه ذاك وقد بدا واضحاً أنهم يريدون العودة إلى بيوتهم بسرعة، وسرّهم أن يتمكنوا من إصدار حكم بأن الأمر كان حادثاً لا انتحاراً.

قال قاضي التحقيق: أمر غريب بالنسبة لي أن لا يتقدم الطبيب الذي فحص الجثة أول مرة للشهادة. كان يجب أخذ اسمه وعنوانه في ذلك الوقت. إن عدم فعل ذلك مسألة شاذة جداً.

ابتسمت في نفسي. كانت لي نظرية خاصة فيما يخص الطبيب، واستكمالاً لهذه النظرية قررت القيام بزيارة لشرطة سكوتلانديارد في أقرب وقت ممكن.

ولكن صباح اليوم التالي حمل معه مفاجأة؛ فقد كانت أسرة فليمنغ مشتركة بصحيفة «ديلي بَدجيت»، وكانت الصحيفة قد فازت يومها بصيد ثمين: "تكملة غريبة لحادث نفق القطار"، "العثور على امرأة مخنوقة في بيت منعزل". وقرأت الخبر بلهفة:

"تم أمس اكتشافٌ مثير في «ميل هاوس» في منطقة مارلو. فمنزل «ميل هاوس» (وصاحبه هو عضو البرلمان السير يوستيس بيدلار) كان معروضاً للإيجار غيرَ مفروش، وقد عُثر على طلب بمعاينة هذا البيت في جيب الرجل الذي اعتُقد في البداية أنه انتحر بإلقاء نفسه على خط السكة الحديدية في محطة قطار الأنفاق قرب الهايد بارك. وقد عُثر في الغرفة العلوية في ميل هاوس على جثة امرأة شابة جميلة بالأمس، وقد خنقت. ويُعتقد بأنها أجنبية، ولكن لم يتم التعرف على هويتها حتى الآن، وقد ذُكر أن لدى الشرطة خيطاً يدل على ذلك. ويقوم السير يوستيس بيدلار، صاحب البيت، بقضاء عطلة الشتاء في الريفيرا".

* * *

الفصل الرابع

لم يتقدم أحد للتعرف على المرأة القتيلة، وقد خلص التحقيق إلى الحقائق التالية: بعد الساعة الواحدة بقليل من يوم الثامن من كانون الثاني دخلت امرأة أنيقة تتكلم بلكنة أجنبية مكاتب شركة باتلر وبارك، وهي شركة عقارات في نايتسبريدج. وقد أوضحت بأنها تريد استئجار أو شراء بيت على نهر التيمز يكون قريباً من لندن. وقد أُعطيت لها مواصفات بيوت عديدة بما فيها بيت ميل هاوس. وقد قدمت نفسها باعتبارها السيدة دي كاستينا، وعنوانها فندق ريتز، ولكن ثبت عدم وجود أحد بهذا الاسم يقيم هناك، وفشل العاملون في الفندق في التعرف على الجثة.

وقد أدلت السيدة جيمس، زوجة البستاني الذي يعمل عند السير يوستيس بيدلار بشهادتها، وكانت تقوم بالعناية بالبيت وتسكن في البيت الصغير المخصص للبواب والذي يطل على الشارع العام. قالت إن سيدة جاءت لرؤية البيت الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم. وقد أبرزت إذناً من وكلاء البيت، وكما كانت العادة المتبعة أعطتها السيدة جيمس مفاتيح البيت. كان البيت يبعد قليلاً عن بيت البواب، ولم يكن من عادتها مرافقة الذين يعتزمون استئجار البيت. بعد ذلك ببضع دقائق جاء شاب، وقد وصفته السيدة جيمس بأنه شاب طويلٌ عريض المنكبين ذو وجه برونزي وعينين رماديتين فاتحتين. كان حليق اللحية ويلبس بدلة

بنية اللون. أوضح للسيدة جيمس أنه صديق للسيدة التي جاءت لمعاينة البيت ولكنه تخلف عنها عند مكتب البريد حتى يبعث ببرقية. أرشدته إلى البيت ولم تعد تفكر بالأمر بعد ذلك.

بعد ذلك بخمس دقائق عاد الرجل ثانية وأعاد إليها المفاتيح وأوضح بأن البيت لا يناسبهما. لم ترَ السيدة جيمس المرأة، ولكنها ظنت أنها ذهبت قبله. وقد لاحظت أن الشاب بدا منزعجاً جداً من شيء ما... "بدا كرجل رأى شبحاً، وحسبتُه مريضاً".

وفي اليوم التالي جاءت سيدة ورجل آخران لرؤية البيت فاكتشفا الجثة ملقاة على أرضية إحدى الغرف في الطابق العلوي. وقد شهدت السيدة جيمس بأنها جثة المرأة التي جاءت في اليوم السابق، كما تعرف عليها العاملون في شركة العقارات باعتبارها «السيدة دي كاستينا». وقال الطبيب الشرعي إنه يرى أن المرأة قد توفيت قبل العثور عليها بأربع وعشرين ساعة تقريباً. وقد سارعت صحيفة ديلي بَدجيت إلى الاستنتاج بأن الرجل الذي قُتل في حادث نفق القطارات هو الذي قتل المرأة ثم انتحر بعد ذلك. وحيث أن ضحية نفق القطارات كان قد قتل الساعة الثانية، فيما كانت المرأة حية ترزق الساعة الثالثة، فإن النتيجة المنطقية الوحيدة التي يمكن التوصل إليها هي عدم وجود علاقة بين الحادثين، وأن إذن معاينة البيت في مارلو الذي وُجد في جيب الرجل القتيل كان مجرد واحدة من تلك الصدف التي تظهر كثيراً في هذه الدنيا.

وقد أصدر قاضي التحقيق حكمه بأنها "جريمة قتل عَمدٍ ارتكبها مجهول". وتُرك الشرطة (وصحيفة ديلي بَدجيت) ليبحثوا عن «الرجل ذي البدلة البنية». وحيث أن السيدة جيمس كانت واثقة من عدم وجود شخص داخل البيت عندما دخلته المرأة، وأن أحداً لم يدخل البيت

حتى عصر اليوم التالي باستثناء ذلك الشاب مدار الحديث، فقد بدا من المنطقي الاستنتاج بأنه هو قاتل سيئة الحظ السيدة دي كاستينا. وقد خُنقت بحبل أسود غليظ، وكان واضحاً أنها أُخذت على حين غرة ولم تستطع الصراخ. وقد احتوت الحقيبة الحريرية السوداء التي كانت تحملها على محفظة نقود مليئة بالأوراق النقدية وبعض القطع النقدية وعلى منديل مزركش وتذكرة عودة إلى لندن بالدرجة الأولى. ولم يكن -في ذلك كله- الكثير مما يمكن الاسترشاد به.

كانت هذه هي التفاصيل التي أذاعتها الديلي بَدجيت، وكانت صرختها اليومية هي: "ابحثوا عن الرجل ذي البدلة البنية". وكان يكتب للصحيفة نحو خمسمئة شخص يومياً زاعمين أنهم نجحوا في بحثهم، وكان الشباب الطوال ذوي الوجوه السمراء المسفوعة يندمون على اليوم الذي أقنعهم فيه خياطوهم بتفصيل بدلة بنية. أما حادث نفق القطار (الذي استُبعد باعتباره مصادفة) فقد تلاشى من عقول العامة.

أكان الحادث مصادفة؟ لم أكن واثقة من ذلك. لا شك أنني كنت متحيزة؛ فحادث القطار كان لغزي الأثير الخاص، ولكن بدا لي أن من المؤكد وجود صلة ما بين الوفاتين؛ ففي كلا الحادثين كان يوجد رجل ذو وجه مسفوع... واضح أنه رجل إنكليزي يعيش في الخارج، وكانت توجد أشياء أخرى. إن تفكيري بهذه الأشياء الأخرى هو الذي دفعني في النهاية إلى ما اعتبرته خطوة جريئة؛ حيث ذهبت إلى سكوتلانديارد وطلبت مقابلة المسؤول عن قضية ميل هاوس.

وقد استغرق طلبي وقتاً طويلاً حتى تم فهمه لأنني كنت قد ذهبت -عن غير قصد- إلى القسم المختص بالمفقودات، ولكن في نهاية الأمر تم اقتيادي إلى غرفة صغيرة وقُدّمت إلى المفتش ميدوز.

كان المفتش ميدوز رجلاً صغير الحجم ذا شعر بني اللون وأسلوب وجدتُه مزعجاً جداً، وكان رجل آخر يلبس الملابس المدنية يجلس في إحدى الزوايا دون تطفل.

قلت بارتباك: صباح الخير.

- صباح الخير. هلاّ جلست؟ لقد فهمتُ أن لديك ما تريدين قوله لي وترين أنه قد يفيدنا.

بدا من نبرة صوته أن ذلك أمر مستحيل تماماً، وأحسست بتعكر مزاجي. قلت: أنت تعرف أمر الرجل الذي قُتل في نفق القطارات؟ الرجل الذي كان يحمل في جيبه إذناً لمعاينة نفس البيت في مارلو.

قال المفتش: آه! أنت الآنسة بيدنغفيلد التي أدلت بشهادتها في التحقيق. كان الرجل يحمل في جيبه إذناً بالتأكيد. ربما كان مثل هذا الإذن في جيوب كثير من الناس... إلاّ أنهم لم يصدف أن قُتلوا.

استجمعت قواي وقلت: ألم ترَ غرابة في عدم حمل هذا الرجل تذكرةً في جيبه؟

- من أسهل الأشياء في الدنيا أن تسقط التذكرة من المرء. لقد حدث ذلك معي شخصياً.

- ولا مالاً أيضاً.

- كان معه بعض القطع المعدنية في جيب بنطاله.

- ولكنه لم يكن يحمل معه أوراقاً نقدية.

- بعض الرجال لا يحملون معهم أية محفظة جيب.

جرّبت معه مساراً آخر: ألا تعتقد أن من الغريب أن لا يأتي الطبيب للإدلاء بشهادته أبداً؟

- ليس من شأن طبيب مشغول جداً أن يقرأ الصحف في الغالب. ربما نسي كل شيء عن الحادث.

قلت بلطف: الحقيقة -أيها المفتش- أنك عازم على أن لا تجد شيئاً غريباً.

- أنا أميل إلى الظن بأنك مغرمة قليلاً بهذه الكلمة يا آنسة بيدنغفيلد. أعرف أن الفتيات شاعريات... يغرمن بالألغاز الغامضة وما إلى ذلك. ولكن بما أنني رجل مشغول...

فهمتُ تلميحه فنهضت، ولكن الرجل الجالس في الزاوية قال بصوت ضعيف: ربما رغبت الآنسة بأن تقول لنا باختصار ما هي أفكارها حقاً حول الموضوع أيها المفتش؟

أبدى المفتش استعداداً فورياً للاستجابة لهذا المقترح وقال: نعم، هيا إذن يا آنسة بيدنغفيلد، لا تشعري بحرج. لقد طرحتِ أسئلة ولمّحتِ إلى أمور. أخبرينا بشكل مباشر بما يدور في ذهنك.

ترددت بين كبريائي المجروح والرغبة العارمة في بسط نظريتي، ثم ضربت بكبريائي المجروح عرض الحائط.

- لقد قلتِ في التحقيق إنك واثقة أن الأمر لم يكن انتحاراً، أليس كذلك؟

- بلى، أنا واثقة تماماً من ذلك. كان الرجل خائفاً... ما الذي

أخافه؟ لم يكن أنا، ولكن ربما كان هناك شخص قادم على الرصيف باتجاهنا... شخص ميّزه الرجل.

- ألم تري أحداً؟

- نعم؛ فأنا لم ألتفت. وبعدها، بمجرد رفع الجثة عن السكة، اندفع رجل لكي يفحصها قائلاً إنه طبيب.

قال المفتش ببرود: لا شيء غير عادي في ذلك.

- ولكنه لم يكن طبيباً.

- ماذا؟

كررت: لم يكن طبيباً.

- وكيف عرفت ذلك يا آنسة بيدنغفيلد؟

- من الصعب توضيح ذلك بالضبط. لقد عملت في مستشفيات أثناء الحرب، ورأيت الأطباء وهم يتعاملون مع الجثث. يوجد نوع من البرود والرشاقة المهنية مما لم يكن لدى هذا الرجل. ثم إن الطبيب لا يتحسس قلب المريض على الجانب الأيمن من جسده عادة!

- وهل فعل ذلك؟

- نعم، لم أنتبه لذلك بشكل خاص وقتها... إلاّ أنني شعرت بشيء غير طبيعي. ولكني أدركت ذلك عندما عدت إلى البيت، وهناك فهمت لماذا بدا لي الأمر كله مفتقراً للبراعة والإقناع.

همهم المفتش وهو يبحث ببطء عن قلم وورقة، فيما قلت: كانت له فرصة سانحة وهو يُمرر يديه فوق الجزء العلوي من جسد الرجل لكي

يأخذ أي شيء يريده من جيوبه.

قال المفتش: يبدو أمراً غير محتمل بالنسبة لي. ولكن... حسناً، هل يمكنك وصفه؟

- كان طويلاً عريض المنكبين، يلبس معطفاً داكناً وحذاء أسود وقبعة سوداء مستديرة. كانت له لحية سوداء مدببة، ويلبس نظارة ذات إطار ذهبي.

قال المفتش متذمراً: إذا حذفنا المعطف واللحية والنظارة فلن يكون لدينا الكثير مما يمكن أن نستدل به عليه. إنه يستطيع تغيير مظهره بسهولة كافية خلال خمس دقائق إن أراد ذلك... وهو ما سيفعله إن كان بارعاً في النشل كما تُلمِّحين.

لم يكن في نيتي التلميح لشيء كهذا، ولكني -منذ تلك اللحظة- اعتبرت المفتش ميؤوساً منه.

سألني وأنا أنهض للمغادرة: ألا يوجد شيء آخر تقولينه لنا عنه؟

قلت: "بلى". وانتهزت الفرصة لأرمي له بالقنبلة الوداعية: كان رأسه عريضاً وقصيراً بشكل ملفت للانتباه، ولن يكون من السهل عليه تبديل ذلك.

* * *

الفصل الخامس

وفي ذروة السخط وجدت أن خطوتي التالية كانت سهلة على نحو غير متوقع. كنت قد وضعت شبه خطة في ذهني عندما ذهبت إلى سكوتلانديارد؛ خطة كنت سأنفذها إذا كانت مقابلتي هناك غير مرضية (وقد كانت غير مرضية أبداً)، وإذا ما وجدت الشجاعة لتنفيذها. إن الأمور التي يخاف المرء عادة من القيام بها يكون من السهل الإقدام عليها في حمأة الغضب، ودون أن أعطي نفسي وقتاً للتفكير ذهبت إلى بيت اللورد ناسبي مباشرة.

كان اللورد ناسبي هو المليونير الذي يملك صحيفة الديلي بَدجيت. كان يملك صحفاً أخرى عديدة، ولكن الديلي بَدجيت كانت صحيفته المدللة، وكان معروفاً لدى كل بيت إنكليزي بصفته مالكاً لتلك الصحيفة. ولأن تحركات الرجل العظيم اليومية كانت قد نُشرت لتوها في الصحيفة فقد عرفت أين أجده بالضبط في تلك اللحظة. كانت تلك هي الساعة التي يملي فيها بريده على سكرتيره في بيته.

لم أفترض طبعاً أن أية فتاة تختار المجيء إليه وطلب رؤيته سيتم إدخالها فوراً لمقابلته المهيبة، ولكنني كنت قد احترزت لهذا الجانب من المسألة. لاحظت على الطاولة في صالة منزل السيد فليمنغ وجود بطاقة المركيز لومسلي، النبيل الرياضي الأكثر شهرة في إنكلترا. كنت

قد أخذت هذه البطاقة ونظفتها بعناية وكتبت عليها بالقلم الرصاص الكلمات: "أرجو أن تعطي الآنسة بيدنغفيلد القليل من وقتك". لا يجب أن تكون المغامِرات شديدات الورع في أساليبهن!

نجحت الخطة؛ فقد استلم الخادم البطاقة وذهب بها، وفي الحال جاء سكرتير شاحب اللون. تملصت من أسئلته فرجع مهزوماً، ثم عاد ثانية وطلب مني أن أتبعه، فتبعته. دخلت غرفة كبيرة. عبرتْ من جانبي بسرعة طابعةُ اختزال يبدو عليها الخوف وكأنها طائر قادم من عالم الأرواح، ثم أغلق الباب وأصبحت مع اللورد ناسبي وجهاً لوجه.

كان رجلاً ضخماً، كبير الرأس، كبير الوجه، كبير الشاربين، كبير البطن. واستجمعت قواي، فأنا لم آت هنا للتعليق على بطن اللورد ناسبي، وقد بدأ يزأر قائلاً: حسناً، ما الأمر؟ ماذا يريد لومسلي؟ هل أنت سكرتيرته؟ ما الأمر؟

قلت بكل ما استطعتُ استجماعه من برودة أعصاب: أولاً أنا لا أعرف اللورد لومسلي، وهو لا يعرف عنّي شيئاً بالتأكيد. لقد أخذت بطاقته عن الطاولة في بيت الناس الذين أقيم معهم وكتبت هذه الكلمات عليها بنفسي. كنت أريد رؤيتك لأمر مهم.

بدا للحظات أن اللورد ناسبي يوشك أن يُصاب بسكتة، وفي نهاية الأمر بلع ريقه مرتين ثم تغلب على حالته تلك وقال: أنا معجب ببرودة أعصابك أيتها الفتاة. حسناً، ها قد رأيتني! إذا أثرت اهتمامي فسوف تستمرين في رؤيتي لدقيقتين أخريين بالضبط.

أجبته: سيكون هذا كافياً، وسوف أثير اهتمامك. إنه لغز ميل هاوس.

قاطعني على عجل: إذا كنت قد وجدت «الرجل ذا البدلة البنية» فاكتبي إلى رئيس التحرير.

قلت بعناد: إن كنت ستقاطعني فسأمكث أكثر من دقيقتين. أنا لم أجد الرجل ذا البدلة البنية، ولكن يُرجَّح جداً أن أجده.

شرحت له في أقل ما أستطيعه من كلمات حقائق حادث نفق القطارات والاستنتاجات التي توصلت إليها. وعندما أنهيت كلامي قال على نحو غير متوقع: ماذا تعرفين عن الرؤوس العريضة القصيرة؟

ذكرت له والدي فقال: الرجل القرد؟ إيه؟ يبدو أن في رأسك عقلاً من نوع معين أيتها الفتاة. ولكن ما تعرفينه ضئيل جداً. ليس فيه الكثير مما يمكن العمل بموجبه، وهذا لا يفيدنا... بوضعه الحالي.

- أنا أدرك هذا تماماً.

- إذن ماذا تريدين؟

- أريد وظيفة في صحيفتك لكي أحقق في هذه المسألة.

- لا أستطيع ذلك. لدينا صحفي خاص يتولى هذه القضية.

- ولديّ معلوماتي الخاصة أيضاً.

- أهي ما أخبرتني به الآن؟

- آه، لا يا لورد ناسبي. ما زلت أحتفظ بشيء عندي.

- أهذا صحيح؟ تبدين فتاة ذكية. حسناً، ما هو هذا الشيء؟

- عندما دخل هذا الطبيب المزعوم إلى المصعد أسقط ورقة،

وقد أخذتُها عن الأرض. كانت رائحة كرات العث تفوح منها، وكذلك كانت رائحة الرجل القتيل. لم تكن الرائحة تفوح من الطبيب، ولذلك فقد أدركت على الفور بأن الطبيب لا بد أن يكون قد أخذها من الجثة. كان مكتوباً عليها كلمتان وبعض الأرقام.

- دعيني أراها.

مدّ اللورد ناسبي يده دون مبالاة فقلت مبتسمة: لا أرى ذلك؛ إنه اكتشافي أنا.

- أنا مصيب؛ فأنت فعلاً فتاة ذكية. إنك مصيبة تماماً في تمسكك بها. ألم تشعري بحرج من عدم تسليمها إلى الشرطة؟

- ذهبت هناك صباح اليوم لكي أفعل ذلك، وقد أصرّوا على عدم وجود صلة بين هذا الأمر وبين جريمة مارلو، ولذلك رأيت أن من حقي -في هذه الظروف- الاحتفاظ بالورقة. وإلى جانب ذلك فقد كان المفتش مستهتراً بي.

- إنه رجل قصير النظر. حسناً يا فتاتي العزيزة، إليك ما أستطيع فعله لك: واصلي عملك هذا، وإذا حصلت على أي شيء... أي شيء صالح للنشر... فأرسليه مباشرة وسوف تحصلين على فرصتك. لدينا دائماً مجال في الديلي بَدجيت للموهوبين الحقيقيين. ولكن يجب أن تثبتي نجاحك أولاً. أفهمت؟

شكرته واعتذرت له عن أسلوبي في المجيء إليه، فقال: لا تأبهي لذلك. إنني أحب القليل من الوقاحة... من فتاة جميلة. على فكرة، لقد قلتِ دقيقتين وقد مكثت هنا ثلاث دقائق بسبب المقاطعة. وهذه مسألة

ملفتة تماماً للنظر عندما تأتي من امرأة! لا بد أن ذلك عائد لتدريبك العلمي.

خرجت إلى الشارع ثانية أتنفس بصعوبة وكأنني كنت أركض. وقد وجدت اللورد ناسبي مُتعِباً كرجل أتعرف عليه حديثاً!

* * *

الفصل السادس

عدت إلى البيت وقد غمرني إحساس بالبهجة. لقد نجحت خطتي أكثر ممّا كنت أتوقع. كان اللورد ناسبي لطيفاً جداً، وأصبحت الكرة الآن في ملعبي لكي أثبت نجاحي كما قال. وعندما أغلقت عليّ غرفتي أخرجت ورقتي الثمينة وتفحصتها باهتمام. هنا مفتاح اللغز.

«١٢٢ ١٧, ١ كيلموردن كاسل».

ماذا تعني هذه الأرقام؟ كانت خمسة أرقام مع وجود فاصلة بين الرقمين الثاني والثالث من اليسار... سبعة عشر على الجهة اليسرى، ومئة واثنان وعشرون على الجهة اليمنى... لم يبد أن ذلك يفضي إلى شيء.

بعدها جمعت هذه الأرقام، فهذا ما يحدث غالباً في الروايات ويؤدي إلى نتائج مدهشة: واحد وسبعة يساوي ثمانية، وواحد يساوي تسعة، واثنان يساوي أحد عشر، واثنان يساوي ثلاثة عشر!

ثلاثة عشر؟ رقم مشؤوم! أكان ذلك تحذيراً لي لأترك البحث في هذا الأمر؟ محتمل جداً. وعلى أية حال فقد بدا الأمر -من غير صفة التحذير- عديم الفائدة تماماً. رفضتُ التصديق بأن أي متآمر يمكن أن

يكتب الرقم ثلاثة عشر بهذه الطريقة، فلو كان يقصد كتابة ثلاثة عشر لكان كتبها بالأرقام، هكذا: ١٣.

كانت بين رقم واحد ورقم اثنين مسافة، فطرحت اثنين وعشرين من مئة وواحد وسبعين. كانت النتيجة هي مئة وتسعة وخمسون. فعلت ذلك ثانية، وجعلتها مئة وتسعة وأربعين. لا شك أن هذه التمارين الحسابية تعد تمريناً رائعاً، ولكنها بدت -بالنسبة لحل اللغز- عقيمة تماماً. تركت الحساب دون أن أحاول القيام بعمليات قسمة أو ضرب، وانتقلت إلى الكلمات.

كيلموردن كاسل (أي قلعة كيلموردن)؛ كان هذا شيئاً محدداً... مكاناً. قد يكون موطن عائلة أرستقراطية (وريث مفقود؟ أو مُطالِب بلقب؟)، أو ربما أثر غريب جميل (كنز مدفون؟).

نعم، ملتُ إجمالاً إلى تبني فكرة الكنز المدفون؛ فالأرقام تترافق دوماً مع الكنوز المدفونة. خطوة واحدة إلى اليمين، سبع خطوات إلى اليسار، احفر قدماً واحداً في الأرض، اهبط اثنتين وعشرين درجة... مثل هذه الأفكار. أستطيع حلّ ذلك فيما بعد. المهم هو الوصول إلى قلعة كيلموردن في أسرع وقت ممكن.

خرجت بهجمة استراتيجية من غرفتي لأعود محملة بالكتب المرجعية، بدءاً بموسوعة «الأعلام» وانتهاء بكل المراجع التي تتحدث عن تاريخ البلد وآثاره وعائلاته العريقة.

مرّ الوقت وأنا أبحث دون كلل، ولكن انزعاجي كان يزداد، وأخيراً أغلقت الكتاب الأخير بقوة. بدا لي أنه لا يوجد مكان يدعى قلعة كيلموردن. وكان هذا عائقاً غير متوقع. لا بد من وجود مكان بهذا

الاسم. لماذا يخترع شخصٌ اسماً كهذا ويكتبه على قصاصة من الورق؟ هذا سخف!

خطرت لي فكرة أخرى: قد يكون مكاناً بغيضاً محصناً كالقلعة في الضواحي اخترع له صاحبه هذا الاسم الصارخ، ولكن إن كان هذا صحيحاً فسيكون العثور عليه صعباً جداً.

جلست على الأرض عابسة (وأنا دائماً أجلس على الأرض عندما أريد عمل أي شيء مهم) وتساءلت كيف سأبدأ هذا العمل. هل توجد طريقة أخرى أستطيع اتباعها؟ فكرت باهتمام ثم قفزت واقفة وأنا أشعر بالابتهاج يغمرني. بالطبع! يجب أن أزور «مسرح الجريمة»؛ المحققون السريون يفعلون ذلك دائماً، وهم يعثرون دوماً على شيء غفل عنه الشرطة بغض النظر عن طول المدة بعد الحادث. كان طريقي واضحاً... يجب أن أذهب إلى مارلو.

ولكن كيف سأدخل إلى البيت؟ استبعدتُ بعضاً من أساليب المغامرات ورأيت استخدام أسلوب بسيط جداً. كان البيت معروضاً للإيجار، ويفترض أنه ما زال كذلك. سأذهب على شكل واحدة تبحث عن بيت للإيجار. وهكذا قررت زيارة وكلاء البيت، والتغطية على هدفي باستعراض بعض البيوت الأخرى في سجلاتهم.

ولكني هنا لم أستعن بمضيفي. قدّم لي موظف خفيف الظل مواصفات لنحو ستة بيوت جيدة، وقد تطلب الأمر منّي استعمال كل عبقريتي لأجد أسباباً لرفضها، وخشيت في النهاية أن أكون قد وصلت إلى طريق مسدود.

سألت الموظف وأنا أحدّق حزينة إلى عينيه: "ألا توجد لديكم

أية بيوت أخرى؟"، ثم أضفت وأنا ألخص أوصاف ميل هاوس كما عرفتها من الصحف: بيت على النهر مباشرة، بحديقة واسعة، وبيت صغير للبواب؟

قال الرجل بارتياب: لدينا طبعاً بيت السير يوستيس بيدلار، المسمى ميل هاوس.

قلت متلعثمة: أليس هو... أليس... (كان التلعثم هنا حقاً ضربة معلّم).

- بلى؛ إنه البيت الذي حدثت فيه جريمة القتل. ولكنك قد لا ترغبين...

قلت وأنا أتظاهر بالتماسك: آه! لا أظنني أهتم لذلك.

أحسست أن أوراقي الثبوتية قد ترسخت تماماً الآن، فأضفتُ قائلة: وربما أحصل عليه بأجرة أرخص... بسبب ذلك.

رأيت أن هذه كانت ضربة معلم هي الأخرى. وقد أجابني الرجل: حسناً، هذا محتمل. لن نزعم أن تأجيره سيكون سهلاً الآن... بسبب رفض الخدم للعمل فيه وما إلى ذلك. إذا أعجبك البيت بعد معاينته فإني أنصحك بتقديم عرض لاستئجاره. هل أكتب لك إذناً بمعاينة البيت؟

- أرجوك.

بعد ذلك بربع ساعة كنت أقف عند بيت البواب التابع لميل هاوس. وعندما طرقت الباب فُتح وأطلت منه امرأة طويلة متوسطة العمر وقالت: لا يمكن لأحد دخول البيت، هل تسمعين هذا؟ لقد سئمت جداً منكم معشر الصحفيين. إن أوامر السير يوستيس تقول...

قلت مصعوقة وأنا أخرج إذن المعاينة: لقد فهمتُ أن البيت معروض للإيجار، ولكن إن كان أحد قد استأجره...

- آه، أرجوك أن تسامحيني يا آنسة. لقد أزعجني كثيراً هؤلاء الصحفيون... لا أكاد أجد دقيقة راحة. لا، البيت لم يؤجر بعد، ولا يُحتمل أن يؤجر بعد الآن.

سألتها باهتمام: هل توجد مشكلة في المجاري؟

- يا إلهي! إن المجاري طبيعية يا آنسة، ولكن لا بد أنك سمعت عن تلك المرأة الأجنبية التي قتلت هنا؟

قلت دون مبالاة: أعتقد أنني قرأت شيئاً عن هذا في الصحف.

أثارت لامبالاتي هذه فضولَ المرأة الطيبة، ولو أنني أظهرت اهتماماً لكانت تكتمت على الأمر أيما تكتم. وهكذا انطلقت في الحديث متشامخة.

- لا بد أنك قرأت عنها بالفعل! لقد نُشرت القصة في جميع الصحف. إن صحيفة الديلي بَدجيت ما تزال تبحث عن القاتل، ويبدو -مما يقولونه- أن الشرطة عندنا غير أكفاء أبداً. أرجو أن ينجحوا في القبض عليه... رغم أنه كان شاباً وسيماً دون شك. كان في مظهره ما يوحي بالسمت العسكري... حسناً، ربما كان ممن جُرحوا في الحرب، وهم يصبحون غريبي الأطوار بعد ذلك أحياناً. ابن أختي حدث معه ذلك. ربما كانت تسيء معاملته... هؤلاء الأجانب سيئون كثيراً، رغم أنها كانت امرأة جميلة. وقفت هنا حيث تقفين أنت الآن.

قلت مغامِرة: أكانت سمراء أم بيضاء؟ لا يمكن للمرء أن يعرف ذلك من الصور التي تنشرها الصحف.

- كان شعرها أسود، أما وجهها فكان شديد البياض. أحسستُ أنه أكثر بياضاً من أن يكون طبيعياً. وكانت تضع أحمر شفاه صارخاً. أنا لا أحب رؤية أحمر الشفاه.

أصبحنا نتحدث الآن مثل صديقتين قديمتين. طرحت عليها سؤالاً آخر: أكانت تبدو عصبية أو منزعجة؟

- أبداً. كانت تبتسم مع نفسها هادئة، وكأنها مسرورة من شيء. هذا هو السبب الذي أصابني بالذعر عندما جاء هؤلاء الأشخاص بعد ظهر اليوم التالي يركضون ويطلبون الشرطة ويقولون إن جريمة قتل قد وقعت. لن أتمكن من نسيان ذلك الموقف أبداً، ولن أجرؤ على وضع قدمي في ذلك البيت أثناء الليل بعد ذلك. بل إنني ما كنت لأبقى هنا في الكوخ لولا توسل السير يوستيس إلي لأبقى.

- ولكني ظننتُ أن السير يوستيس بيدلار موجود في مدينة كان؟

- نعم يا آنسة، ولقد عاد إلى إنكلترا عندما سمع الخبر. وبالنسبة لتوسله إلي فهو كلام مجازي، حيث أن سكرتيره السيد باجيت قد عرض علينا راتباً مضاعفاً لكي نبقى هنا، وكما يقول زوجي جونز فإن المال هو المال هذه الأيام.

اتفقت تماماً مع زوجها جونز في عبارته التي يعرفها الكبير والصغير.

قالت السيدة جيمس وهي تعود فجأة إلى نقطة سابقة في الحديث: أما ذلك الشاب فقد كان منزعجاً بالفعل. كانت عيناه الفاتحتان تلتمعان تماماً، وقد لاحظتهما بشكل خاص. شعرت بأنه منفعل، ولكني لم

أتصور وجود شيء غير طبيعي. ولا حتى عندما خرج من البيت ثانية وهو يبدو غريباً.

- كم بقي داخل البيت؟

- آه، لم يمكث طويلاً؛ ربما نحواً من خمس دقائق فقط.

- كم كان طوله برأيك؟ نحو ستة أقدام؟

- أظن ذلك.

- أقلتِ إنه كان حليق الوجه؟

- نعم يا آنسة. لم يكن له حتى شاربان صغيران كتلك الشوارب التي تشبه فرشاة الأسنان.

سألتها بدافع مفاجئ: أكان ذقنه لامعاً؟

حدّقت السيدة جيمس إليّ بشيء من الرهبة وقالت: غريب أن تذكري ذلك يا آنسة، فقد كان لامعاً بالفعل. كيف عرفتِ ذلك؟

رميتُ توضيحاً مبهماً: مسألة غريبة، ولكن للقتلة ذقوناً لامعة بشكل عام.

قبلت السيدة جيمس هذا التبرير بحسن نية وقالت: عجيب يا آنسة، إنني لم أسمع بذلك من قبل أبداً.

- أظن أنك لم تلحظي شكل رأسه، أليس كذلك؟

- إنه من النوع العادي يا آنسة. هل أحضر لك المفاتيح؟

أخذتها وأكملت طريقي إلى منزل ميل هاوس. اعتبرت الخطوات

التي قمت بها جيدة حتى الآن. لقد أدركت طوال الحديث أن الفروقات بين الرجل الذي وصفته السيدة جيمس وبين الطبيب الذي رأيته في نفق القطارات لم تكن فروقات جوهرية. معطف، ولحية، ونظارات ذات إطار ذهبي. لقد بدا «الطبيب» في أواسط عمره، ولكني تذكرت أنه انحنى على الجثة كأنه شاب نسبياً؛ فقد كانت في جسمه مرونة تدل على شبابه.

ضحية الحادث (وهو ما أسميته مع نفسي رجل النفتالين) والمرأة الأجنبية (السيدة دي كاستينا، أو مهما كان اسمها الحقيقي) كانا قد حدّدا موعداً للالتقاء في ميل هاوس. هكذا جمعت الأمرين معاً. إمّا لأنهما كانا يخشيان مراقبة أحدٍ لهما أو لسبب آخر، ولذلك اختارا الأسلوب الذكي في أن يحصل الاثنان على إذن بمعاينة نفس البيت. وهكذا سيبدو لقاؤهما هناك مجرد صدفة.

أما الحقيقة الأخرى التي كنتُ واثقة منها فهي أن رؤية رجل النفتالين لذلك «الطبيب» كانت مفاجأة غير متوقعة أبداً ومخيفة جداً له. ما الذي حدث بعد ذلك؟ تخلص الطبيب من مظاهر التخفي التي كان يضعها وتبع المرأة إلى مارلو. ولكن من الممكن -إن كان قد تخلص من اللحية بسرعة- أن تكون بقايا الصمغ قد بقيت عالقة على ذقنه، ولذلك كان سؤالي الذي سألته السيدة جيمس.

وبينما كنت مستغرقة في التفكير وصلت إلى باب ميل هاوس المنخفض القديم. فتحته بالمفتاح ودخلت. كان سقف الصالة منخفضاً، وكان المكان معتماً تدل رائحته على أنه مهجور والعفن يملؤه. ارتعشت رغماً عني. ترى ألم تشعر المرأة التي جاءت إلى هنا قبل بضعة أيام وهي «تبتسم مع نفسها» بخطر مرتقب عندما دخلت هذا البيت؟ هل

تلاشت البسمة عن شفتيها وهل اقترب من قلبها خوف مجهول؟ أم أنها صعدت الطابق العلوي وكانت ما تزال تبتسم دون وعي للخطر الذي سيداهمها بعد وقت قصير؟ تسارعت نبضات قلبي أكثر. هل كان البيت فارغاً حقاً؟ هل ينتظرني الخطر أنا الأخرى هنا؟ لأول مرة فهمت معنى الكلمة الشائعة «الجو». كان في هذا البيت جو ما، جو من القسوة والخطر والشر.

* * *

الفصل السابع

دفعت عن نفسي الأحاسيس التي ضايقتني وصعدت إلى الطابق العلوي بسرعة. لم أجد صعوبة في العثور على الغرفة التي وقعت بها المأساة؛ ففي اليوم الذي اكتشفت فيه الجثة كانت السماء قد أمطرت مطراً غزيراً ولذلك كانت آثار الأحذية الموحلة تملأ أرضية الغرفة العارية في كل اتجاه. تساءلت ما إذا كان القاتل قد ترك آثاراً لقدميه في اليوم الذي سبق ذلك. كان المرجح أن يتكتم الشرطة على هذا الأمر لو كان ترك آثاراً، ولكني عندما فكرت في هذا الأمر قررت أنه لم يكن محتملاً، لأن الجو يومها كان جميلاً غير ممطر.

لم يكن في الغرفة ما يثير الاهتمام. كانت غرفة مربعة تقريباً، ذات نافذتين كبيرتين بارزتين إلى خارج البيت، وجدران بيضاء خالية، وأرضية غير مفروشة، وكانت الألواح الخشبية للأرضية متسخة عند الحواف حيث تنتهي أطراف السجادة. فتشتُ الغرفة بعناية، ولكني لم أعثر فيها على شيء ذي دلالة مهما صغر، ولم يبدُ محتملاً أن تكتشف «امرأة التحري» الموهوبة الشابة أي دليل تم إهماله.

كنت قد أحضرت معي قلم رصاص ودفتر ملاحظات. ولم يبدُ أنه يوجد الكثير مما يمكن تدوينه، ولكني رسمت مخططاً مختصراً للغرفة

لكي أغطي على خيبتي في الفشل في مسعاي. وعندما كنت أعيد قلم الرصاص إلى حقيبتي انزلق من بين أصابعي وتدحرج على الأرضية.

كان ميل هاوس بيتاً قديماً حقاً، وكانت أرضياته غير مستوية، ولذلك تدحرج القلم باطراد وحركة متسارعة إلى أن استقر تحت إحدى النافذتين. وفي الفتحة التي توجد أسفل كلٍّ من النافذتين كان يوجد مقعد نافذة عريض وتحته خزانة، وكان قلمي قد توقف عند باب الخزانة تماماً. كانت الخزانة مغلقة، ولكن خطر لي فجأة أن القلم كان سيدخل الخزانة لو كان بابها مفتوحاً. فتحت الباب فتدحرج قلمي فوراً ودخل ليستقر في زاوية الخزانة البعيدة. أخرجته مع ملاحظة أن القلم لم يكن بالإمكان رؤيته، بل يجب التحسس باليد بحثاً عنه، وذلك بسبب عدم وجود ضوء وبسبب التصميم الخاص للخزانة. وفيما عدا قلمي كانت الخزانة خاوية. ولأني لا أحب إغفال شيء بحكم طبيعتي فقد جربت فتح الخزانة الأخرى أسفل النافذة المقابلة.

بدت من النظرة الأولى وكأنها فارغة هي الأخرى، ولكني نقبت في داخلها بدأب، وكانت النتيجة أن أمسكَتْ يدي أسطوانة قاسية كانت تستقر في ثغرة معينة أو مُنخفَض في الزاوية البعيدة للخزانة. وحالما أمسكتها بيدي عرفت ما هي؛ كانت لفافة من أفلام كوداك. لقد صرت أمام اكتشاف جيد!

أدركت -بالطبع- أن هذا الفِلم قد يكون فِلماً قديماً يخص السير يوستيس بيدلار تدحرج هنا ولم يتم العثور عليه عندما أُفرغت الخزانة. ولكني لم أقتنع بذلك؛ فالورقة الحمراء كانت أحدث منظراً من أن تكون كذلك. لم تكن مغبرة إلاّ بالقدر الذي يمكن أن يلحق بها إذا ما وُضعت في هذا المكان قبل يومين أو ثلاثة أيام... أي منذ اليوم الذي ارتكبت

فيه الجريمة، ولو كانت موضوعة هناك منذ مدة أطول لكان الغبار الذي يعلوها كثيفاً جداً.

من أسقطها هنا؟ المرأة أم الرجل؟ تذكرت أن محتويات حقيبتها كانت سليمة ولم تمس كما ظهر من التحقيق. لو أن حقيبتها انفتحت أثناء العراك وسقطت منها لفافة الفلم لكان مؤكداً أن تسقط منها أيضاً بعض القطع النقدية وتتبعثر في المكان. لا، لم تكن المرأة هي التي أسقطت الفلم.

استنشقت فجأة وبارتياب. أتراني أصبحت موسوسة برائحة النفتالين؟ كنت واثقة بأن لفافة الأفلام تفوح منها نفس الرائحة أيضاً. رفعتها إلى أنفي. كانت تخرج منها -كالعادة- رائحتها القوية الخاصة بها، ولكن بالإضافة إلى ذلك استطعت تمييز تلك الرائحة التي أكرهها بوضوح. عرفت السبب في الحال؛ كان خيط صغير من القماش عالقاً في الحافة الخشنة من البكرة التي يلتف عليها الفلم، وكان خيط القماش هذا مشرَّباً برائحة النفتالين. لقد كان هذا الفلم في وقت ما داخل جيب معطف الرجل الذي قُتل في نفق القطارات! هل كان هو الذي أسقطه هنا؟ لا يكاد ذلك يكون ممكناً؛ فتحركاته كلها قد تم إحصاؤها وذكرها.

لا، كان من أسقطه هو الرجل الآخر... الطبيب. لقد أخذ الفلم عندما أخذ الورقة، وهو الذي أسقطه هنا خلال صراعه مع المرأة. لقد حصلت على طرف خيط! سوف أحمِّض الفلم، وعندها ستكون عندي معلومات أخرى أعمل بموجبها.

تركت البيت فرحة جداً، وأعدت المفاتيح إلى السيدة جيمس، وتوجهت بأقصى سرعة ممكنة إلى محطة القطارات. وفي طريق عودتي إلى المدينة أخرجت ورقتي الصغيرة وتفحصتها ثانية. وفجأة اكتسبت

الأرقام دلالة جديدة. ماذا لو كانت هذه الأرقام تاريخاً؟ ١٧,١,٢٢؛ أي السابع عشر من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٢. لا بد أن يكون الأمر كذلك بالتأكيد! كنت غبية إذ لم أفكر بهذا من قبل. ولكن في هذه الحالة يجب أن أكتشف مكان قلعة كيلموردن، فاليوم هو عملياً الرابع عشر من كانون الثاني. بقيت ثلاثة أيام؛ وقت غير كاف... بل يكاد يكون مستحيلاً، خاصة إن لم يعرف المرء أين يبحث!

كان الوقت متأخراً لإيداع الفلم للتحميض، واضطررتُ للإسراع عائدة إلى البيت في كينسنغتن حتى لا أتأخر على العشاء. وهناك خطر ببالي وجود طريقة سهلة للتأكد من صحة بعض استنتاجاتي. سألت السيد فليمنغ إن كانت بين أغراض الرجل القتيل آلة تصوير، فقد كنت أعرف أنه كان مهتماً بالقضية ومطلعاً على جميع التفاصيل.

ولشدة دهشتي وانزعاجي ردّ علي بأنه لم يكن يحتفظ بأية آلة تصوير، فقد تم تفتيش جميع أغراض كارتون تفتيشاً دقيقاً على أمل العثور على شيء قد يلقي الضوء على حالته الذهنية، وكان السيد فليمنغ متأكداً من عدم وجود آلة تصوير من أي نوع بين أغراضه.

كان ذلك أشبه بنكسة لنظريتي؛ فإن لم تكن معه آلة تصوير، فلماذا يحمل أفلاماً؟

انطلقت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لأحمض فلمي الثمين، وكنت شديدة الحرص بحيث ذهبت مباشرة إلى محلات كوداك الرئيسية في شارع ريجنت حيث سلمت الفلم لرجل هناك وطلبت نسخة عن كل صورة.

أنهى الرجل جمع عدد من الأفلام المعبأة في علب صفراء صغيرة لإرسالها إلى الخارج، ثم أخذ فلمي فنظر إليه وقال وهو يبتسم: أظن

أنك قد أخطأت.

- آه، لا؛ أنا متأكدة أنني لم أخطئ.

- لقد أعطيتني البكرة هذه بالخطأ؛ إنه فلم غير مصوَّر.

خرجت من عنده أستجمع ما تبقّى من كبريائي. أحسب أن من المفيد للمرء أن يعرف من وقت لآخر مقدار غبائه، ولكن أحداً لا يستطيب هذه العملية!

وبعد ذلك -عندما كنت أمر من جانب إحدى شركات الملاحة الكبيرة- توقفت فجأة. كان معروضاً في واجهة المكتب نموذج جميل لإحدى سفن الشركة، وكان مكتوباً عليها: «قلعة كينيلوورث». خطرت ببالي فكرة اعتباطية طائشة، فدفعت الباب ودخلت، ثم ذهبت إلى مكتب الاستقبال وقلت بصوت متلعثم (وحقيقي هذه المرة!): قلعة كيلموردن؟

- ستقلع يوم السابع عشر من ساوثهامبتون. أتريدين السفر إلى كيب تاون؟ في الدرجة الأولى أم الثانية؟

- كم سعر التذكرة؟

- للدرجة الأولى سبعة وثمانون جنيهاً...

قاطعته. كانت الصدفة أكبر من أن أستوعبها؛ إنه بالضبط نفس مبلغ إرثي! سأضع كل البيض عندي في سلة واحدة. قلت: الدرجة الأولى.

أصبحت الآن ملتزمة -بالتأكيد- بالمضي في المغامرة.

* * *

الفصل الثامن

(مقتطفات من مفكرة السير يوستيس بيدلار، عضو البرلمان)

أمر غير عادي أن لا أبدو قادراً على الحصول على شيء من الراحة أبداً. أنا رجل يحب الحياة الهادئة. إنني أحب النادي الذي أنتمي إليه، ولعب البريدج، والطعام المطبوخ جيداً. أحب إنكلترا في الصيف والريفيرا في الشتاء. ليست عندي أية رغبة بالمشاركة في أحداث مثيرة. أحياناً لا أمانع -وأنا أمام الموقد- بقراءة شيء عن مثل تلك الأحداث في الصحيفة، ولكن هذا هو أقصى ما يمكن أن أذهب إليه. إن هدفي في الحياة هو الحصول على الراحة التامة، وقد كرست مقداراً معيناً من التفكير ومقداراً معيناً من المال لتحقيق ذلك الهدف، ولكني لا أستطيع القول إنني نجحتُ دوماً في ذلك. فإذا لم تحدث الأمور معي أنا فهي تحدث حولي، ولذلك أتورط فيها غالباً رغماً عن نفسي... وأنا أكره التورط.

كل هذه المقدمة لأن غاي باجيت جاء إلى غرفة نومي هذا الصباح يحمل بيده برقية ووجهه كوجه أخرس في جنازة.

وغاي باجيت هو سكرتيري، وهو رجل متحمس ومجتهد ورائع في كل شيء، وأنا لا أعرف أحداً يزعجني أكثر منه. ولقد كنت منذ وقت طويل أفكر في كيفية التخلص منه، ولكنك لا تستطيع طرد سكرتير لأنه يفضل العمل على اللعب ويحب النهوض من نومه مبكراً في الصباح وليست فيه أية عيوب. إن الشيء الوحيد المسلّي في هذا الرجل هو وجهه. إن له وجه أولئك الذين كانوا يدسون السم في القرن الرابع عشر... من ذلك النوع الذي كان من شأن قيصر بورجيا أن يستخدمه ليقوم عنه بالمهمات القذرة.

ومع ذلك ما كنت لأهتم كثيراً لو لم يجعلني باجيت أعمل أيضاً. إن فكرتي عن العمل هي أنه شيء يجب القيام به بمرح وخفة... بل العبث به في الحقيقة! وأنا أشك في أن يكون غاي باجيت قد عبث بأي شيء في حياته؛ فهو يأخذ كل شيء على محمل الجد، وهذا ما يجعل العيش معه صعباً.

راودتني -في الأسبوع الماضي- فكرة ذكية في إرساله إلى فلورنسا. لقد تحدث عن فلورنسا ومدى رغبته في الذهاب إلى هناك فصحت: يا صاحبي العزيز، ستذهب إلى هناك غداً، وسأدفع لك جميع مصاريفك.

إن كانون الثاني (يناير) ليس الوقت المعتاد للذهاب إلى فلورنسا، ولكن الأمر سيكون سيان بالنسبة لباجيت. أتخيله وهو يتجول هناك يحمل كتاباً مرشداً بيده ويزور جميع معارض الرسومات. وما أرخص ذلك الثمن مقابل أسبوع من الحرية!

كان أسبوعاً جميلاً. فعلت فيه كل شيء أردته، ولم أفعل فيه أي

شيء لا أريده. ولكني عندما فتحت عيني ووعيت على باجيت واقفاً بيني وبين الضوء في وقت مُستهجَنٍ هو الساعة التاسعة من صباح هذا اليوم، أدركت أن الحرية قد انتهت.

قلت: هل خرجت الجنازة يا عزيزي... أم أنها ستجري في وقت لاحق هذا الصباح؟

لم تكن السخرية الجافة تروق لباجيت. اكتفى بالتحديق في وجهي وقال: إذن فأنت تعرف يا سيد يوستيس؟

قلت بغيظ: أعرف ماذا؟ لقد استنتجتُ من تعابير وجهك أن أحد أقاربك المقربين الأعزاء سيدفن هذا الصباح.

تجاهل باجيت مزاحي قدر الإمكان، وقال وهو ينقر على البرقية: ظننت أنك لا تعرف عن هذه. أعرف أنك تكره أن يوقظك أحد مبكراً... ولكنها الآن التاسعة صباحاً (يُصرّ باجيت على اعتبار الساعة التاسعة صباحاً منتصف النهار عملياً)، وقد اعتقدتُ أنك بسبب هذه الظروف...

ثم ربّت على البرقية ثانية، فسألته: ما هذا الشيء؟

- إنها برقية من شرطة مارلو. لقد قُتلت امرأة في بيتك.

أيقظتني كلماته هذه تماماً، فصحت: أي وقاحة كبيرة هذه! لماذا في بيتي أنا؟ من الذي قتلها؟

- إنهم لا يقولون. أظن أن علينا أن نعود إلى إنكلترا فوراً يا سيدي.

- لا حاجة لأن تظن شيئاً من ذلك. لماذا يجب أن نعود؟

- الشرطة...

- وما علاقتي أنا بالشرطة؟

- إنه بيتك.

- يبدو ذلك سوء طالعي أكثر منه خطئي.

هز غاي باجيت رأسه عابساً وقال باكتئاب: سيكون لهذا تأثير مؤسف جداً على جمهور ناخبيك.

لا أفهم لماذا يكون له هذا التأثير... ومع ذلك لدي إحساس بأن غرائز باجيت تكون دائماً على حق في مثل هذه الأمور، فمن حيث الظاهر لن يقلل من كفاءة عضوٍ في البرلمان أن تأتي شابة تائهة فتُقتل في بيت فارغ له... ولكن أحداً لا يستطيع التنبؤ بوجهة النظر التي يراها الجمهور البريطاني المحترم إزاء أية قضية.

أكمل باجيت حديثه عابساً: وهي امرأة أجنبية أيضاً، وهو ما يجعل الأمر أسوأ.

مرة أخرى أظنه على حق؛ فإن كان مقتل امرأة في بيتك يضر بسمعتك فإنه يكون أكثر ضرراً إن كانت المرأة أجنبية. ثم خطرت لي فكرة أخرى فصحت: يا إلهي! أرجو ألا يضايق هذا كارولين.

كارولين هي المرأة التي تطبخ لي، وقد صدف أنها زوجة البستاني الذي يعمل عندي. ولئن كنتُ لا أعرف كيف تقوم بدور الزوجة، إلاّ أنها طاهية ممتازة. ومن ناحية أخرى فإن جيمس ليس بستانياً جيداً... ولكني أوافقه على كسله وأسكنه عندي في بيت البواب بسبب طهي كارولين فقط.

قال باجيت: لا أظنها ستبقى بعد هذا الحادث.

- لقد كنتَ دائماً شخصاً مبهجاً.

أظن أن علي العودة إلى إنكلترا. كان واضحاً أن باجيت يريد ذلك مني، كما أن علي أن أهدئ كارولين.

* * *

بعد ثلاثة أيام:

لا أصدق كيف يمكن لأحدٍ يستطيع الهروب من إنكلترا في الشتاء أن لا يفعل ذلك! فمناخها سيء جداً، وهذه المتاعب كلها مزعجة جداً. يقول وكلاء البيت إن تأجير ميل هاوس بعد هذه الفضيحة سيكون أقرب إلى المستحيل. لقد هدأت كارولين... بمضاعفة راتبها. كان بوسعنا أن نرسل لها برقية بهذا المعنى من كان، والحقيقة -كما قلت من البداية- لم أجد غرضاً من عودتنا إلى هنا. سأعود إلى هناك غداً.

* * *

بعد يوم واحد من ذلك:

حدثت عدة أشياء مدهشة جداً. أولاً قابلت أوغستوس ميلراي، وهو أفضل نموذج مثالي للحمار تنتجه الحكومة الحالية. أخذني في النادي جانباً عند زاوية هادئة بأسلوب ينضح بالسرية الدبلوماسية الخطيرة، ثم تحدث كلاماً كثيراً... عن جنوب أفريقيا والوضع الاقتصادي هناك، وعن الإشاعات المتزايدة عن حدوث إضراب في الراند، وعن الأسباب السرية التي تقف وراء ذلك الإضراب. كنت أصغي له بكل ما أوتيت

من صبر، وأخيراً خفّض صوته حتى أصبح همساً وهو يشرح لي بأن مستندات معينة قد ظهرت ويجب أن تسلّم إلى الجنرال سماتز.

قلت وأنا أمنع نفسي من التثاؤب: ليس عندي شك بأنك على حق تماماً.

- ولكن كيف نوصلها له؟ إن موقفنا في هذه المسألة حساس... حساس جداً.

قلت مبتهجاً: ما عيب البريد؟ ضع طابعاً بقيمة بنسين، ثم ضعها في أقرب صندوق بريد.

بدا وكأنه قد صُدم تماماً من هذا الاقتراح. قال: يا عزيزي بيدلار! نضعها في البريد العادي!

كان أحد الألغاز التي لم أفهمها أبداً هو إصرار الحكومات على توظيف مراسلي بريد واهتمامها الشديد بمستنداتها السرية. قلت له: إن كنت لا تحب البريد فأرسلها مع أحد رجالك. سوف يستمتع بالرحلة.

قال ميلراي وهو يهز رأسه الخَرِف: مستحيل، لدينا أسباب يا عزيزي بيدلار... أؤكد لك أن لدينا أسباباً تمنع ذلك.

قلت وأنا أنهض: حسناً، إن الحديث معك مشوق جداً، لكني يجب أن أذهب...

- دقيقة واحدة من فضلك يا عزيزي بيدلار، دقيقة واحدة. أخبرني الآن بيني وبينك، أليس صحيحاً أنك تعتزم القيام بزيارة لجنوب أفريقيا قريباً؟ إن لك مصالح كبيرة في روديسيا، كما أنك تولي مسألة انضمام روديسيا إلى الاتحاد اهتماماً قوياً.

- لقد فكرت في السفر إلى هناك بعد نحو شهر

- أليس باستطاعتك القيام بهذه الزيارة في وقت أقرب؟ هذا الشهر؟ أو هذا الأسبوع في الحقيقة؟

قلت وأنا أنظر إليه باهتمام. أستطيع، ولكن لا أظنني أريد ذلك.

- إنك تؤدي بذلك خدمة عظيمة للحكومة... خدمة عظيمة جداً. ولن تجد منها... جحوداً لذلك.

- أتعني أنك تريدني أن أكون ساعي البريد؟

- بالضبط. إن موقعك غير رسمي ورحلتك مبررة تماماً. سيكون كل شيء مقنعاً جداً.

قلت ببطء: حسناً، ليس عندي مانع في ذلك. الشيء الوحيد الذي أهتم به هو الخروج من إنكلترا ثانية في أقرب وقت ممكن.

- ستجد مناخ جنوب أفريقيا ممتعاً... ممتعاً جداً.

- أعرف كل شيء عن المناخ يا عزيزي؛ لقد كنت هناك قبل الحرب بوقت قصير.

- أنا شاكر لك كثيراً يا بيدلار. سوف أرسل لك حزمة الرسائل مع المراسل لتسلمها بيد الجنرال سماتز مباشرة، أفهمت؟ إن «قلعة كيلموردن» ستبحر يوم السبت . وهي باخرة رائعة.

رافقته لمسافة قصيرة في شارع بول مول قبل أن نفترق. صافحني بحرارة وشكرني ثانية بإسراف. وعدت إلى البيت سيراً على الأقدام أفكر في القنوات الفرعية الغريبة لسياسة الحكومة.

في مساء اليوم التالي أبلغني خادمي جارفيس أن رجلاً يرغب برؤيتي في أمر خاص، ولكنه رفض أن يعطيه اسمه. كنت أعرف أساليب مندوبي شركات التأمين، ولذلك أخبرت جارفيس أن يقول له إنني لا أستطيع رؤيته. ولسوء الحظ عندما كنت في حاجة حقيقية لخدمات غاي باجيت كان طريح الفراش بسبب مرض الصفراء. إن هؤلاء الشبان الجادين معرضون دائماً للإصابة بداء صفراء الكبد.

عاد جارفيس وقال: الرجل قد طلب مني أن أخبرك -يا سيدي- أنه جاء إليك من طرف السيد ميلراي.

لقد غيّر هذا طبيعة الأمور. فبعد ذلك ببضع دقائق كُنت أقف مواجهاً لزائري في المكتبة. كان شاباً قوي البنية ذا وجه برونزي، وكان أثرٌ لجرح يمتد مائلاً من زاوية عينه حتى فكه مشوِّهاً ما كان من شأنه أن يبدو -لولا ذلك- وجهاً وسيماً رغم ملامح القسوة عليه.

قلت: حسناً، ماذا عندك؟

- لقد أرسلني السيد ميلراي إليك يا سير يوستيس، يُفترض أن أرافقك إلى جنوب أفريقيا كسكرتير لك.

قلت: لديّ سكرتيري الخاص يا عزيزي، ولا أريد سكرتيراً آخر.

- أعتقد أنك تريد يا سيدي. أين سكرتيرك الآن؟

- إنه مصاب بنوبة من مرض صفراء الكبد.

- أأنت متأكد أنها مرض صفراء الكبد فقط؟

- بالطبع؛ إنه يعاني من هذا المرض دائماً.

ابتسم زائري وقال: قد يكون مرض الصفراء أو لا يكون، هذا ما سيكشفه الزمن. ولكني أستطيع إخبارك -يا سير يوستيس- بأن السيد ميلراي لن يُفاجَأ إذا ما جرت محاولة للتخلص من سكرتيرك. آه، لا حاجة لأن تخشى على نفسك...

أظن أن خوفاً مؤقتاً ظهر على وجهي، ولذلك أكمل الزائر قائلاً: أنت غير مهدّد، إذا تم إبعاد سكرتيرك عن الطريق فسيكون الوصول إليك أسهل. على أية حال فإن السيد ميلراي يريد منّي مرافقتك. تكاليف السفر ستكون من شأننا بالطبع، ولكنك ستقوم بالإجراءات الضرورية المتعلقة بجواز السفر باعتبار أنك قررت طلب خدمات سكرتير ثان.

بدا شاباً مصمماً. حدّق كل منا إلى الآخر كما لو كان هناك صراع إرادات، ولكنه غلبني فقلت بصوت ضعيف: حسناً.

- لا تخبر أحداً بموضوع مرافقتي لك.

قلت ثانية: حسناً.

ربما كان من الأفضل في نهاية الأمر أن آخذ هذا الشاب معي، ولكني شعرت بهاجس داخلي بأنني سأتورط في أمر ما، تماماً في الوقت الذي ظننت فيه أنني حصلت على الراحة!

أوقفت زائري عندما أراد أن يغادر وقلت ساخراً: قد يكون من الأفضل أن أعرف اسم سكرتيري الجديد.

فكر دقيقة ثم قال: يبدو هاري رايبرن اسماً مناسباً تماماً.

كانت طريقة غريبة في التعبير، وقلت للمرة الثالثة: حسناً.

* * *

الفصل التاسع
(متابعة لسرد آن)

من المخجل تماماً أن تصاب البطلة بدوار البحر. في القصص كلما كان الدوران وتقاذف الموج للسفينة أكثر كلما أحبت ذلك أكثر، وعندما يكون جميع مَن في السفينة مرضى تبقى هي الوحيدة التي تتهادى على ظهرها تتحدى العوامل الجوية وتستمتع بالعاصفة. يؤسفني القول إنني انقلبت شاحبةً وأسرعت إلى أسفل السفينة عند أول تمايلٍ للسفينة كيلموردن. وقد استقبلتني مضيفة متعاطفة وقدمت لي خبزاً جافاً وشراب الزنجبيل.

بقيت في حجيرتي أتألم ثلاثة أيام، وقد نسيت البحث الذي كنت أقوم به ولم يعد لي أي اهتمام بحل الألغاز الغامضة. كنت مختلفة تماماً عن تلك الفتاة التي عادت من شركة الملاحة مسرعة مبتهجة إلى ساحة ساوث كينسنغتن.

ابتسمت الآن وأنا أتذكر دخولي المفاجئ إلى غرفة الاستقبال. كانت السيدة فليمنغ هناك وحيدة، وعندما دخلت التفتت إلي برأسها وقالت: أهذه أنت يا عزيزتي آن؟ عندي شيء أود الحديث معك بخصوصه.

قلت وأنا أكبح صبري النافد: ماذا في الأمر؟

- إن مربية الأطفال، الآنسة إيمري، ستتركني. وبما أنك لم تنجحي إلى الآن بالعثور على أي وظيفة، فهل يمكنك البقاء معنا؟

لقد تأثرت؛ فقدكنت أعرف أنها لم تكن تريدني. إن مجرد الإحسان هو الذي جعلها تعرض عليّ الوظيفة. أحسست بالندم لأنني كنت أنتقدها في نفسي، فنهضت وأسرعت نحوها بانفعال وألقيت بذراعي حول عنقها وقلت: إنك امرأة عزيزة، عزيزة، عزيزة! أشكرك كثيراً. ولكن الأمر على ما يرام الآن، فأنا مسافرة إلى جنوب أفريقيا يوم السبت.

لقد أجفل انقضاضي السريع المرأة الطيبة. لم تكن معتادة على إظهار العواطف المفاجئ، كما أن كلماتي أجفلتها أكثر. وسألتني بدهشة: إلى جنوب أفريقيا؟! يجب أن ندرس كل شيء من هذا النوع دراسة متأنية يا عزيزتي.

كان ذلك آخر شيء أريده. شرحت لها أنني قد حجزت تذكرتي وأنني عندما أصل إلى هناك أنوي القيام بوظيفة خادمة استقبال. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير به ارتجالاً. قلت إن في جنوب أفريقيا طلباً كبيراً على خادمات الاستقبال، وطمأنتها إلى أنني قادرة على الاهتمام بنفسي، وفي النهاية تقبلت المشروع دون سؤال وهي تتنهد بارتياح لانزياح مسؤوليتي عن كاهلها. وعند المغادرة دست مغلفاً في يدي، وقد وجدت بداخله خمسة جنيهات جديدة مع عبارة: "أرجو أن لا يجرح هذا مشاعرك، وتقبليه مع حبي". كانت امرأة رائعة ولطيفة. ما كنت أستطيع الاستمرار في العيش معها في نفس البيت، ولكني عرفت قيمتها الحقيقية.

وها أنذا أواجه العالم وأواصل مغامراتي وفي جيبي خمسة وعشرون جنيهاً.

وفي اليوم الرابع من رحلتي ألحت عليّ المضيفة في الصعود إلى ظهر السفينة. وكنت قد رفضت -بثبات- مغادرة سريري وأنا مقتنعة بأن موتي هنا سيكون أسرع ممّا لو كنت على ظهر السفينة، لكنها أغرتني بقولها إننا نقترب من ماديرا. اعتمل الأمل في صدري؛ فأستطيع الآن مغادرة السفينة والنزول إلى الشاطئ والعمل خادمة استقبال هناك. إنني مستعدة أن أعمل أي شيء بشرط الوصول إلى اليابسة.

صعدت إلى ظهر السفينة بخطوات ضعيفة وأنا ألفُّ حول جسدي المعاطف والأغطية، وجلست على الكرسي الخشبي كتلة جامدة. جلست هناك وعيناي مغمضتان كارهة الحياة، وجاء موظف الحسابات في السفينة (وكان شاباً أشقر الشعر ذا وجه صبياني مستدير) وجلس بجانبي وقال: مرحباً! هل تشعرين بالحزن على حالك؟

أجبته كارهة وجوده بجانبي: نعم.

- آه، لن تعرفي نفسك بعد يوم أو يومين. الجو مغبرٌّ جداً في الخليج، ولكنه سيكون طقساً هادئاً بعد ذلك. سآخذك غداً للعب حلقات الرمي.

لم أجبه، فمضى قائلاً: أتظنين أنك لن تتعافي من مرضك؟ لقد رأيت أناساً أسوأ حالاً منك، ولكنهم أصبحوا بعد يومين فقط روح السفينة وحياتها، وستكونين مثلهم.

لم أكن أشعر بقدرتي على المشاكسة لكي أخبره صراحة بأنه كذاب. حاولت إبلاغه بذلك عن طريق النظرات، وثرثر معي لبضع

دقائق أخرى ثرثرة مرحة ثم تركتني. كان الناس يعبرون من أمامي ثم يرجعون، والأزواج النشيطون يقومون بالتمارين الرياضية، والأطفال يمرحون والشبان يضحكون. وكان بعض المرضى الشاحبين يجلسون مثلي على المقاعد الخشبية.

كان الهواء عليلاً منعشاً ولم يكن بارداً جداً، وكانت الشمس تشرق بصفاء. وبلا وعي أحسست بقليل من الابتهاج. بدأت أراقب الناس، امرأة معينة جذبت انتباهي. كانت في نحو الثلاثين من عمرها، متوسطة الطول شديدة البياض وذات وجه مستدير ذي بثور وعينين شديدتي الزرقة. وأما ملابسها فرغم أنها بسيطة تماماً إلاّ أن فيها ذلك التفصيل البارع الذي يوحي بباريس. وبدت أيضاً -على نحو مرح رغم وقاره- وكأنها تمتلك السفينة!

كان المضيفون على ظهر السفينة يركضون جيئة وذهاباً استجابة لأوامرها. كان لها كرسي خاص على ظهر السفينة يظهر بوضوح أن عليه فرشاً وثيراً، وقد غيّرت رأيها ثلاث مرات قبل أن تستقر على المكان الذي يوضع فيه، وقد بقيت رغم كل شيء جذابة فاتنة! بدا أنها واحدة من الناس القلائل في العالم الذين يعرفون ماذا يريدون، ويحرصون على الحصول عليه، ويتمكنون من فعل ذلك دون أن يسيئوا لأحد. وقررتُ أن الحديث معها سيكون ممتعاً لي إذا تعافيت من مرضي، رغم أنني لن أتعافى بالطبع!

وصلنا ماديرا في منتصف النهار تقريباً، وكنتُ ما زلت عاجزة عن الحركة، لكني استمتعت بمنظر التجار الذين صعدوا إلى ظهر السفينة وعرضوا بضاعتهم على ظهرها، وكانت هناك زهور أيضاً. قربت إلى أنفي أزهار البنفسج المبتلة ذات الرائحة الجميلة وشعرت بتحسن واضح.

فكرت -في الواقع- أنني أستطيع الاستمرار حتى نهاية الرحلة. وعندما تحدثتْ مضيفتي عن لذة حساء الدجاج عارضت ذلك معارضة ضعيفة، ولكن عندما قدموه لي استمتعت به.

كانت امرأتي الفاتنة قد نزلت إلى الشاطئ، ثم عادت برفقة رجل طويل تبدو عليه ملامح عسكرية وله شعر أسود ووجه برونزي، وكنت قد لاحظته وهو يصعد ويهبط عن ظهر السفينة في وقت مبكر من هذا اليوم، واعتبرته -على الفور- واحداً من الرجال الأقوياء الصامتين. كان في نحو الأربعين من العمر وقد وخطه الشيب في صدغيه، وكان أجمل رجل على ظهر السفينة.

عندما أحضرت لي المضيفة غطاء إضافياً سألتها عن هوية هذه المرأة الجذابة فقالت: إنها سيدة مجتمع معروفة، السيدة كلارينس بلير. لا بد أنك قرأت عنها في الصحف.

أومأت برأسي وأنا أنظر إليها باهتمام متجدد. كانت السيدة بلير معروفة بأنها واحدة من أكثر النساء لباقة وقتها. لاحظت -باستمتاع- كيف كانت مركز اهتمام الناس؛ فقد حاول عدة أشخاص التعرف عليها بالطريقة غير الرسمية التي يسمح بها السفر على ظهر السفينة. لقد أعجبتُ بالأسلوب المهذب الذي كانت السيدة بلير تصدهم به؛ ظهرتْ وكأنها قد خصت هذا الرجل القوي الصامت ليكون مرافقها الخاص وبدا هو متفهماً للميزة التي اختصته بها.

دهشت في صباح اليوم التالي بشدة، فبعدما دارت السيدة بلير حول السفينة مع رفيقها الصامت توقفت قريباً من مقعدي وقالت: أتشعرين بتحسن هذا الصباح؟

شكرتها وقلت إنني أشعر بحالة أقرب قليلاً إلى جنس البشر.

- كنت تبدين مريضة جداً بالأمس. ظننت أنا والكولونيل رايس بأننا سنستمتع برؤية جنازة على ظهر السفينة... ولكنك خيّبت أملنا.

ضحكت وقلت: لعل صعودي إلى سطح السفينة في الهواء الطلق قد أفادني.

قال الكولونيل رايس مبتسماً: لا شيء مثل الهواء المنعش.

قالت السيدة بلير وهي تجلس على مقعد إلى جانبي وتصرف مرافقها بإيماءة من رأسها: إن الجلوس داخل هذه الغرف الصغيرة من شأنه أن يقتل أي واحد. أرجو أن تكوني قد حصلت على غرفة خارجية؟

هززت رأسي بالنفي فقالت: يا فتاتي العزيزة! لماذا لا تبدّلين غرفتك؟ يوجد الكثير من الغرف؛ لقد نزل كثير من الركاب في ماديرا والسفينة تبدو فارغة جداً. تحدثي مع موظف الحسابات بخصوص هذا الأمر. إنه ولد لطيف؛ لقد غيّر غرفتي وأعطاني غرفة جميلة إذ لم تعجبني غرفتي الأولى. تحدثي معه عندما تنزلين لتناول الغداء.

ارتعدت وقلت: لا أستطيع الحركة.

- لا تكوني سخيفة. هيّا ولنمش سوياً الآن.

غمزتني لتشجعني. أحسست في البداية أن ساقي لا تقويان على الحركة، ولكن عندما مشينا على ظهر السفينة بدأت أشعر بخفة ونشاط أكثر.

بعد دورة أو دورتين انضم إلينا الكولونيل رايس ثانية وقال: يمكنك رؤية القمة الكبرى لجزيرة تينيرايف من الجانب الآخر

- حقاً؟ أتظن أن باستطاعتي التقاط صورة له؟

- لا، ولكن ذلك لن يمنعك من أخذ صورة بعيدة له.

ضحكت السيدة بلير وقالت- أنت فظ إن بعض الصور التي أخذتُها رائعة.

- أعتقد أنها رائعة بنسبة ثلاثة بالمئة فقط.

ذهبنا جميعاً إلى الجانب الآخر من السفينة. كان الجبل هناك يشع بياضاً بكسائه الثلجي وقد أحاط به ضباب خفيف وردي اللون. صحت صيحة ابتهاج، وأسرعت السيدة بلير لإحضار آلة التصوير.

بدأت تلتقط الصور بنشاط دون أن تتأثر بملاحظات الكولونيل رايس الساخرة، ثم قالت وقد تغيرت نبرة صوتها وتكدرت: هذه هي نهاية الفلم. آه، إن حظي متعثر دائماً.

تمتم الكولونيل قائلاً: أحب دائماً رؤية الأطفال ومعهم لعب جديدة.

- كم أنت فظيع... ولكن عندي فلماً آخر.

أخرجته من جيب سترتها فَرِحة. وتمايلت السفينة فجأة فكادت تسقط، وعندما أمسكت بالحاجز لتثبيت نفسها سقط الفلم من يدها فوق الحاجز.

صاحت السيدة بلير فزعة: آه!

ثم مالت فوق الحاجز وقالت: أتظنه سقط في البحر؟

- لا، ربما كنتِ محظوظة بضرب مضيف مسكين أسفل منك على رأسه.

نفخ ولد صغير -اقترب منّا دون أن نلحظه- في بوق معه نفخةً تصم الآذان. وقالت السيدة بلير مبتهجة: الغداء. أنا لم أتناول أي شيء منذ الإفطار باستثناء كوبين من الشاي. هل تريدين الغداء يا آنسة بيدنغفيلد؟

قلت مترددة: حسناً، نعم. أشعر بشيء من الجوع فعلاً.

- رائع. أعرف أنكِ تجلسين على طاولة موظف الحسابات. فاتحيه بموضوع الغرفة.

توجهت إلى القاعة أسفل السفينة وبدأت آكل بكل حذر، وانتهيت بأن تناولت وجبة كبيرة. هنأني صديق الأمس على شفائي من المرض وقال لي إن الجميع يغيرون غرفهم هذا اليوم، وقد وعد بأن ينقل حقائبي إلى غرفة خارجية دون تأخير.

كان على طاولتنا أربعة أشخاص فقط: أنا، وسيدتان كهلتان، ومبشِّر تحدث كثيراً عن «إخوتنا السود الفقراء».

نظرت حولي إلى الطاولات الأخرى. كانت السيدة بلير تجلس على طاولة القبطان وبجانبها الكولونيل رايس، وعلى الجانب الآخر من الطاولة كان يجلس إلى جانب القبطان رجل أشيب الشعر بدا شخصية بارزة. كان هناك الكثير من الناس الذين رأيتهم قبل ذلك على ظهر السفينة، ولكن كان يوجد رجل لم يظهر من قبل. ولو أنه ظهر لما فاتتني

رؤيته. كان رجلاً أسمر طويلاً، وكانت ملامحه تدل بصورة غريبة على أنه من النوع الشرير مما أخافني. سألت موظف الحسابات -ببعض الفضول- عن اسم هذا الرجل.

- ذلك الرجل؟ آه، إنه سكرتير السير يوستيس بيدلار. كان هذا المسكين مصاباً بدوار البحر ولم يخرج من غرفته قبل الآن. لقد أحضر السير يوستيس معه سكرتيرين وقد كان البحر مشكلة كبيرة لكلا الرجلين، ولم يظهر السكرتير الآخر بعد. هذا الرجل اسمه باجيت.

إذن فقد كان السير يوستيس بيدلار، صاحب منزل ميل هاوس، على ظهر السفينة. قد يكون هذا مجرد صدفة، ومع ذلك...

أكمل دليلي حديثه: ذاك هو السير يوستيس، يجلس إلى جانب القبطان. إنه عجوز مغرور.

كلما تفحصت وجه السكرتير أكثر كلما زاد عدم ارتياحي له. حتى إن شحوبه الشديد وعينيه المتكتمتين بجفنيهما السميكين ورأسه المستوي بشكل غريب... كل هذا جعلني أشعر نحوه بالكراهية، وبالخوف.

وعندما غادرت القاعة في نفس الوقت الذي غادر هو فيه كنت وراءه قريبة منه عندما صعد إلى ظهر السفينة. كان يتحدث مع السير يوستيس، وقد سمعت طرفاً من الحديث الذي كان يدور بينهما: سأنظر في أمر الغرفة إذن على الفور. من المستحيل العمل داخل غرفتك بسبب حقائبك هذه.

أجابه السير يوستيس: يا عزيزي، إن غرفتي معدّة أولاً لي لكي أنام فيها وثانياً لكي أحاول أن أغير ملابسي فيها. لم أكن أعتزم أبداً السماح

لك بدخولها وإزعاجي بآلة الطباعة التي معك.

- هذا ما أقصده تماماً يا سيدي. يجب أن نجد مكاناً نعمل فيه...

عند هذا الحد افترقت عنهما ونزلت لكي أرى إن كانوا قد بدؤوا ينقلون أغراضي، ووجدت المضيف مشغولاً بهذه المهمة.

- إنها غرفة جميلة جداً يا آنسة. الجناح «د» من ظهر المركب، الغرفة رقم ١٣.

صحت: آه، كلا. ليس رقم ١٣!

الرقم ١٣ هو الخرافة الوحيدة التي أؤمن بها. كانت غرفة جميلة أيضاً. ارتعشت أوصالي لكن الخرافة الحمقاء هي التي غلبت. لجأت إلى المضيف دامعة: ألا توجد أية غرفة أخرى؟

فكر المضيف: حسناً، لدينا الغرفة ١٧ على الجانب الأيمن. كانت تلك الغرفة فارغة هذا الصباح، ولكني أظن أنها خُصصت لشخص ما. ومع ذلك، بما أن أغراض ذلك الرجل ليست موجودة في الغرفة بعد، ولأن الرجال لا يؤمنون بالخرافات كالنساء، فلا أظنه سيمانع في تغيير الغرفة.

رحّبت بعرضه شاكرة وغادر المضيف لكي يحصل على إذن من موظف الحسابات. عاد وهو يبتسم وقال: لا بأس بذلك يا آنسة؛ يمكننا الانتقال إلى هناك.

تقدمني نحو الغرفة ١٧. لم تكن كبيرة مثل الغرفة ١٣ ولكني وجدتها مرضية جداً.

قال المضيف: "سأذهب لأحضر أغراضك فوراً يا آنسة". ولكن في تلك اللحظة جاء الرجل صاحب الوجه الشرير (كما أسميته) ووقف عند مدخل الباب وقال: اسمحي لي، ولكن هذه الغرفة محجوزة لاستخدامات السير يوستيس بيدلار.

أوضح المضيف: لا بأس بذلك يا سيدي. لقد جهزنا الغرفة ١٣ بدلاً منها.

- لا، لقد حجزت الغرفة ١٧.

- لا يا سيدي. الغرفة ١٣ أفضل منها؛ فهي أكبر.

- لقد اخترت الغرفة ١٧ قاصداً، وقد قال موظف الحسابات إن بإمكاني أخذها.

قلت ببرود: أنا آسفة، ولكن الغرفة رقم ١٧ قد خُصصت لي.

- لا أوافق على ذلك.

تدخل المضيف في الحديث: الغرفة الأخرى نفسها، وهي أفضل.

- أريد الغرفة رقم ١٧.

سمعنا صوتاً آخر من الخارج يقول: ما كل هذا؟ أيها المضيف، ضع أغراضي هنا. هذه هي غرفتي.

كان ذلك صوت جاري على طاولة الغداء، الكاهن إدوارد تشيتشستر.

قلت: أرجو المعذرة، إنها غرفتي.

قال السيد باجيت: إنها مخصصة للسير يوستيس بيدلار.

أصبحنا جميعاً غاضبين.

قال تشيتشستر: إنني آسف لاضطراري للجدال في ذلك.

قال ذلك بابتسامة حليمة فشلت في إخفاء عزمه على نيل ما يريد (وقد لاحظت أن الرجال الحليمين يكونون عنيدين دائماً)، ثم دس نفسه بشكل مائل في مدخل الباب.

قال المضيف: ستأخذ الغرفة رقم ٢٨ عند المدخل. إنها غرفة ممتازة يا سيدي.

- أخشى أنني مصرّ على موقفي. لقد وعدتموني بالغرفة رقم ١٧.

كنّا قد وصلنا إلى طريق مسدود وكل واحد فينا صمّم على عدم الاستسلام. وقد كنت أستطيع -على أية حال- الانسحاب من هذه المبارزة وتسهيل الأمور بالموافقة على أخذ الغرفة ٢٨، فطالما أنني لن آخذ الغرفة ١٣ فمن غير المهم بالنسبة لي أن آخذ أي غرفة أخرى. لكن دمي كان يفور، ولم تكن عندي أية نية بأن أكون أول من يستسلم، كما أنني كرهت تشيتشستر. كان يضع طقم أسنان يحدث صوتاً عندما كان يأكل، وقد كُرِهَ كثير من الرجال لأسباب أقل من هذه. كررنا جميعاً نفس الكلام، وقد أكدّ المضيف لنا تأكيداً قوياً بأن الغرفتين الأخريين أفضل من هذه. ولكن لم يلتفت له أي واحد منّا.

بدأ باجيت يفقد أعصابه، أما تشيتشستر فقد حافظ على وقاره، كما حافظت على وقاري أنا الأخرى بجهد جهيد. ومع ذلك لم يتراجع

أي منّا عن موقفه قيد أنملة.

وبغمزة وكلمة هامسة من المضيف عرفت ما يتعين عليّ فعله اختفيت عن مسرح النزاع دون فضول، وكنت محظوظة برؤية موظف الحسابات مرة أخرى على الفور. قلت: آه، أرجوك. لقد قلتَ إن بإمكاني الحصول على الغرفة ١٧؟ والآخرون لن يخرجوا منها. السيد تشيتشستر والسيد باجيت. أنت ستسمح لي بأخذها، أليس كذلك؟

كنت أقول دائماً إن أحداً لا يوازي البحارة في لطفهم مع النساء؛ فقد تدخل موظف الحسابات لإنقاذي بشكل رائع. توجه نحو ساحة النزاع وأبلغ المتنازعين بأن الغرفة ١٧ هي غرفتي وأن بإمكانهما أن يختارا أخذ الغرفتين ١٣ و ٢٨ أو البقاء حيث هما الآن.

سمحتُ لعينيّ بأن تبلغاه كم كان بطلاً، ثم دخلت إلى غرفتي الجديدة. وقد أفادتني تلك المواجهة كثيراً؛ فقد أصبح البحر في نظري هادئاً، وأخذ الجو يزداد دفئاً يوماً بعد يوم، وأصبح دوار البحر شيئاً من الماضي!

صعدت إلى ظهر السفينة وبدأت المشاركة في لعبة حلقات الرمي، ثم شاركت في العديد من الألعاب. قُدّم الشاي على ظهر السفينة، وقد أكلت ما يُقدم مع الشاي من معجنات بشهية مفتوحة، وبعد الشاي لعبت لعبة قذف الاسطوانات مع بعض الشباب المرح. كانوا لطفاء معي كثيراً، وأحسست أن الحياة تبعث على السرور والبهجة.

كان بوق تغيير الملابس مفاجئاً لي، وأسرعت إلى غرفتي الجديدة. كانت المضيفة تنتظرني بوجه متكدر، وقالت: في غرفتك رائحة فظيعة يا آنسة. لا أعرف ما هي، ولكني أشك في قدرتك على النوم هنا توجد

غرفة على ظهر المركب في الجناح «ج». يمكنك الانتقال لها... لمجرد قضاء هذه الليلة على الأقل.

كانت الرائحة كريهة جداً... تسبب الغثيان. أخبرت المضيفة بأنني سأفكر في أمر الانتقال وأنا أغير ملابسي. أصلحتُ من زينتي بسرعة وأنا أتشمم باشمئزاز.

ماذا هي هذه الرائحة؟ جرذ ميت؟ لا، إنها أسوأ من ذلك... وتختلف تماماً، ومع ذلك فإنني أعرفها! كانت رائحة شممتها من قبل. رائحة... آه، لقد عرفتها؛ إنها رائحة الحلتيت! لقد عملت لفترة قصيرة في صيدلية أحد المستشفيات أثناء الحرب وعرفت العديد من الأدوية التي تسبب الغثيان.

الحلتيت، تلك هي الرائحة. ولكن كيف...

جلست على المقعد وأدركت الأمر فجأة. لقد وضع أحدهم شيئاً من الحلتيت في غرفتي. لماذا؟ ألكي يجعلني أخليها؟ لماذا كانوا مهتمين إلى هذا الحد بإخراجي منها؟ فكرت في المشهد الذي تم بعد ظهر هذا اليوم من وجهة نظر مختلفة. ماذا كان في الغرفة ١٧ حتى يجعل كل هؤلاء الناس حريصين كل هذا الحرص على الحصول عليها؟ كانت الغرفتان الأخريان أفضل منها، لماذا أصرّ الرجلان على الحصول على الغرفة رقم ١٧؟

١٧. كيف يُلحُّ هذا الرقم! لقد أبحرت من ساوثهامبتون يوم السابع عشر. وكان ١٧ ... توقفت بشهقة مفاجئة. فتحت حقيبتي بسرعة وأخرجت منها ورقتي الثمينة حيث كنت أخفيها بين بعض الأغراض الملفوفة.

"١٧, ١ ٢٢". كنت قد فهمت هذا الرقم على أنه تاريخ، تاريخ

مغادرة السفينة «قلعة كيلموردن». ماذا لو كنت مخطئة؟ وعندما أخذت أفكر في ذلك تساءلت: هل كان لشخص يريد كتابة تاريخ معين أن يرى ضرورة لكتابة السنة والشهر؟ ماذا لو أن ١٧ تعني الغرفة ١٧؟ وماذا يعني الرقم ١؟ الوقت؟ الساعة الواحدة. إذن لا بد أن يكون ٢٢ هو التاريخ. نظرت إلى رزنامتي الصغيرة.

كان غداً هو يوم الثاني والعشرين!

* * *

الفصل العاشر

انفعلتُ إلى أبعد حد؛ فقد تأكدت أنني وضعت قدمي على الطريق الصحيح في النهاية. كان شيء واحد واضحاً: يجب أن لا أغادر غرفتي، عليّ أن أتحمل رائحة الحلتيت.

وأمعنت التفكير مرة أخرى في الحقائق المتوفرة لديّ: كان غداً هو الثاني والعشرون من الشهر، وفي الساعة الواحدة ليلاً أو الواحدة ظهراً سيحدث شيء، وقد ملتُ أكثر إلى خيار الساعة الواحدة ليلاً. كانت الساعة الآن السابعة مساء، سوف أعرف بعد ست ساعات.

لا أعرف كيف قضيت الأمسية. عدت إلى غرفتي في ساعة مبكرة جداً، وقد أخبرت المضيفة أنني مصابة بالزكام ولا أهتم للرائحة الكريهة. كانت ما زالت مكتئبة، ولكني كنت حازمة.

بدا الليل طويلاً بشكل ممل. وذهبت إلى النوم، ولكني لففت نفسي برداء نوم سميك ولبست حذائي تحسباً للحالات الطارئة. وهكذا أحسست وأنا بملابسي هذه أن باستطاعتي القفز من سريري والقيام بدور حيوي إذا ما حدث أي شيء.

ما الذي توقعت حدوثه؟ لا أكاد أعرف. تزاحمت في عقلي

تخيلات غامضة، معظمها أبعد ما يكون عن الاحتمال. ولكني كنت مقتنعة بشيء واحد، وهو أن شيئاً سيحدث في الساعة الواحدة.

كنت أسمع أصوات الركاب وهم عائدون إلى النوم في أوقات متفرقة. مقاطع من الحديث، ضحكات وعبارات "تصبح على خير" كلها كانت تصل إلى مسامعي من خلال الفتحة الصغيرة في أعلى النافذة، ثم ساد الصمت. أُطفئت معظم الأنوار وبقي ضوء واحد خارج الغرفة في الممر، وكان بعضه يضيء غرفتي. سمعت دقات الساعة، وبدت الساعة التي تلت ذلك أطول ساعة خبرتها في حياتي. نظرت إلى ساعة يدي بارتياب حتى أتأكد من أنني لم أخطئ التوقيت.

إذا كانت استنتاجاتي خاطئة ولم يحدث شيء في الساعة الواحدة فسأكون قد جعلت من نفسي أضحوكة وأنفقت كل النقود التي أملكها في هذه الدنيا على وهم. كان قلبي يدق دقات موجعة.

دقّ جرس الساعة الواحدة، ولم يحدث شيء! ولكن... ما هذا؟ لقد سمعت أصوات أقدام رشيقة راكضة تجري... تجري على طول الممر. ثم فجأة فُتح باب غرفتي بقوة ودخل رجل كاد يقع على الأرض. قال بصوت أجش: أنقذيني؛ إنهم يطاردونني.

لم تكن لحظة مجادلة أو تفسير، فقد كنت أسمع وقع أقدام في الخارج. كان عندي أربعون ثانية فقط لكي أتصرف. كنت قد قفزت عن سريري ووقفت في مواجهة الرجل الغريب في وسط الغرفة.

ليس في غرف السفن مخابئ يمكن أن تخفي رجلاً طوله ستة أقدام. ولذا سحبتُ صندوق الثياب الخاص بغرفتي من تحت السرير المعلق بالجدار، وتسلل الرجل وراءه أسفل السرير ثم رفعت غطاء

الصندوق. وفي نفس الوقت سحبت بيدي الأخرى حوض الغسيل المثبت في الجدار إلى أسفل. حركة رشيقة واحدة وأصبح شعري يلتف في عقدة صغيرة في أعلى رأسي. كانت هذه -من حيث الشكل- حركة غير فنية لكنها كانت من وجهة نظر أخرى فنية تماماً. امرأة شعرها معقود بطريقة غير لائقة تنكبّ لتأخذ قطعة من الصابون من الصندوق لكي تغسل عنقها ظاهرياً، إن أحداً لن يشك في أنها تؤوي هارباً.

قُرِع الباب ثم فُتح بقوة دون انتظار إذن منّي بالدخول.

لا أعرف ما الذي توقعتُ رؤيته. أعتقد أن أفكاراً غامضة كانت قد راودتني عن السيد باجيت وهو يشهر مسدساً مهدداً، أو صديقي المبشر ومعه سلاح فتاك ما. ولكني بالتأكيد لم أتوقع رؤية مضيفة ليلية بوجه متسائل يبدو مثالاً للاحترام.

- أرجو المعذرة يا آنسة، ظننتُ أنك صرختِ.

- لا، لم أصرخ.

- آسفة لمقاطعتك.

- لا بأس، فأنا لم أستطع النوم. اعتقدت أن الغسل يمكن أن يفيدني.

بدا من كلامي وكأن الغسل شيء لم أكن معتادة عليه أبداً.

قالت المضيفة ثانية: أنا آسفة جداً يا آنسة، ولكن يوجد رجل ثمل ونخشى أن يدخل إحدى غرف السيدات ويخيفهن.

قلت وأنا أبدو خائفة: يا له من أمر مرعب! هل سيأتي إلى هنا؟

- آه، لا أظن ذلك يا آنسة. اضغطي على الجرس إن جاء. طابت ليلتك.

- تصبحين على خير.

فتحت الباب ونظرت إلى الممر، فلم أر أحداً باستثناء المضيفة العائدة.

ثمل! إذن هذا هو تفسير الأمر. لقد بددت مواهبي المسرحية. سحبت صندوق الغرفة قليلاً وقلت بصوت لاذع: أرجوك اخرج حالاً.

لم أسمع إجابة فنظرت أسفل السرير. كان زائري يستلقي دون حراك، ويدا نائماً. حركته من كتفه لكنه لم يتحرك. فكرت وأنا منفعلة: سكران جداً... ماذا أفعل؟

ثم رأيت شيئاً جعلني أحبس أنفاسي، فقد رأيت بقعة صغيرة حمراء على الأرض.

استخدمت كل قوتي ونجحت في سحب الرجل من تحت السرير إلى وسط الغرفة. كان الشحوب البادي على وجهه يدل على الإغماء، وعرفت سبب إغمائه بسهولة؛ فقد كان مطعوناً تحت عظم الكتف الأيسر... وكان جرحاً نافذاً كبيراً. خلعت عنه معطفه وشرعت في معالجته.

تحرك عندما رششت عليه الماء البارد ثم نهض فقلت له: ابقَ ساكناً، أرجوك.

كان من أولئك الشبان الذين يستطيعون استعادة ملكاتهم العقلية بسرعة كبيرة، وتحامل على نفسه ووقف يترنح قليلاً.

- أشكرك، لا أريد أن تعملي لي شيئاً.

كان أسلوبه متحدياً، بل يكاد يكون عدوانياً. لم يقل كلمة شكر واحدة... ولا حتى شيئاً يدل على عرفانه بالجميل!

- إنه جرح بالغ؛ يجب أن تتركني أضمده لك.

- لن تفعلي شيئاً كهذا.

قذف بالكلمات في وجهي وكأنني كنت أتوسل منه معروفاً. ثارت أعصابي وهي التي لم تكن أساساً تعرف الهدوء، وقلت ببرود: لا يمكنني أن أهتك على أدبك.

- أستطيع -على الأقل- أن أريحك من وجودي عندك.

تحرك نحو الباب، ولكنه استدار، فدفعته بحركة سريعة فألقيته على الأريكة وقلت دون احتفاء: لا تكن غبياً؛ هل تريد الخروج لينزف دمك في جميع أرجاء السفينة؟

بدا وكأنه فهم الحكمة من ذلك، حيث جلس هادئاً بينما قمت بتضميد الجرح كأحسن ما أستطيع.

قلت وأنا أضع اللمسات الأخيرة على عملي: هذا يكفي في الوقت الحالي. هل مزاجك الآن أفضل، وهل تشعر برغبة في إخباري بكل شيء عن هذا الأمر؟

- أنا آسف لأنني لا أستطيع إشباع فضولك الطبيعي جداً.

قلت مغمومة: ولِمَ لا؟

ابتسم ابتسامة بغيضة وقال: إذا أردتَ إذاعة أمر فأخبر به امرأة، وإلاّ فأغلق فمك.

- ألا تظنني أستطيع كتمان السر؟

- ليست مسألة ظن... فأنا واثق من ذلك.

نهض على قدميه فقلت على سبيل المناكفة: على أية حال سأكون قادرة على إذاعة أحداث هذه الليلة.

قال غير مبال: وليس عندي شك في أنك ستفعلين ذلك.

صحت غاضبة: كيف تجرؤ على قول ذلك!

وقفنا متقابلَين، نتبادل التحديق كلٌّ في وجه صاحبه بقسوةِ عدوين لدودين. لأول مرة استوعبتُ ملامحه عن قرب؛ كان له شعر قصير أسود وفك نحيل، وندبة على خده الأسمر، وعينان رماديتان فاتحتان غريبتا الشكل كانتا تنظران إلى عينيّ بسخرية قاسية يصعب وصفها... كان فيه شيء خطير.

قلت بعذوبة كاذبة: لم تشكرني بعدُ على إنقاذي حياتَك!

أوجعتُه بهذه العبارة. رأيته وقد تقبض بالتأكيد، وقد عرفت غريزياً بأنه يكره -أكثر ما يكره- أن يذكّره أحدٌ بأنه مدين بحياته لي. لم أهتم؛ بل أردت أن أجرح مشاعره، وأردتُ ذلك كما لم أُرده من قبل مع أحدٍ أبداً.

قال غاضباً: أتمنى لو لم تفعلي ذلك؛ أفضّل الموت والخلاص من هذا.

- أنا مسرورة لأنك تقر بهذا الدّين. لا تستطيع الخلاص من هذا؛ لقد أنقذت حياتك وأنا في انتظارك لتقول: "شكراً لك".

ولئن كان من شأن النظرات أن تقتل لكان يريد قتلي وقتها. اندفع من جانبي يريد الخروج، وعند الباب التفت وتحدث وهو يدير رأسه: لن أشكركـ... لا الآن ولا في أي وقت آخر. لكني أقرّ بالدين، وسوف أدفعه يوماً ما.

ثم خرج وتركني ويداي مكورتان وقلبي يدق كطاحونة.

* * *

الفصل الحادي عشر

لم تحدث مواقف مثيرة غيرها في تلك الليلة. تناولت إفطاري على سريري ونهضت في وقت متأخر صباح اليوم التالي.

نادتني السيدة بلير عندما صعدت إلى ظهر السفينة: صباح الخير أيتها الفتاة الغجرية. اجلسي هنا بجانبي. تبدين وكأنك لم تنامي جيداً.

سألتها بعد أن جلست طائعة: لِمَ تنادينني هكذا!؟

- هل تمانعين؟ هذا يليق بك إلى حد ما. لقد سميتك هكذا في ذهني منذ البداية. إن العنصر الغجري فيك هو الذي يجعلك تختلفين عن أي شخص آخر. لقد قررت في نفسي أنك والكولونيل رايس الشخصان الوحيدان على ظهر السفينة اللذان لا أشعر بالملل وأنا أتحدث معهما أبداً.

قلت: هذا غريب؛ فقد فكرت فيك بنفس الطريقة. ولكن الأمر في حالتك أنت مبرر أكثر؛ فأنت امرأة مكتملة الروعة.

قالت السيدة بلير وهي تومئ برأسها: تعبير جميل. أخبريني عن نفسك أيتها الفتاة الغجرية، لماذا أنت ذاهبة إلى جنوب أفريقيا؟

أخبرتها شيئاً عن حياة والدي العملية فقالت: إذن فأنت ابنة تشارلز

بيدنغفيلد؟ لقد ظننتك مجرد فتاة قروية! هل أنت ذاهبة إلى هضبة بروكن لتنقبي عن مزيد من الجماجم؟

قلت بحذر: قد أفعل ذلك، كما أن لديّ خططاً أخرى.

- أية فتاة غامضة أنت! ولكنك تبدين متعبة هذا الصباح. ألم تنامي جيداً؟ لا أستطيع البقاء مستيقظة على ظهر السفينة. يقولون إن الأحمق ينام عشر ساعات... أستطيع النوم عشرين ساعة!

تثاءبت وهي تبدو مثل قطة نَعْسى وقالت: لقد أيقظني مضيف مغفل في منتصف الليل ليعيد إليّ بكرة الأفلام التي أسقطتُها بالأمس، وقد أعادها إليّ بطريقة مثيرة جداً؛ فقد أدخل يده من فتحة التهوية وأسقط البكرة على بطني. ظننتُ للحظة أنها قنبلة!

قلت عندما ظهر الكولونيل رايس الطويل بهيئته العسكرية: ها هو كولونيلك قد جاء.

- إنه ليس كولونيلي بشكل خاص. إنه -في الحقيقة- معجب بك كثيراً أيتها الغجرية، ولذلك لا تهربي.

- أريد ربط شيء حول رأسي؛ سيكون ذلك أكثر راحة من القبعة.

انسللت بسرعة مبتعدة. أحسست -لسببٍ ما- بعدم الارتياح للكولونيل رايس. كان واحداً من القلائل الذين يستطيعون جعلي أشعر بالخجل.

نزلت إلى غرفتي وبدأت أبحث عن شيء أربط به شعري المنفوش. إنني إنسانة مرتبة وأحب أن تكون أغراضي مرتبة دائماً بطريقة معينة وأنا

أبقيها هكذا، ولذلك فقد أدركت أن شخصاً قد عبث بأغراضي حالما فتحت دُرجي. كل شيء كان مقلوباً ومبعثراً. وبحثت في الأدراج الأخرى وفي الخزانة المعلقة فوجدتها مقلوبة على نفس الشكل. بدا وكأن شخصاً كان يبحث عن شيء بطريقة سريعة غير مجدية.

جلست على حافة السرير بوجه مهموم. من الذي فتش غرفتي وما الذي كانوا يبحثون عنه؟ أكان هدفهم قصاصة الورق ذات الأرقام والكلمات المخربشة؟ هززت رأسي غيرَ مقتنعة بذلك؛ فمن المؤكد أن ذلك أصبح من الماضي. ولكن ماذا يمكن أن يكون هنا غير هذا؟

أردتُ أن أفكر، فرغم أن الأحداث التي وقعت الليلةَ الماضية كانت مثيرة إلاّ أنها -في الحقيقة- لم تفعل شيئاً لتوضيح الأمور. مَن كان ذلك الشاب الذي اقتحم عليّ غرفتي فجأة؟ أنا لم أره على السفينة من قبل، لا على ظهر السفينة ولا في قاعة الطعام. أكان واحداً من طاقم السفينة أم مسافراً؟ مَن الذي طعنه؟ ولماذا طُعن؟ ولماذا، بالله، تولى هذه الأهمية الكبيرة للغرفة ١٧؟ كان هذا كله لغزاً. ولم يكن عندي شك في أن بعض الأحداث الغريبة جداً كانت تحدث على متن «قلعة كيلموردن».

عددت على أصابعي الأشخاص الذين يتوجب علي مراقبتهم. وضعتُ جانباً الزائر الذي زارني الليلة الماضية، ولكني وعدت نفسي بضرورة اكتشافه على ظهر السفينة قبل أن ينقضي يوم آخر، وبعدها اخترت الأشخاص التالية أسماؤهم كأشخاص يجدر بي أن أراقبهم:

(١) السير يوستيس بيدلار؛ فهو صاحب ميل هاوس، وكان وجوده على متن «قلعة كيلموردن» يبدو مصادفة تلفت الانتباه.

(٢) السيد باجيت، السكرتير ذو القسمات الشريرة، والذي لاحظت لهفته على الحصول على الغرفة ١٧. (ملاحظة: ينبغي معرفة ما إذا كان قد رافق السير يوستيس إلى مدينة كان).

(٣) الكاهن إدوارد تشيتشستر. ليس لي عليه إلاّ إصراره على أخذ الغرفة ١٧، وقد يكون السبب في ذلك مزاجه الغريب فقط، فالعناد يصنع العجائب أحياناً.

ولكني رأيت أن من المفيد إجراء حديث قصير مع السيد تشيتشستر. أسرعت وربطت منديلاً حول شعري ثم صعدت إلى ظهر السفينة مرة أخرى وكلي تصميم على مقابلته. وقد حالفني الحظ، إذ كان مَن أبحث عنه يقف مستنداً إلى الحاجز يشرب الشاي. ذهبت صوبه وقلت بأجمل ابتسامة استطعت وضعها: أرجو أن تكون قد غفرت لي على ما حصل بخصوص الغرفة ١٧.

قال السيد تشيتشستر ببرود: أنا أعتبر حمل الضغينة منافياً للخلق القويم، ولكن موظف الحسابات كان قد وعدني حقاً بتلك الغرفة.

قلت بغموض: إن موظفي الحسابات مشغولون كثيراً، أليس كذلك؟ أحسبهم معرضين للنسيان أحياناً.

لم يجبني الرجل، فسألته من باب فتح حديث: أهذه أول زيارة لك لجنوب أفريقيا؟

- إلى جنوب أفريقيا، نعم. لكني عملت خلال السنتين الماضيتين بين قبائل أكلة لحوم البشر في مجاهل شرق أفريقيا.

- كم هو مثير! هل نجوت من خطر الموت كثيراً؟

- نجوت؟

- أقصد من محاولة أكلك؟

- يجب أن لا تتعاملي مع المواضيع المقدسة بهذا الاستهتار يا آنسة بيدنغفيلد.

أجبته وقد لسعتني عبارته: لم أكن أعرف أن أكل لحوم البشر موضوع مقدس.

وعندما نطقت بهذه الكلمات خطرت لي فكرة أخرى. فإذا كان السيد تشيتشستر قد أمضى السنتين الأخيرتين في مجاهل أفريقيا حقاً، فلماذا لم تسفع الشمس بشرته؟ لقد كانت بشرته وردية وبيضاء كبشرة طفل رضيع. لا بد أن في هذا الأمر شيئاً مريباً! ومع ذلك فإن سلوكه وصوته يؤكدان تماماً صحة زعمه، بل ربما كانا يؤكدان ذلك أكثر قليلاً مما هو مطلوب. أتراه يشبه قليلاً رجل دين ممثلاً؟

عدت بذاكرتي إلى الوراء حيث رجال الدين الذين عرفتهم في ليتل هامبسلي. بعضهم أحببتهم وبعضهم لم أحبهم ولكن أحداً منهم لم يكن مثل السيد تشيتشستر بالتأكيد. كانوا من النوع الإنساني البسيط، أمّا هو فكان من النوع الفخم المبجّل.

كنت أناقش كل هذه الأفكار في ذهني عندما مرّ السير يوستيس على ظهر السفينة، وعندما أصبح مقابل السيد تشيتشستر تماماً انحنى على الأرض والتقط قصاصة ورق سلّمها للكاهن وهو يقول: لقد أسقطت شيئاً.

ثم أكمل طريقه دون أن يتوقف، ولعله لذلك لم يلاحظ انفعال

السيد تشيتشستر، أمّا أنا فقد لاحظته. وأيّاً كان ما أسقطه الكاهن فإن استرجاعه أثاره كثيراً. انقلب لونه شاحباً، وكوّر الورقة بيده. وتضاعفت شكوكي مئات المرات.

لاحظني أنظر إليه فسارع إلى التفسير قائلاً بابتسامة شاحبة: إنــ.. إنها جزء من خطبة كنت أكتبها.

أجبته بأدب: حقاً؟

جزء من خطبة حقاً! كلا، إن السيد تشيتشستر... أضعف مما يوصف!

وسرعان ما تركني بعد أن اختلق عذراً. وقد تمنيت، تمنيت كثيراً، لو كنتُ أنا التي التقطت تلك الورقة وليس السير يوستيس بيدلار! لقد وضح أمر واحد، وهو أن السيد تشيتشستر لا ينبغي أن يُستثنى من قائمة المشبوهين لدي. بل كنت أميل إلى وضعه على رأس الأسماء الثلاثة.

بعد الغداء وعندما صعدت إلى قاعة الاستراحة لشرب القهوة، لاحظت السير يوستيس وباجيت يجلسان مع السيدة بلير والكولونيل رايس. رحّبت السيدة بلير بي بابتسامة، ولذلك ذهبت وانضممت إليهم. كانوا يتحدثون عن إيطاليا.

كانت السيدة بلير تصرّ قائلة: ولكنها عبارة مضللة. إن عبارة "أكوا كولدا" يجب أن تعني بالتأكيد "ماءً بارداً"... وليس حاراً. لكني أحب الإيطاليين؛ فهم ميّالون للمساعدة كثيراً... رغم أن لهذا جانبه المحرج أيضاً. تسألهم عن الطريق وبدلاً من أن يقولوا: "الطريق الأول على اليمين ثم الطريق الثاني على اليسار" أو شيئاً يمكن أن يتبعه المرء، فإنهم يصبّون

عليك وابلاً من التعليمات عن حسن نية، وعندما تبدو متحيراً يأخذونك من ذراعك بلطف ويسيرون معك إلى الوجهة التي تريدها.

قال السير يوستيس وهو يلتفت إلى سكرتيره مبتسماً: أهذا ما خبِرتَه في فلورنسا يا باجيت؟

بدا أن السؤال قد أربك باجيت لسبب ما. احمرّ وجهه وتلعثم قائلاً: "آه، صحيح تماماً، نعم... صحيح تماماً". ثم نهض وهو يعتذر مهمهماً وغادر الطاولة.

قال السير يوستيس وهو ينظر إلى سكرتيره المنسحب: لقد بدأت أشك أن غاي باجيت قد ارتكب فعلة سوداء في فلورنسا. فكلما ذُكرت أمامه فلورنسا أو إيطاليا غيّر موضوع الحديث أو هرب مسرعاً.

قالت السيدة بلير: ربما قتل شخصاً هناك. إنه يبدو (وأرجو أن لا أجرح أحاسيسك يا سير يوستيس) ولكنه يبدو كشخص من شأنه أن يقتل.

- نعم، وهذا يضحكني أحياناً... وخصوصاً عندما يعرف المرء ما أعرفه أنا من مدى تمتع هذا المسكين بالاحترام والالتزام بالقانون.

سأله الكولونيل رايس: إنه يعمل معك منذ مدة طويلة، أليس كذلك يا سير يوستيس؟

قال السير يوستيس وهو يتنهد بعمق: ست سنوات.

قالت السيدة بلير: لا بد أنه بالغ القيمة بالنسبة لك.

- آه، بالغ القيمة! نعم، بالغ القيمة تماماً.

بدا المسكين أكثر حزناً وكأن القيمة العالية للسيد باجيت كانت مصدر حزن سري له. ثم أضاف بخفة أكثر: ولكن وجهه يوحي لك -دون شك- بالثقة يا سيدتي العزيزة. ليس من شأن قاتل يحترم نفسه أن يوافق على أن يبدو كقاتل. أظن أن كريبين كان من أعذب الناس الذين يمكن تصورهم.

تمتمت السيدة بلير: لقد ألقي القبض عليه على ظهر سفينة، أليس كذلك؟

صدرت أصوات طقطقة خفيفة وراءنا، فالتفتُّ بسرعة. كان السيد تشيتشستر قد أسقط فنجان قهوته.

انفض اجتماعنا بعد ذلك بقليل، نزلت السيدة بلير لتنام، وخرجت أنا إلى ظهر المركب. تبعني الكولونيل رايس وقال: أنت مراوغة كثيراً يا آنسة بيدنغفيلد. لقد بحثت عنك الليلة الماضية في كل مكان.

شرحت له: لقد ذهبت إلى النوم في وقت مبكر.

- هل ستهربين هذه الليلة أيضاً؟ أم ستسهرين معي؟

همست بخجل: سأكون مسرورة جداً لو سهرت معك. ولكن السيدة بلير...

- إن صديقتنا السيدة بلير لا تهتم بالسهر.

- وهل تهتم أنت به؟

- إنني أهتم بالسهر معك.

قلت بارتباك: آه!

كنت خائفة قليلاً من الكولونيل رايس. ومع ذلك كنت أسلي نفسي. كان ذلك أفضل من مناقشة الجماجم المتحجرة مع أساتذة عجائز مملين! كان الكولونيل رايس -في الحقيقة- يطابق فكرتي المثالية عن الرجال الأبطال الخياليين، وقد أتزوجه! صحيح أنه لم يطلب ذلك مني ولكن (كما يقول فتيان الكشافة): "كن مستعداً"! كما أن جميع النساء يعتبرن كل رجل يلاقينه زوجاً محتملاً لهن، دون أن يقصدن ذلك أبداً.

سهرت معه تلك الليلة، وفي النهاية (وكنت أفكر في الذهاب إلى النوم) اقترح أن نقوم بجولة على ظهر السفينة. تمشينا حول السفينة ثلاث مرات وأخيراً استرحنا على مقعدين خشبيين. لم يكن هناك أحد غيرنا، وتحدثنا حديثاً متقطعاً لبعض الوقت.

- أتدرين يا آنسة بيدنغفيلد، أظنني التقيت بوالدك ذات مرة. كان رجلاً مثيراً للاهتمام كثيراً... في اختصاصه، وهو اختصاص له سحره الخاص عليّ. وقد قمت -بإمكاناتي المتواضعة- بعمل بعض الأشياء في هذا المجال. بل إنني عندما كنت في مقاطعة دوردون...

أصبح حديثنا فنياً. لم يكن تبجح الكولونيل رايس فارغاً، فقد كان يعرف الكثير. وفي نفس الوقت فقد أخطأ خطأين غريبين... وكان من شأني أن أعتبرهما زلتيْ لسان، ولكنه سرعان ما كان يتفق معي عندما أصحح الأمر ويتداركه. تحدث في إحدى المرتين عن العصر الحجري المتوسط باعتباره يلي العصر الحجري الحديث، وكانت غلطة سخيفة بالنسبة لأي امرئ يعرف شيئاً عن الموضوع.

كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً عندما ذهبت إلى غرفتي وأنا ما زلت متحيرة من هذه التناقضات الغريبة. أمن الممكن أن يكون قد اخترع هذا

الموضوع كله... وأن يكون جاهلاً تماماً بالآثار؟ هززت رأسي وأنا غير مقتنعة بذلك الحل لسبب غامض لا أعرفه.

وعندما كنت على وشك إلقاء نفسي على السرير نهضت فجأة عندما خطرت لي فكرة فجائية. أتراه كان يحاول انتزاع معلومات مني؟ أكانت تلك الأخطاء البسيطة مجرد اختبارات... ليعرف إن كنت حقاً أعرف الموضوع الذي أتحدث عنه؟ وبمعنى آخر، هل كان يشك في أنني لست آن بيدنغفيلد الحقيقية.

لماذا؟

* * *

الفصل الثاني عشر

(مقتطفات من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

لا بد أن يقال شيء بالنسبة للحياة على ظهر السفن؛ وهي أنها حياة هادئة. إن شعري الأبيض يعفيني -لحسن الحظ- من ذل تلك الألعاب التي يمارسها الركاب، كمحاولة نهش التفاح المُعلّق، والجري على ظهر السفينة بالبطاطا والبيض، وغير ذلك من الألعاب السخيفة. إن المتعة التي يجدها الناس في مثل هذه المهمات الشاقة ما زالت تشكل بالنسبة لي لغزاً لم أستطع فهمه. ولكن في هذا العالم الكثير من الحمقى، والمرء يحمد الله على وجودهم وينأى بنفسه عنهم.

وأنا -لحسن الحظ- بحار ممتاز، أما المسكين باجيت فليس كذلك. لقد بدأ لونه يشحب بمجرد أن صعدنا على متن السفينة، وأحسب أن ما يُدعى سكرتيري الثاني مصاب هو الآخر بدوار البحر. وعلى أية حال فإنه لم يخرج من غرفته، ولكن ربما لم يكن ذلك بسبب دوار البحر بقدر ما هو دبلوماسية. الشيء العظيم هو أنه لم يضايقني.

أما ركاب السفينة فهم -إجمالاً- أناس عاديون، باستثناء لاعبَيْ بريدج جيدَين وامرأة حسنة المظهر هي السيدة كلارنس بلير. لقد التقيت بها في المدينة بالطبع، وهي الوحيدة -من بين النساء اللاتي أعرفهن-

التي يمكن القول إنها ذات روح فكاهة جيدة. إنني أستمتع بالحديث معها، وكنت سأستمتع أكثر لولا حمار قليل الكلام طويل الساقين يلتصق بها كظلها. لا يمكنني أن أرى أن ذلك الكولونيل رايس يسليها حقاً. إنه جميل الشكل ولكنه ثقيل ممل، وهو واحد من أولئك الرجال الأقوياء الصامتين الذين تتحدث عنهم كاتبات القصص والفتيات.

صعد غاي باجيت على ظهر السفينة بصعوبة بعد أن غادرنا ماديرا وبدأ يدمدم بصوت مكتوم عن العمل. لماذا يريد إنسان العمل على ظهر سفينة؟ صحيح أنني وعدت الناشرين الذين أتعامل معهم بـ«مذكراتي» في وقت مبكر من هذا الصيف، ولكن ماذا لو تأخرت؟ من الذي يقرأ المذكرات؟ عجائز الضواحي. وماذا تساوي مذكراتي؟ لقد تطرقت إلى عدد معين ممن يُدعون بالمشاهير في حياتي، وبمساعدة باجيت اخترعت حكايات تافهة عنهم. وحقيقة الأمر هي أن باجيت أخلص من أن يُعهد إليه بهذا الأمر، إذ لم يدعني أخترع حكايات عن الأشخاص الذين كان يمكن أن ألتقي بهم ولكنني لم ألتقِهم.

جرّبت اللطف معه وقلت بهدوء: إنك ما تزال تبدو في غاية المرض يا عزيزي. إن ما تحتاجه هو الجلوس على مقعد خشبي في الشمس. لا... لا، لا أريد سماع كلمة أخرى، يجب أن يؤجل العمل.

الأمر التالي الذي عرفته هو أنه كان مهتماً بالحصول على غرفة إضافية في السفينة. فقد قال: "لا مكان للعمل في غرفتك يا سيدي؛ إنها مليئة بالصناديق". ولو سَمعتَ نبرته وهو يقول ذلك لظننتَ أن الصناديق عبارة عن خنافس سوداء لا ضرورة لوجودها هناك.

شرحت له حقيقةً ربما فاتته؛ وهي أن من المعتاد أن يأخذ المرء معه في السفر بعض الملابس الإضافية. ابتسم ابتسامة باهتة اعتاد أن يقابل

بها محاولاتي الساخرة، ثم عاد لموضوع العمل: كما أننا لا نستطيع العمل في غرفتي التي تشبه حفرة صغيرة.

وأنا أعرف «حُفَر باجيت الصغيرة»... إذ دائماً ما يحصل على أفضل غرفة في السفينة. قلت ساخراً: آسف لأن قبطان السفينة لم يكن من أنصارك هذه المرة. ربما تريد التخلص من بعض حقائبك الإضافية في غرفتي؟

إن السخرية خطيرة مع رجل مثل باجيت. أشرق وجهه على الفور وقال: حسناً، لو أمكنني التخلص من آلة الطباعة وصندوق القرطاسية...

كان صندوق القرطاسية يزن عدة أطنان، وكان يسبب حرجاً لا يوصف مع الحمّالين، كما أن هدف باجيت في الحياة هو فرضه علي. إنه صراع دائم بيننا، ويبدو أنه يعتبره واحداً من ممتلكاتي الشخصية الخاصة. أمّا أنا -من ناحيتي- فأعتبر أن مسؤولية هذا الصندوق هي المجال الوحيد الذي تظهر فيه الفائدة الحقيقية للسكرتير.

قلت بسرعة: سنأخذ غرفة إضافية.

بدا الأمر بسيطاً تماماً، ولكن باجيت شخص يعشق صناعة الألغاز. جاء إليّ في اليوم التالي بوجه كوجوه متآمري عصر النهضة وقال: ألم تطلب مني حجز الغرفة رقم ١٧ لاستعمالها مكتباً؟

- حسناً، ماذا في الأمر؟ هل علق صندوق القرطاسية في مدخل الباب؟.

أجاب باجيت بجدية: إن المداخل من حجم واحد في جميع

الغرف، ولكن في أمر تلك الغرفة شيئاً غريباً جداً يا سير يوستيس.

جالت في ذهني ذكريات قراءة قصص الرعب والأشباح فقلت: إن كنت تقصد أنها مسكونة بالأرواح فإننا لن ننام فيها ولذلك لا أرى أن هذا يهم، فالأشباح لا تؤثر على الآلات الطابعة.

قال باجيت إن المسألة ليست مسألة أشباح، كما أنه لم يحصل على الغرفة ١٧. أخبرني قصة طويلة ومشوشة، ويبدو أنه أوشك أن يتلاطم مع سيدٍ يدعى تشيتشستر وفتاة تدعى بيدنغفيلد على هذه الغرفة. ولعل من نافلة القول أن الفتاة قد فازت بها، وكان واضحاً أن باجيت كان يشعر بالحزن بسبب هذا الأمر.

كرّر قائلاً: الغرفتان ١٣ و ٢٨ أفضل، ولكنهما لم يقبلا مجرد رؤيتهما.

قلت وأنا أمنع نفسي من التثاؤب: حسناً، بالنسبة لهذا الأمر، فأنت أيضاً لم تقبل بذلك يا عزيزي باجيت.

نظر إليّ نظرة تأنيب وقال: أنت أبلغتني أن أحجز الغرفة ١٧.

إن في باجيت شيئاً يُذكّر المرء بشخص في سفينة تحترق. قلت له بانزعاج: يا صديقي العزيز، لقد ذكرتُ الغرفة رقم ١٧ لأنني صدف أن لاحظت أنها كانت خالية، ولكني لم أقصد أن تعتبر الحصول عليها مسألة حياة أو موت! إن الغرفة ١٣ أو الغرفة ١٨ ستؤدي نفس الغرض.

بدا متألماً، ثم أصرّ قائلاً: ومع ذلك يوجد شيء آخر. لقد حصلت الآنسة بيدنغفيلد على الغرفة، ولكني رأيت هذا الصباح تشيتشستر خارجاً منها كمن يتسلل خفية.

نظرت إليه بحدة، ثم قلت ببرود: إن كنت تحاول إثارة فضيحة قذرة حول تشيتشستر (رغم أنه شخص حاقد جداً) وحول تلك الطفلة الجذابة آن بيدنغفيلد فإنني لا أصدق كلمة واحدة من ذلك. إن آن بيدنغفيلد فتاة لطيفة إلى أبعد حد...

أنا أحب إزعاج باجيت، ولذلك واصلت حديثي معه مناكفاً: بما أنك تعرفت عليها فيمكنك دعوتها لتناول العشاء على طاولتنا ليلة الغد. سيكون غداً حفل الملابس التنكرية. على فكرة، من الأفضل أن تنزل إلى محل تأجير الملابس وتختار لي لباساً تنكرياً.

قال باجيت مذعوراً: لا أظنك ستذهب بالملابس التنكرية؟

بوسعي أن أفهم أن ذلك لم يكن يناسب فكرته عن الأبهة التي ينبغي أن تلازمني. بدا مصدوماً متألماً، والحقيقة أنني لم أكن أعتزم ارتداء ملابس تنكرية، ولكن مضايقة باجيت كانت أمراً أكثر إغراء من أن أتجاوزه، ولذلك قلت: ماذا تعني؟ سألبس ملابس تنكرية بالطبع، وأنت أيضاً ستلبسها.

ارتعد باجيت. وأكملت حديثي: ولذلك اذهب ودبّر الأمر.

تمتم باجيت وهو يقيسني بعينيه: لا أحسب أن لديه أحجاماً غير عادية.

إن بوسع باجيت أحياناً أن يكون سليطاً جداً دون قصد منه. قلت: واطلب طاولة لستة أشخاص في القاعة. سندعو القبطان والفتاة الجميلة والسيدة بلير...

تدخل باجيت قائلاً: لن تتمكن من إحضار السيدة بلير دون

الكولونيل رايس. أعرف أنه طلب منها تناول العشاء معه.

كان باجيت يعرف كل شيء دائماً. ولقد انزعجتُ انزعاجاً مبرَّراً، وسألته ساخطاً: من هو رايس؟

كما قلت من قبل، كان باجيت يعرف كل شيء دائماً... أو يظن أنه يعرف. بدا غامضاً مرة أخرى، وقال: يقولون إنه من رجال المخابرات يا سيدي، ومن رجالها البارزين إلى حدٍّ ما. لكنني بالطبع لا أعرف على وجه اليقين.

صحت: أليس ذلك تصرفاً نموذجياً من تصرفات حكومتنا؟! لدينا هنا على متن السفينة رجلٌ عمله الأصلي هو حمل الوثائق السرية، ومع ذلك يُعطون تلك الوثائق لشخص مسالم لا شأن له ولا يريد إلاّ أن يُترك لشأنه.

بدا باجيت أكثر غموضاً. اقترب خطوة إلى الأمام وخفض صوته قائلاً: رأيي أن الأمر كله شديد الغرابة يا سيدي. انظر إلى مرضي قبل أن نبدأ رحلتنا...

قاطعته بقسوة: يا عزيزي، كانت تلك نوبة من مرض الصفراء، وأنت تصاب دوماً بنوبات هذا المرض.

رمش باجيت بعينيه قليلاً وقال: لم تكن نوبة مرض الصفراء المعتادة. هذه المرة كانت...

- بالله عليك لا تدخل في تفاصيل حالتك المرضية يا باجيت؛ لا أريد سماعها.

- حسناً يا سيدي. ولكنني أعتقد بأنني قد سُمِّمتُ عن عمد!

- آه! أظنك كنتَ تتحدث مع رايبرن.

لم ينكر ذلك بل قال: على أية حال يا سير يوستيس، فإنه يرى ذلك... وهو في موقع مَنْ يُفترض أن يعرف.

سألته: بالمناسبة، أين الرجل؟ أنا لم أرَه منذ أن صعدنا على ظهر السفينة.

- إنه يصرح بأنه مريض ويبقى في غرفته يا سيدي.

خفض باجيت صوته مرة أخرى وقال: ولكني واثق أن ذلك مجرد تمويه... حتى يستطيع أن يراقب أفضل.

- يراقب؟

- حرصاً على سلامتك يا سيدي، في حالة الاعتداء عليك.

- يا لك من شخص مُفرح يا باجيت! أنا واثق أن خيالك يجمح بك بعيداً. لو كنت مكانك لذهبت إلى الحفل متنكراً على هيئة من ينفذون أحكام الإعدام؛ فهذا سيناسب جمالك الجنائزي.

أخرسته تلك الكلمات مؤقتاً. بعد ذلك ذهبت إلى ظهر السفينة، وكانت الفتاة بيدنغفيلد تخوض جدالاً عميقاً مع ذلك المبشر. دائماً ما تحوم النساء حول القساوسة!

إن شخصاً له مثل جسمي يكره الانحناء، ولكني كنت مهذباً والتقطت قطعة من الورق تتطاير عند قدمي الرجل. لم أحصل على أي كلمة شكر على عنائي، والحقيقة أنني لم أستطع منع نفسي من رؤية ما كان مكتوباً على الورقة. كانت عليها جملة واحدة فقط: "لا تحاول التصرف بمفردك وإلاّ فسيكون ذلك أسوأ عليك".

جميل أن يجد المرء شيئاً كهذا في حوزة كاهن. من هو هذا الرجل تشيتشيستر؟ إنه يبدو وادعاً كالحمل، ولكن المظاهر خدّاعة. سوف أسأل باجيت عنه؛ فباجيت يعرف كل شيء دائماً!

جلست بلباقة على المقعد الخشبي إلى جانب السيدة بلير قاطعاً عليها حديثها الخاص مع رايس، ثم طلبت منها أن تتعشى معي ليلة الحفلة التنكرية، وبشكل أو بآخر نجح رايس في ضم نفسه إلى الدعوة. بعد الغداء جاءت الآنسة بيدنغفيلد وجلست معنا لشرب القهوة. سأدعوها بالتأكيد لتناول العشاء هي الأخرى.

أود كثيراً لو أعرف ما هي الفَعلة التي أقدم عليها باجيت في فلورنسا، فكلما ذكرت إيطاليا أمامه يرتبك ارتباكاً شديداً. لو لم أعرف أنه رجل محترم تماماً لشككت في أنه متورط في علاقة غرامية فاضحة.

لقد بدأت أشكّ الآن! حتى أكثر الرجال احتراماً... سيفرحني ذلك كثيراً لو صحّ أنه كذلك. باجيت... ذو سرٍّ يشعر معه بالذنب! رائع!

* * *

الفصل الثالث عشر

كانت أمسية غريبة.

الملابس الوحيدة التي ناسبتني كانت ملابس الدب تيدي، وأنا لا أمانع في تمثيل دور الدب مع بعض الفتيات الجميلات في أمسية شتوية في إنكلترا، ولكن ذلك الزي لا يكاد يكون مثالياً في المناطق الاستوائية. ومع ذلك أضفيت جواً من المرح وفزت بالجائزة الأولى لأفضل «ما تم إحضاره للسفينة»... وهي عبارة من السخف أن يوصف بها زي تم استئجاره لقضاء الأمسية. ومع ذلك لم يكن ذلك بالأمر المهم، إذ بدا أن أحداً لا يعرف إن كان الزي قد استؤجر أم أُحضر.

رفضت السيدة بلير لبس الملابس التنكرية، وواضحٌ أن لها نفس رأي باجيت في هذا الأمر. وقد حذا الكولونيل رايس حذوها. أمّا آن بيدنغفيلد فقد ابتكرت لنفسها زياً غجرياً، وبدت رائعة جدا قال باجيت إنه مصاب بالصداع ولم يحضر الحفلة، وقد طلبتُ بدلاً منه شخصاً ضئيل الجسم غريباً في تأنقه يدعى ريفز، وهو عضو بارز في حزب العمل في جنوب أفريقيا. كان رجلاً فظيعاً، ولكني أردت الحفاظ على علاقة ودية معه لأنه كان يعطيني المعلومات التي أحتاجها. كنت أريد فهم مشكلة منطقة الراند هذه من أكثر من مصدر.

ثم نزلنا لتناول العشاء. كنت قد طلبت مشروباً، وقد اقترح المضيف عليّ أفضل ما عندهم على السفينة فاستجبت لاقتراحه هذا، وقد بدا لي أنني وضعت يدي -بذلك- على الأمر الوحيد الذي من شأنه أن يفك عقدة لسان الكولونيل رايس؛ فقد نسي الرجل كل تحفظه وتكتمه وأصبح ثرثاراً، وقد سلاّني ذلك لبعض الوقت، ثم خطر لي أن الكولونيل رايس قد أصبح مركز اهتمام الحفلة وليس أنا. وقد ناكفني طويلاً ساخراً من احتفاظي بمذكرات أكتبها.

- سيكشف ذلك في يوم من الأيام كلّ فضائحك يا بيدلار.

قلت: يا عزيزي، أجرؤ على القول بأنني لست المغفل الذي تظنه. قد أقوم ببعض الفضائح، ولكني لا أدونها بالأسود والأبيض، وبعد وفاتي سيعرف القائمون على وصيتي رأيي في عدد كبير من الناس، ولكني أشك في أنهم سيجدون شيئاً يضيف أو يُنقص من رأيهم فيّ أنا. إن اليوميات مفيدة لتسجيل نزوات الآخرين... ولكن ليس نزوات الكاتب نفسه.

- ولكن يوجد -مع ذلك- شيء يسمى الكشف اللاواعي عن الذات.

أجبت بطريقة الواعظ: جميع الأمور تبدو مُشينة في عيني المحلل النفسي.

قالت الآنسة بيدنغفيلد وهي تحدّق إلى الكولونيل رايس بعينين واسعتين لامعتين: لا بد أن حياتك كانت مثيرة يا كولونيل رايس؟

هكذا تقوم الفتيات بهذا الأمر! لقد سحر عطيل دزدمونة برواية

القصص لها، ولكن ألم تسحر دزدمونة عُطيلا بطريقة إصغائها؟

على أية حال فقد حملت الفتاة رايس على الانطلاق في الحديث ويبدأ يحكي قصصاً عن الأسود. إن لرجلٍ قتل أعداداً كبيرة من الأسود أفضلية ظالمة على غيره من الرجال. وبدا لي أن الوقت قد حان لأن أحكي أنا الآخر قصة عن الأسود؛ قصة ذات طبيعة أكثر حيوية، فقلت: هذا -بالمناسبة- يذكرني بقصة مثيرة سمعتها، فقد كان صديق لي في رحلة صيد إلى شرق أفريقيا، وذات ليلة خرج من خيمته لسبب معين ففوجئ بصوت زئير خفيف. التفت بحدة فرأى أسداً مُتحفزاً يريد القفز، وكان قد ترك بندقيته في الخيمة. أحنى جسمه بسرعة خاطفة فقفز الأسد من فوق رأسه، وعندما انزعج الحيوان لأنه لم يمسك به زأر واستعد لكي يقفز ثانية. ومرة أخرى أحنى صاحبنا جسمه لتأتي قفزة الأسد ثانية من فوق رأسه. حدث هذا للمرة الثالثة ولكنه كان الآن قد أصبح قريباً من خيمته ودخل إليها بسرعة وأخذ بندقيته، وعندما خرج حاملاً البندقية كان الأسد قد اختفى. وقد حيّره ذلك كثيراً، فزحف حول الخيمة من الخلف حيث كانت أرض صغيرة مكشوفة، وهناك وجد الأسد مشغولاً يتدرب على القفزات المنخفضة!

تلقى المستمعون هذا بصيحات استحسان، فقلت: وفي مرة أخرى حدثت مع صديقي هذا واقعة أخرى غريبة. فقد كان مسافراً بعربةٍ عبر الريف، ولأنه كان مهتماً بالوصول إلى وجهته قبل اشتداد حرّ الشمس، فقد أمر عمّاله بربط البغال بالعربة قبل بزوغ الفجر. وقد واجهوا بعض المتاعب في عملهم هذا لأن البغال كانت حُرُناً جداً، ولكنهم نجحوا في ربطها في نهاية الأمر، وانطلق. كانت البغال تسابق الريح وعندما بزغ ضوء النهار عرفوا السبب. ففي عتمة الليل ربط العمال أسداً بدلاً

من آخر بغل قرب مقصورة الركاب.

هذه أيضاً تلقاها المستمعون باستحسان حيث ساد هرج سعيد حول الطاولة، أما صديقي عضو حزب العمل فقد بقي شاحباً وجاداً، وأخيراً سأل لمهفة: يا إلهي! ومن الذي فك رباطها؟

قالت السيدة بلير: يجب أن أذهب إلى روديسيا. بعد الذي أخبرتنا عنه يا كولونيل رايس يجب أن أذهب، رغم أنها رحلة مرعبة تستغرق خمسة أيام في القطار.

قلت بشهامة: يجب أن تنضمي إليّ في سيارتي الخاصة.

- يا له من لطف بالغ منك يا سير يوستيس! أحقاً تعني ما تقول؟

هتفت بنبرة توبيخ: أعني ما أقول!

تنهدت السيدة بلير وقالت: بقي أسبوع واحد تقريباً ونكون في جنوب أفريقيا.

قلت منفعلاً: "آه، جنوب أفريقيا!". ثم بدأتُ أقتبس من خطاب لي القيته مؤخراً في معهد المستعمرات: ما الذي تقدمه جنوب أفريقيا إلى العالم؟ ما هو؟ فواكهها ومزارعها، صوفها وخشبها، قطعانها وجلودها، مناجم ذهبها وألماسها...

كنت أسرع في الكلام لأني أعرف أن ريفز سيتدخل في الحديث بمجرد أن أسكت ليخبرني أن الجلود عديمة القيمة لأن الحيوانات كانت تعلَقُ بالأسلاك الشائكة فتتمزق جلودها، ثم سيتذمر من كل شيء،

وينتهي به الأمر أخيراً إلى التحدث عن معاناة عمّال المناجم في منطقة الراند. ولم أكن في مزاج يسمح لي بتقبل الإساءة من أحد بحجة أنني رأسمالي، ولكن مقاطعتي جاءت من شخص آخر عند ذكري لكلمة الألماس السحرية. فقد قالت السيدة بلير بنشوة: "الألماس!"، ولهثت الآنسة بيدنغفيلد: "الألماس!".

كلتاهما خاطبتا الكولونيل رايس في وقت واحد: أظن أنك ذهبت إلى كيمبرلي؟

أنا الآخر ذهبت إلى كيمبرلي، ولكني لم أتمكن من قول ذلك في الوقت المناسب، وأُمطر رايس بالأسئلة: ما هو شكل المناجم؟ هل صحيح أن سكان البلد الأصليين كانوا يُحجزون في مناطق مُسوّرة في العراء؟ وهكذا.

أجاب رايس عن أسئلتهن وأظهر معرفة كبيرة في هذا الموضوع. شرح لهن عن أعمال التنقيب التي جرت والاحتياطات المختلفة التي اتخذتها سلطات دي بيرس، ثم سألت السيدة بلير: إذن فإن من المستحيل عملياً سرقة أية أحجار ألماسية، أليس كذلك؟

قالت ذلك وقد بدا عليها من خيبة الأمل ما يكاد المرء معه يظن أنها مسافرة إلى هناك من أجل هذا الغرض.

- لا شيء مستحيل يا سيدة بلير؛ فالسرقات تحدث... مثل القضية التي أخبرتك عنها عندما أخفى ذلك الزنجي حجر الألماس في جرحه.

- نعم، ولكن ماذا عن السرقات الكبرى؟

- حدثت مرة واحدة في السنوات الأخيرة، قبل الحرب في الواقع. لا بد أنك تذكر هذه القضية يا بيدلار، لقد كنتَ في جنوب أفريقيا في ذلك الوقت، أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي، وصاحت الآنسة بيدنغفيلد: أخبرنا، أرجوك أن تخبرنا!

ابتسم رايس قائلاً: حسناً، ها هي القصة. أظن أن معظمكم قد سمع عن السير لورنس إيردسلي، القطب الكبير لصناعة المناجم في جنوب أفريقيا؟ كانت مناجمه مناجم ذهب، ولكنه دخل في القصة من خلال ابنه. قد تذكرون أن شائعات انتشرت قبل الحرب بقليل عن وجود منطقة لا تقل غنى بخاماتها عن كيمبرلي، وهي مخبأة في مكان ما تحت الأرض الصخرية في غابات غوايانا البريطانية. وقد قيل إن اثنين من المكتشفين الشبان عادا من تلك المنطقة من أمريكا الجنوبية وأحضرا معهما مجموعة كبيرة من أحجار الألماس غير المصقولة، وبعضها بأحجام كبيرة. كما عُثر من قبل على الماس بأحجام صغيرة في منطقة نهرَيْ إيسيكويبو ومازاروني، ولكن هذين الشابين، جون إيردسلي وصديقه لوكاس، زعما أنهما قد اكتشفا طبقات عظيمة من الكربون المترسب عند رأسَيْ النهرين. كانت أحجار الألماس من كل لون، وردي وأزرق وأصفر وأخضر وأسود وأبيض نقي. وجاء إيردسلي ولوكاس إلى كيمبرلي حيث كانا يريدان فحص الأحجار الكريمة التي عثرا عليها، وفي نفس الوقت حدثت عملية سطو مثيرة في شركة دي بيرس. كانت العادة قد استقرت -لدى إرسال أحجار الألماس إلى إنكلترا- أن تُرزم داخل علبة. وهذه العلبة تبقى في الخزنة الكبيرة حيث يحتفظ رجلان مختلفان بمفتاحين لها، بينما يعرف رجل ثالث الرقم

السري للخزنة، وتُسلّم إلى البنك ثم يقوم البنك بإرسالها إلى إنكلترا. وكانت قيمة كل حزمة تقدر بنحو مئة ألف جنيه. وفي هذا المرة انتبه البنك لوجود شيء غير عادي في ختم الحزمة. وقد فُتحت ووُجد أنها تحتوي على قطع من السكر!

لا أعرف بالضبط كيف تم الاشتباه بجون إيردسلي بهذه السرعة. وقد تذكّروا بأنه كان طائشاً جداً في جامعة كامبردج، وأن والده دفع ديونه عنه أكثر من مرة. على أية حال فقد ذاع في الحال أن قصة حقول الألماس هذه في أميركا الجنوبية كانت قصة خيالية، واعتُقل جون إيردسلي. وقد وجدوا في حوزته مجموعة من أحجار ألماس دي بيرس.

ولكن القضية لم ترفع إلى المحكمة أبداً؛ فقد دفع السير إيردسلي مبلغاً مساوياً لقيمة أحجار الألماس المفقودة، وامتنعت محلات دي بيرس عن تقديم ابنه للمحكمة. لم يعرف أحد كيف تم ارتكاب حادث السطو هذا، ولكن معرفة الرجل العجوز بأن ابنه كان سارقاً قطعت نياط قلبه، وقد أصيب بسكتة دماغية بعد ذلك بوقت قصير. وبالنسبة لجون فقد كان مصيره رحيماً إلى حدٍّ ما؛ فقد تطوع في الجيش وذهب إلى الحرب وقاتل فيها بشجاعة ثم قُتل، وبذلك أزال السبة التي لحقت باسمه. أما السير لورنس نفسه فقد أصيب بسكتة دماغية ثالثة ومات قبل نحو شهر واحد، وقد مات دون أن يكتب وصية فذهبت ثروته الواسعة إلى أقرب أقربائه وكان هذا القريب رجلاً لا يكاد العجوز يعرفه.

سكت الكولونيل، وثارت موجة من الهتافات والأسئلة. بدا أن شيئاً قد جذب انتباه الآنسة بيدنغفيلد والتفتت على كرسيها، وعندما شهقت قليلاً التفتُّ أنا الآخر.

كان سكرتيري الجديد رايبرن يقف عند مدخل الباب، ورغم

بشرته المسفوعة كان وجهه شديد الشحوب كمن شاهد شبحاً. كان واضحاً أن رواية رايس قد أثّرت فيه بعمق. وفجأة، عندما أدرك أننا نمعن النظر فيه دار بسرعة واختفى.

سألت آن بيدنغفيلد فجأة: أتعرف من هذا؟

قلت: هذا سكرتيري الثاني، السيد رايبيرن. كان متوعكاً حتى هذه اللحظة.

سألت بتأمل: أهو سكرتيرك منذ فترة طويلة؟

قلت بحذر: ليس منذ وقت طويل.

ولكن لا فائدة من الحذر مع امرأة، فكلما امتنعتَ عن الحديث أكثر كلما ازداد إصرارها على جعلك تتحدث. لم تتردد آن بيدنغفيلد طويلاً قبل أن تسأل بفظاظة: منذ متى؟

- حسناً... لقد... لقد وظفته قبل صعودي على السفينة بوقت قصير. زكّاه لي صديق قديم.

لم تقل شيئاً آخر، ولكنها دخلت في صمت متأمل. التفتُّ إلى رايس وأنا أشعر أن دوري قد جاء لإظهار اهتمامي بقصته، وقلت: من هو أقرب أقارب السير لورنس يا رايس؟ هل تعرف؟

ردّ علي مبتسماً: أعرفه بالطبع، إنه أنا!

• • •

الفصل الرابع عشر

(آن تتابع روايتها)

قررتُ في ليلة الحفلة التنكرية أن الوقت قد حان بالنسبة لي لكي أبوح بما عندي لشخص ما، فحتى هذا الوقت كنت أتابع الأمور بمفردي وأستمتع بذلك، أما الآن فقد تغير كل شيء فجأة؛ فقد بدأت أشكُّ بأحكامي الخاصة، ولأول مرة زحف إلى داخلي إحساس بالوحشة والوحدة.

جلست على حافة سريري وأنا ما زلت بملابسي الغجرية وفكرت في الوضع. فكرت -بدايةً- بالكولونيل رايس، فقد بدا أنه يميل إلي، وكنت متأكدة من أنه سيكون لطيفاً، كما أنه لم يكن بالمغفل. ومع ذلك عندما قلّبت التفكير في الأمر ترددت؛ فقد كان رجلاً ذا شخصية قيادية ومن شأنه أن يُخرج الأمر كله من بين يدي، وقد كان هذا لغزي أنا! وكانت توجد أسباب أخرى -لا أكاد أعترف بها مع نفسي- جعلت من غير الحكمة البوح بالأمر للكولونيل رايس.

ثم فكرت في السيدة بلير. هي أيضاً كانت لطيفة معي، ولكنني لم أخدع نفسي وأظن أن ذلك يعني شيئاً في الواقع؛ فقد يكون لطفها هذا

مجرد نزوة مؤقتة. ومع ذلك كنت أستطيع إثارة اهتمامها. كانت امرأة قد خَبِرت معظم الإثارات العادية في الحياة، وقد اعتزمت إعطاءها إثارة غير عادية! وقد أحببتها، أحببت بساطة سلوكها، وبعدها عن العاطفية السخيفة، وتحررها من أي شكل من أشكال التصنع.

حزمت أمري وقررت البحث عنها في التو واللحظة، إذ لا أظنها أوت إلى فراشها بعد. ثم تذكرت أنني لم أكن أعرف رقم غرفتها. ربما كانت صديقتي، المضيفة الليلية، تعرف.

قرعت الجرس، وبعد بعض التأخر جاء إليّ رجل وأعطاني المعلومة التي كنت أريدها. كانت غرفة السيدة بلير تحمل رقم ٧١. اعتذر عن التأخر في الردّ على جرسي موضحاً أنه يقوم على خدمة جميع الغرف. سألته: أين المضيفة إذن؟

- إن عملهن جميعاً ينتهي الساعة العاشرة.

- لا، أقصد المضيفة الليلية.

- لا توجد مضيفة ليلية يا آنسة.

- ولكن... ولكن جاءتني مضيفة في ليلة سابقة... في نحو الساعة الواحدة صباحاً.

- لا بد أنك كنت تحلمين يا آنسة. ليس لدينا مضيفة تعمل بعد الساعة العاشرة.

انسحب خارجاً وتركني لكي أستوعب هذه المعلومة البسيطة. من هي المرأة التي جاءت إلى غرفتي ليلة الثاني والعشرين؟ ازداد التجهم في

وجهي عندما أدركت مكر وجرأة خصومي المجّهولين، ثم استجمعت قواي وتركت غرفتي وذهبت إلى غرفة السيدة بلير، فقرعت الباب.

ناداني صوتها من الداخل: مَنْ؟

- هذا أنا... آن بيدنغفيلد.

- آه، ادخلي أيتها الفتاة الغجرية.

دخلت. كانت أعداد كبيرة من الأثواب المبعثرة ملقاة في الغرفة، وكانت السيدة بلير ترتدي ثوباً ليلياً من أجمل ما شاهدته في حياتي. كان برتقالياً وذهبياً وأسود، ممّا جعلني أقف مشدوهة أنظر إليه. ثم قلت دون مقدمات: سيدة بلير، أريد أن أحكي لك قصة حياتي... هذا إذا لم يكن الوقت متأخراً جداً وإذا لم تشعري بالملل.

قالت السيدة بلير وقد ابتسمت ابتسامة جميلة: إطلاقاً؛ أكره النوم دائماً، كما أنني أود سماع قصة حياتك، فأنت مخلوقة غير عادية أبداً أيتها الغجرية. ما كان لأحد غيرك أن يفكر باقتحام غرفتي في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لكي يخبرني بقصة حياته، وخصوصاً بعد أن أزريتِ بفضولي الطبيعي لمدة أسابيع! وأنا لست معتادة على أن يزري بي الآخرون؛ ولذلك كان تصرفك تغييراً لا يخلو من السرور. اجلسي على الأريكة وروّحي عن نفسك.

أخبرتها بالقصة كلها. وقد أخذ ذلك وقتاً طويلاً إذ كنت حريصة على ذكر التفاصيل. تنهدَتْ بعمق عندما انتهيت من قصتي، ولكنها لم تقل ما توقعتها أن تقوله أبداً. وبدلاً من ذلك نظرت إليّ وضحكت قليلاً ثم قالت: أتعرفين يا آن أنك فتاة غير عادية؟ ألم تنتَبْكِ أبداً هواجس؟

سألتها متحيرة: هواجس؟

- نعم. هواجس، هواجس، هواجس! وأنت تنطلقين وحيدة دون مال عملياً. ماذا ستفعلين عندما تجدين نفسك في بلد غريب وقد ذهبت كل نقودك؟

- لا فائدة من القلق لهذا الأمر قبل وقوعه. ما زال عندي الكثير من النقود؛ فالجنيهات الخمس والعشرون التي أعطتني إياها السيدة فليمنغ ما زالت كما هي، كما أنني ربحت المراهنة بالأمس. وهذا يعني خمسة عشر جنيهاً أخرى، عندي الكثير من النقود... أربعون جنيهاً!

تمتمت السيدة بلير: كثير من النقود! يا إلهي! ما كنت لأستطيع فعل ذلك يا آن، رغم أنني أمتلك الكثير من الشجاعة. لا أستطيع السفر بمثل هذه السهولة وفي جيبي قليل من النقود، ودون أن أعرف ما الذي أفعله وإلى أين أتجه.

صحت وقد بلغت الإثارة بي مداها: ولكن هنا تكمن متعة ذلك. إن ذلك يعطي المرء إحساساً رائعاً بالمغامرة.

نظرت إلي وأومأت مرة أو مرتين ثم ابتسمت: آن المحظوظة! ليس في العالم الكثير ممن يشعرون كما تشعرين.

قلت بصبر نافد: حسناً، ما رأيك بالأمر كله يا سيدة بلير؟

- أعتقد أنه أكثر الأمور التي سمعتها إثارة! والآن، توقفي بدايةً عن مناداتي بالسيدة بلير. اسم سوزان سيكون أفضل منه بكثير، هل اتفقنا على ذلك؟

- يسعدني ذلك يا سوزان.

- فتاة مطيعة، والآن هيّا إلى العمل. تقولين إنك تعرفتِ في شخص سكرتير السير يوستيس (ليس باجيت صاحب الوجه الطويل ذاك، وإنما السكرتير الآخر) على الرجل الذي طُعن وجاء إلى غرفتك طلباً للملجأ؟

أومأت برأسي موافقة.

- هذا يجعل للسير يوستيس صِلتين اثنتين بهذه الورطة. فقد قتلت المرأة في بيته، وسكرتيره هو الذي طُعن في تلك الساعة الغريبة... الواحدة ليلاً. إنني لا أشك في السير يوستيس نفسه، ولكن هذا لا يمكن أن يكون كله مصادفة. لا بد من صلة في مكان ما، حتى لو كان هو نفسه غير مدرك لها.

ثم أكملت متأملة: ثم ذلك الأمر الغريب، وأعني أمر المضيفة. كيف كان شكلها؟

- لم أكد ألحظها. كنت منفعلة جداً ومتوترة... وقد بدا ظهور مضيفة كهبوط مفاجئ في أحداث القصة. ولكن، نعم... أظن فعلاً أن وجهها كان مألوفاً، وهذا أمر طبيعي إن كنتُ قد رأيتها في السفينة.

- وجهها كان مألوفاً لك. أأنت متأكدة من أنها لم تكن رجلاً؟

اعترفتُ قائلة: كانت طويلة جداً.

- هممم. لا أظنها تكون السير يوستيس، ولا السيد باجيت... انتظري!

أمسكت بقصاصة ورق وبدأت ترسم بحماسة، ثم تفحصَتْ نتيجة رسمها ورأسها يميل إلى أحد الجانبين وقالت: هذا يشبه كثيراً الكاهن

إدوارد تشيتشيستر، والآن إلى الأشياء الإضافية الأخرى. ثم قدمت لي الورقة وقالت: أهذه مضيفتك؟

صحت: يا إلهي، نعم. كم أنت ذكية يا سوزان!

نحت ثنائي جانباً بإشارة خفيفة من يدها وقالت: كنت أشعر دائماً بالارتياب من هذا الرجل تشيتشيستر. هل تذكرين عندما أسقط فنجان قهوته وتحول إلى اللون الشاحب عندما كنّا نناقش كريبين بالأمس؟

- كما أنه حاول الحصول على الغرفة ١٧!

- نعم. الحقائق كلها تنطبق عليه حتى الآن. ولكن ماذا يعني هذا كله؟ ما الذي كان يُراد حدوثه الساعة الواحدة في الغرفة ١٧؟ لا يمكن أن يكون طعن السكرتير، إذ لن يكون أي مغزى في تحديد ذلك في ساعة خاصة ويوم خاص وفي مكان خاص. كلا، لا بد أنه كان موعداً ما، وكان ذاهباً إلى ذلك الموعد عندما طعنوه. ولكن مع مَنْ كان الموعد؟ بالتأكيد ليس معك. ربما كان مع تشيتشيستر، أو ربما مع باجيت.

عارضتها: هذا يبدو بعيد الاحتمال، فهما يستطيعان رؤية بعضهما بعضاً في أي وقت.

جلسنا بصمت لبعض الوقت، ثم بدأت سوزان طريقاً آخر: أيمكن أن يكون في الغرفة شيء مخفي؟

- هذا يبدو أكثر احتمالاً، وهو يفسر العبث بأغراضي صباح اليوم التالي. ولكنني متأكدة من عدم وجود شيء مخبأ هناك.

- ألم يكن بإمكان الشاب أن يدس شيئاً في أحد الأدراج في الليلة السابقة؟

هززت رأسي بالنفي وقلت: كنت سأراه.

- أيمكن أن تكون ورقتك الثمينة تلك هي ما يبحثون عنه؟

- قد يكون ذلك، ولكن لا يبدو لذلك أي معنى؛ فقد كانت مجرد وقت وتاريخ... وكانا كلاهما قد مرّا في ذلك الوقت.

أومأت سوزان وقالت: هذا صحيح بالطبع. كلا، لم يكونوا يبحثون عن الورقة. وبالمناسبة، هل هي معك؟ أودّ لو أراها.

كنت قد أحضرت الورقة معي لعرضها عليها وسلمتها لها. أمعنت النظر فيها عابسة.

"١٧,١ ٢٢ كيلموردن كاسل".

- توجد فاصلة بعد العدد ١٧، ولماذا لا توجد فاصلة بعد الرقم ١ أيضاً؟

أشرتُ قائلة: يوجد فراغ.

- نعم. يوجد فراغ، ولكن...

وفجأة نهضَتْ ونظرت إلى الورقة وهي تقربها تحت الضوء قدر الإمكان. كان في أسلوبها انفعال مكبوت، ثم قالت: آن، هذه ليست فاصلة؛ إنها شق في الورقة! شق في الورقة، أترين؟ ولذلك عليك أن تتجاهليها واهتمي بأمر الفراغات فقط... الفراغات!

كنت قد نهضت ووقفت إلى جانبها. قرأت الأرقام كما كنت أراها الآن: "١ ٧١ ٢٢".

قالت سوزان: كما ترين، إنها نفسها إجمالاً، ولكنها ليست نفسها

تماماً. فهي ما تزال الساعة الواحدة، ويوم الثاني والعشرين... ولكنها الغرفة ٧١؛ غرفتي يا آن!

وقفنا نتبادل النظرات وقد سررنا باكتشافنا الجديد وامتلأنا بالانفعال بحيث يظن المرء أننا حللنا اللغز كله. ولكني سرعان ما ارتطمتُ بصخرة الواقع، فقلت: ولكن يا سوزان، لم يحدث شيء هنا الساعة الواحدة يوم الثاني والعشرين، أليس كذلك؟

أُسقط في يدها هي الأخرى وقالت: نعم، لم يحدث شيء.

خطرت لي فكرة أخرى فقلت: ولكن هذه ليست غرفتك يا سوزان، أليس كذلك؟ أقصد أنها ليست الغرفة التي حجزتِها أصلاً؟

- نعم، لقد غيّرها موظف الحسابات وأعطاني هذه.

- ترى هل كانت محجوزة قبل الإبحار لشخص ما... شخص لم يظهر؟ أظن أن باستطاعتنا اكتشاف ذلك.

صاحت سوزان: لا حاجة بنا لاكتشاف ذلك أيتها الغجرية؛ إنني أعرف! لقد أخبرني موظف الحسابات عنها. لقد حُجزت الغرفة باسم السيدة غري... ولكن يبدو أن اسم السيدة غري لم يكن سوى اسم مستعار للسيدة نادينا الشهيرة. إنها ممثلة روسية مشهورة، لم يسبق لها أن قدمت عروضاً في لندن، ولكن باريس كانت مجنونة بحبها. لقد حققت نجاحاً هائلاً هناك طوال سنوات الحرب. أظنها امرأة سيئة تماماً، ولكنها جذابة جداً. وقد أعرب موظف الحسابات -عندما أعطاني غرفتها- عن أسفه العميق لأنها لم تستقل السفينة، ثم أخبرني الكولونيل رايس الكثير عنها. يبدو أن عدة روايات غريبة انتشرت في باريس، فقد اشتُبه بقيامها بالتجسس، ولكنهم لم يتمكنوا من إثبات شيء. ويُخيل

لي أن الكولونيل رايس كان هناك في باريس لهّذا الغرض وحده. لقد أخبرني ببعض الأشياء المثيرة جداً؛ فقد كانت هناك عصابة منظمة وزعيمها رجل يشار إليه بلقب «الكولونيل»، ويُعتقد أنه رجل إنكليزي. وهم لم يعثروا على أي خيط يوصلهم لكشف هويته، ولكن لا شك في أنه يسيطر على منظمة كبيرة من المحتالين والمجرمين الدوليين، وكان يتولى مختلف أعمال السطو والتجسس والاعتداءات... ويقدِّم عادة كبش فداء بريئاً لكي يدفع الجزاء. لا بد أنه ذكي بصورة شيطانية! ويفترض أن هذه المرأة واحدة من عملائه، ولكنهم لم يستطيعوا إثبات أي شيء عليها. نعم يا آن، إننا نسير في الطريق الصحيح. إن من شأن نادينا أن تكون متورطة بهذا الأمر. كان موعد فجر يوم الثاني والعشرين في هذه الغرفة مُحدداً معها. ولكن أين هي؟ لماذا لم تُبحر؟

ومض ضوء في ذهني فقلت ببطء: كانت تعتزم الإبحار.

- إذن لماذا لم تأتِ؟

- لأنها كانت ميتة. إن نادينا -يا سوزان- هي المرأة التي قُتلت في مارلو!

عادت ذاكرتي إلى الغرفة الخاوية في البيت الخالي، وهنا انتابني ثانيةً الإحساس الغامض بالخطر والشر، وجاء معه تذكري لسقوط قلم الرصاص، واكتشاف بكرة الأفلام. بكرة الأفلام... ذكرني هذا بحدث أكثر قرباً! أين سمعت بعبارة بكرة الأفلام؟ ولماذا ربطت تلك الفكرة بالسيدة بلير؟

فجأة اندفعتُ نحوها وكدتُ أهزها في غمرة انفعالي وهتفت: فِلمك! الفِلم التي أُعطي لك من خلال فتحة التهوية؟ ألم يكن ذلك يوم

الثاني والعشرين؟

- الفلم الذي فقدته؟

- كيف تعرفين أنه نفسه؟ لماذا يعيده شخص لك بتلك الطريقة... في منتصف الليل؟ إنها فكرة جنونية. كلا... لقد كانت تلك رسالة، لقد أُخرج الفلم من العلبة الصفراء الصغيرة ووضع بدلاً منه شيء آخر. أما زال عندك؟

- ربما استعملته. لا، ها هو. أذكر أنني وضعته في أحد الرفوف على جانب السرير.

أخرجته وقدمته لي. كان الفلم بعلبة أسطوانية عادية صغيرة من تلك التي توضع فيها الأفلام لاستخدامها في المناطق الاستوائية. أخذتها بيد مرتجفة ولكن مجرد الإمساك بها جعل قلبي يقفز؛ فقد كانت أثقل مما ينبغي بدرجة ملحوظة.

نزعتُ عنها بأصابع مرتجفة الشريط اللاصق الذي يمنع دخول الهواء، ونزعت الغطاء فسقطت من العلبة على السرير مجموعة من الحصى الزجاجية الباهتة. قلت وقد خاب أملي: حصى.

صاحت سوزان: حصى؟

أثارتني نبرة صوتها، ثم أردفَتْ: حصى؟ لا يا آن، ليست حصى؛ بل حجارة ألماس!

* * *

الفصل الخامس عشر

حجارة ألماس!

نظرتُ مسحورةً إلى الكومة الزجاجية على السرير. التقطت منها واحدة، ولولا وزنها لظننتها قطعة من زجاجة مكسورة. سألت: هل أنت واثقة يا سوزان؟

- نعم يا عزيزتي. لقد رأيت من أحجار الألماس غير المصقول ما لا يراودني معه شك فيها. وهي أحجار جميلة أيضاً يا آن... وبعضها فريد من نوعه حسب اعتقادي. إن خلف هذه الأحجار قصة بالتأكيد.

صحت: القصة الذي سمعناها الليلة.

- تقصدين...

- قصة الكولونيل رايس. لا يمكن أن يكون هذا مصادفة؛ لقد رواها من أجل غرض معين.

- أتقصدين حتى يرى تأثيرها؟

أومأتُ برأسي بالإيجاب فقالت: تأثيرها على السير يوستيس؟

- نعم.

ولكن حتى وأنا أقول هذه الكلمة ساورتني شكوك. أكان السير يوستيس هو الذي خضع للاختبار أم أن القصة قد رويت لفائدتي أنا؟ تذكرت الانطباع الذي أحسستُ به في تلك الليلة السابقة بأنني أخضع لعملية «انتزاع معلومات» مُتعمدة. إن الكولونيل رايس موضع شبهة لسبب أو لآخر، ولكن ما هو دوره ومكانه في هذا الأمر؟ ما هي صلته المحتملة بهذه المسألة؟

سألتها: من هو الكولونيل رايس؟

قالت سوزان: هذا سؤال مهم. إنه مشهور كصائد حيوانات كبيرة، وكما سمعتِه يقول هذه الليلة فإنه ابن عم بعيد للسير لورنس إيردسلي. أنا في الواقع لم ألتقِ به إلاّ في هذه الرحلة. إنه يسافر كثيراً من أفريقيا وإليها، وتوجد فكرة عامة بأنه يقوم بأعمال استخبارية. لا أعرف إن كان هذا صحيحاً أم لا، ولكنه رجل غامض بعض الشيء بالتأكيد.

- أظن أنه حصل على ثروة عظيمة كوريث للسير لورنس إيردسلي؟

- يا عزيزتي آن، لا بد أنه يتقلب في الثروة. سيكون زوجاً رائعاً لك.

قلت ضاحكة: لا أستطيع الفوز به وأنت على ظهر السفينة!

تمتمت سوزان برضى عن الذات: ولكن الجميع يعرف أنني مخلصة تماماً لكلارنس... زوجي. إنه لأمر آمن وسارٌ أن يعاشر الرجل زوجة محبة.

- لا بد أن كلارنس محظوظ بزواجه بواحدة مثلك.

- إن الحياة معي مسألة تبعث على السأم! ومع ذلك فبوسعه دوماً الهروب إلى وزارة الخارجية حيث يضع نظارته على عينيه وينام على كرسي كبير. نستطيع إرسال برقية له ليخبرنا كل ما يعرفه عن رايس. أنا أحب إرسال البرقيات، وهي تضايق كلارنس كثيراً. يقول بأن الرسالة تنوب عن البرقية، ومع ذلك لا أظنه سيخبرنا بشيء. إنه متكتم جداً، وهذا ما يجعل من الصعب العيش معه لفترة طويلة دون انقطاع. ولكن دعينا نواصل جمع الرؤوس بالحلال... أنا واثقة أن الكولونيل منجذب لك كثيراً يا آن. أعطيه نظرتين من عينيك الرائعتين هاتين فينتهي الأمر. كثير من الخطوبات تتم على متن السفن، فليس من شيء آخر يمكن فعله.

- لا أريد الزواج.

- أحقاً؟ لماذا؟ أنا أحب الحياة الزوجية... حتى مع كلارنس!

ازدريت كثرة مزاحها وقلتُ بتصميم: إن ما أريد معرفته هو علاقة الكولونيل رايس بهذا... إن له علاقة ما بهذا الأمر.

- أنت لا تظنين أن روايته لتلك القصة مجرد صدفة، أليس كذلك؟

قلت بحزم: نعم، لا أظن ذلك. لقد كان يراقبنا جميعاً عن كثب. أتذكرين؟ لقد قال إن بعض أحجار الألماس قد استعيدت وليس كلها. قد تكون هذه هي المفقودة... أو ربما...

- ربما ماذا؟

لم أجبها مباشرة، بل قلت: أريد أن أعرف ماذا جرى للشاب الآخر. ليس إيردسلي ولكن... ماذا كان اسمه؟ لوكاس!

- بعض الأمور بدأت تتضح لنا على أية حال. إن أحجار الألماس هي ما يجري خلفه كل هؤلاء. لا بد أن «ذا البدلة البنية» قد قتل نادينا لكي يحصل على الألماس.

قلت بحدة: هو لم يقتلها.

- لقد قتلها بالطبع. من عساه قتلها غيره؟

- لا أعرف، ولكني متأكدة من أنه لم يقتلها.

- لقد دخل إلى البيت بعد ثلاث دقائق من دخولها وخرج منه شاحب اللون.

- لأنه وجدها ميتة.

- ولكن أحداً غيره لم يدخل البيت.

- إذن فقد كان القاتل في البيت أصلاً، أو أنه دخل بطريقة ما دون الحاجة للمرور أمام بيت البواب؛ إذ كان بوسعه تسلق الجدار.

نظرت سوزان إليّ نظرة حادة وقالت متأملة: «الرجل ذو البدلة البنية»، ترى من يكون؟ على أية حال فقد تطابقت صفاته مع الطبيب الذي كان في نفق القطار. كان يمتلك الوقت ليتخلص من تنكره ويتبع المرأة إلى مارلو. كانت ستلتقي مع كارتون هناك، فكلاهما حصل على إذن بمعاينة نفس البيت، وإذا كانا قد اتخذا مثل هذه الاحتياطات المحكمة لكي يجعلا لقاءهما يبدو غير مقصود فلا بد أنهما كانا يشكّان في أن أحداً كان يتبعهما. ومع ذلك لم يعرف كارتون أن الذي يلاحقه

كان «الرجل ذا البدلة البنية»، وعندما عرفه صُدِّم صدمة كبيرة جعلته يفقد عقله تماماً ويتراجع إلى الوراء على سكة الحديد. هذا كله يبدو واضحاً تماماً، ألا ترين ذلك يا آن؟

لم أردّ عليها، فمضت قائلة: بلى، هذا ما حدث. أخذ الورقة من الرجل الميت، وفي غمرة عجلته للهروب أسقطها، ثم تبع المرأة إلى مارلو. ما الذي فعله عندما غادر المكان بعد أن قتلها... أو بعد أن وجدها ميتة كما تقولين؟ إلى أين ذهب؟

لم أقل شيئاً أيضاً.

قالت سوزان متأملة: إنني أتساءل، أيمكن أن يكون قد أقنع السير يوستيس بيدلار بأخذه معه في السفينة سكرتيراً له؟ ستكون فرصة فريدة في الخروج من إنكلترا بأمان وتفادي الملاحقة. ولكن كيف جعل السير يوستيس يوافق؟ يبدو الأمر وكأن له ممسكاً عليه.

قلت رغماً عن نفسي: أو على باجيت.

- يبدو أنك لا تحبين باجيت يا آن. السير يوستيس يقول إنه شاب شديد الكفاءة والجد في عمله، والحقيقة أنه ربما كان كذلك من كل ما نعرفه عنه. حسناً، دعيني أكمل تخميناتي فأقول إن رايبيرن هو «الرجل ذو البدلة البنية». وكان قد قرأ الورقة التي أسقطها، ولذلك حاول الوصول إلى الغرفة رقم ١٧ في الساعة الواحدة صباحاً يوم الثاني والعشرين بعد أن ضللته تلك النقطة كما ضلّلتك أنت، بعد أن حاول من قبل الحصول على الغرفة من خلال باجيت. وفي طريقه إلى هناك طعنه أحدهم...

قاطعتها: من الذي طعنه؟

- تشيتشيستر، نعم. هذا كله ينسجم بعضه مع بعض. أرسلي برقية إلى اللورد ناسبي بأنك وجدت «الرجل ذا البدلة البنية» وستجدين الثروة بين يديك يا آن!

- لقد تجاوزتِ عدة أمور.

- أي أمور؟ أعرف أن لرايبيرن ندبة على وجهه، ولكن الندبة يمكن تزييفها بسهولة. إنه بنفس الطول والبنية الجسمية. ماذا كان وصف الرأس الذي هزمتِ به ضابط شرطة سكوتلانديارد؟

ارتجفت. كانت سوزان امرأة مثقفة ومطلعة، ولكني تمنيت أن لا تكون ضليعة بالمصطلحات الخاصة بعلم الأجناس. قلت بشكل عرضي: كان طويل الرأس.

بدت سوزان متشككة وقالت: أهذا ما قلتِه لهم؟

- نعم، طويل الرأس، وهو الرأس الذي يقل عرضه عن خمسة وسبعين بالمئة من طوله.

ساد بعض الصمت، وكنت على وشك التنفس بحرية عندما قالت سوزان فجأة: ما هو العكس من ذلك؟

- ماذا تقصدين... بالعكس من ذلك؟

- حسناً. لا بد من وجود عكس لهذه الصفة. ماذا تسمين الرؤوس التي يكون عرضها أكثر من خمسة وسبعين بالمئة من طولها؟

تمتمتُ بتردد: أسميه رأساً عريضاً.

- هذا هو... أظن أن هذا هو ما قُلتِه لهم.

قلت بكل ما أوتيت من ثقة: أحقاً؟ كانت زلة لسان مني. كنت أعني طويل الرأس.

نظرت سوزان إلي تتفحصني، ثم ضحكت وقالت: أنت تكذبين جيداً أيتها الغجرية، ولكن لو أخبرتني الآن كل شيء عن الأمر فسوف نوفر الوقت والجهد.

قلت كارهة: ليس عندي ما أخبرك به.

قالت سوزان بلطف: أحقاً؟

قلت ببطء: حسناً، سيتعين عليّ أن أخبرك بالأمر. لست خجلة من ذلك؛ لا يمكن أن تخجلي من شيء... من شيء حدث لك دون إرادتك. هذا ما فعله. لقد كان بغيضاً... وقحاً وناكراً للجميل... ولكن أظنني أفهم ذلك. إن أمره كأمر كلب رُبط بالسلاسل... أو عومل معاملة سيئة، فهو يعض أي شخص. هكذا كان... مريراً مزمجراً. لا أعرف لماذا أهتم به... ولكني أهتم فعلاً. بل أهتم بشكل فظيع. إن مجرد رؤيتي له قلبت كل حياتي رأساً على عقب. إنني أحبه، وأريده، وسوف أقطع كل أفريقيا سيراً على قدمي الحافيتين حتى أجده، وسوف أجعله يهتم بي. سوف أموت من أجله، سوف أعمل من أجله، أكدح من أجله، أسرق من أجله، وحتى أتسول أو أقترض من أجله! ها أنت الآن تعرفين!

نظرت سوزان إليّ طويلاً ثم قالت أخيراً: أنت أبعد ما تكونين عن الإنكليز أيتها الغجرية. ليس فيك أثر بسيط للعواطف المائعة. إنني لم أر أحداً مثلك يكون بكل هذه العملية وكل هذا التدفق العاطفي في وقت واحد، وأنا ما كنتُ لأهتم بأحدٍ على هذا النحو (وذلك لحسن حظي) ومع ذلك... ومع ذلك فإنني أحسدك أيتها الغجرية. إنه شيء

عظيم أن يستطيع المرء إبداء هذا القدر من الحب والاهتمام، فمعظم الناس لا يستطيعون ذلك. ولكن كان من حسن حظ ذلك الطبيب أنك لم تتزوجي به؛ فهو لا يبدو ممن يستمتعون بوجود امرأة سريعة الاشتعال معه في البيت! إذن لن تبعثي ببرقية إلى اللورد ناسبي؟

هززت رأسي بالنفي فقالت: ولكنك ترين أنه بريء؟

- وأرى أيضاً أن الأبرياء يمكن أن يعلقوا على أعواد المشانق.

- نعم. ولكنك تستطيعين يا عزيزتي آن مواجهة الحقائق، فواجهيها الآن. فرغم كل ما قلته ربما كان قد قتل هذه المرأة.

- كلا، لم يقتلها.

- هذا كلام عاطفي.

- كلا، ليس كذلك. ربما كان من شأنه أن يقتلها، بل ربما تبعها إلى هناك بقصد قتلها، ولكنه ما كان ليأخذ حبلاً أسود ويخنقها به. ولو كان يريد فعل ذلك لخنقها بكلتا يديه.

ارتعدت سوازن، ثم ضاقت عيناها كمن بدأ يستوعب وقالت: هممم! لقد بدأت أفهم يا آن سبب اعتبارك هذا الشاب جذاباً جداً!

* * *

الفصل السادس عشر

أتيحت لي فرصة للحديث مع الكولونيل رايس في صباح اليوم التالي، وكانت المسابقات قد انتهت وتمشينا على ظهر السفينة معاً.

- كيف حال الغجرية هذا الصباح؟ مشتاقة لليابسة؟

هززت رأسي بالنفي وقلت: الآن وقد أصبح البحر لطيفاً، فإنني أشعر برغبتي في البقاء فيه إلى الأبد.

- يا لها من حماسة!

- أليس الجو رائعاً هذا الصباح؟

اتكأنا على الحاجز معاً. كان البحر هادئاً تماماً، وبدا وكأن الزيت يطفو على صفحته، إذ انتشرت بقع كبيرة ملونة على سطحه؛ بقع زرقاء وخضراء باهتة وزمردية وأرجوانية وبرتقالية، أشبه بلوحة تشكيلية، وبين حين وآخر يلتمع لون فضي لسمك يقفز في الهواء. كان الهواء رطباً دافئاً، يكاد يكون لزجاً، وكانت رائحته كضمّة عطرة.

قلت كاسرة جدار الصمت: كانت القصة التي أخبرتنا بها الليلة الماضية مشوقة جداً.

- أية واحدة؟

- قصة أحجار الألماس.

- أظن أن النساء مهتمات دائماً بالألماس.

- بالطبع. على فكرة، ماذا حصل للشاب الآخر؟ قلتَ إنهما كانا اثنين.

- الشاب لوكاس؟ لم يستطيعوا بالطبع إدانة واحد وتبرئة الآخر، ولذلك فقد نجا من العقوبة هو الآخر.

- وما الذي حدث له؟ أقصد بعد ذلك. هل يعرف أحد عنه شيئاً؟

كان الكولونيل رايس ينظر إلى البحر أمامه مباشرة. كان وجهه خالياً من أية تعابير، أشبه بقناع، ولكني شعرت أنه لم يرتح لأسئلتي. ومع ذلك فقد ردّ علي بكل جاهزية: ذهب إلى الحرب وقاتل بشجاعة، وقد وردت تقارير تفيد بأنه مفقود ومصاب... ويُعتقد بأنه قتل.

عرفت من هذا ما كنت أريد معرفته. لم أسأله غير ذلك، ولكني تساءلت أكثر من أي وقت مضى عن مقدار ما يعرفه الكولونيل رايس، وقد حيرني الدور الذي كان يلعبه في كل هذا الأمر. وقد فعلت شيئاً آخر، وهو مقابلة المضيف الذي كان يعمل ليلاً. وبقليل من النقود جعلته يتكلم في الحال.

- هل ارتعبتْ السيدة يا آنسة؟ لقد بدت مزحة بريئة. فهمت أنه رهان أو شيء من ذلك.

حصلت على كل شيء منه بالتدريج؛ ففي الرحلة من كيب تاون

إلى إنكلترا سلّمه أحد المسافرين فلماً مع تعليمات بإسقاطه فوق السرير في الغرفة ٧١ الساعة الواحدة من صباح يوم الثاني والعشرين من كانون الثاني (يناير) في رحلة الذهاب. كانت امرأة ستنزل تلك الغرفة وقد تم وصف المسألة على أنها رهان، وقد فهمتُ أن المضيف حصل على مبلغ سخي عن دوره في هذا الأمر. لم يتم ذكر اسم السيدة، ولأن السيدة بلير قد ذهبت مباشرة إلى الغرفة رقم ٧١ بعد أن قابلت موظف الحسابات بمجرد صعودها للسفينة، فلم يخطر ببال المضيف أبداً بأنها ليست السيدة المقصودة. كان اسم الراكب الذي دبّر هذا الأمر كارتون، وقد تطابقت أوصافه مع أوصاف ذلك الرجل الذي قتل في نفق القطارات تطابقاً تاماً.

ومهما يكن فقد تم كشف أحد الألغاز، وكان واضحاً أن الألماس هو مفتاح الأمر كله.

مرت تلك الأيام الأخيرة على ظهر السفينة كيلموردن بسرعة كبيرة. وبينما كنّا نقترب من كيب تاون أكثر وأكثر اضطررت للتفكير المتأني بخططي المستقبلية. كان أمامي العديد من الأشخاص الذين كنت أريد مراقبتهم؛ السيد تشيتشيستر، والسير يوستيس وسكرتيره و... نعم، الكولونيل رايس! ماذا كان عليّ أن أفعل بهذا الخصوص؟ أمر طبيعي أن يكون تشيتشيستر على رأس هذه القائمة، بل كنت في الواقع على وشك حذف السير يوستيس والسيد باجيت كارهة من قائمة المشتبه بهم عندما أيقظ حديث عرضي شكوكاً جديدة في نفسي.

كنت قد نسيت ردّ فعل السيد باجيت غير المفهوم عند ذكر فلورنسا، وفي الليلة الأخيرة لنا على ظهر السفينة كنّا جميعاً نجلس على ظهر السفينة فوجّه السير يوستيس سؤالاً بريئاً تماماً إلى سكرتيره.

لقد نسيت بالضبط ما هو، ولكنه شيء يتعلق بتأخير رحلات القطارات في إيطاليا، ولكني لاحظت على الفور أن السيد باجيت أظهر نفس القلق الذي أثار انتباهي من قبل. وعندما نهض السير يوستيس والسيدة انتقلتُ بسرعة إلى المقعد المجاور للسكرتير. كنت قد عقدت العزم على الوصول إلى أساس الموضوع.

قلت: كنت دائماً مشتاقة للذهاب إلى إيطاليا، وخصوصاً فلورنسا. هل استمتعت كثيراً برحلتك إلى هناك؟

- لقد استمتعت بالفعل يا آنسة بيدنغفيلد. إذا سمحت لي، فلديّ بعض المراسلات الخاصة بالسير يوستيس أريد...

أمسكت به من كمّ معطفه بقوة وصحت بلهجة أرملة لعوب: آه، يجب أن لا تهرب! أنا واثقة بأن السير يوستيس لا يحب أن تتركني وحيدة دون أحد أتكلم معه. يبدو أنك لا تريد أن تتحدث عن فلورنسا أبداً. آه يا سيد باجيت، أظن أن لديك سراً تشعر معه بالذنب!

كنت ما أزال ممسكة بذراعه وكنت أشعر بالجفلة المفاجئة التي بدت عليه. قال بجدية: أبداً يا آنسة بيدنغفيلد، أبداً. يسرني كثيراً أن أخبرك كل شيء عنها، ولكن عليّ حقاً بعض البرقيات...

- آه، يا له من عذر ضعيف يا سيد باجيت! سوف أخبر السيد يوستيس...

لم أقل غير ذلك. جفل مرة أخرى، وبدت أعصاب الرجل بحالة يُرثى لها. قال: ما الذي تريدين معرفته؟

ابتسمت في نفسي بسبب ما أوحت به نبرته من استسلام الضحية

وقلت: آه، كل شيء! الرسومات، أشجار الزيتون...

سكتُّ وأنا متحيرة شخصياً، ثم أكملت قائلة: أظن أنك تتحدث الإيطالية؟

- لا أعرف كلمة واحدة منها لسوء الحظ. ولكن بالطبع مع وجود خدم الصالات... والـ... والمرشدين...

أسرعت إلى الإجابة: بالضبط، وماذا كانت لوحتك المفضلة؟

- آه، إنها... إنها مادونا... لرفائيل.

همست بانفعال: يا لفلورنسا القديمة! المنظر الخلاب على ضفاف الأرنو. إنه نهر جميل. والدومو، هل تذكر الدومو؟

- بالطبع، بالطبع.

قلت مجازفة: إنه نهر جميل آخر، أليس كذلك؟ يكاد يفوق الأرنو جمالاً؟

- أجمل بالتأكيد.

وبعد أن تشجعت بفعل نجاح فخي الصغير تابعت معه الحديث، ولكن لم تكن حاجة للشك. لقد ألقى السيد باجيت نفسه بين يدي مع كل كلمة نطق بها. إن الرجل لم يذهب إلى فلورنسا في حياته أبداً.

ولكن إن لم يكن في فلورنسا فأين كان؟ في إنكلترا؟ هل كان في إنكلترا عملياً وقت حدوث لغز ميل هاوس؟ قررت القيام بخطوة جريئة فقلت: الشيء الغريب أنني أتصور أنني رأيتك من قبل في مكان

ما. ولكن لا بد أنني مخطئة... طالما أنك كنت في فلورنسا في ذلك الوقت. ومع ذلك...

أمعنت النظر إليه صراحة. كانت في عينيه نظرة رعب. مرّر لسانه على شفتيه الجافتين وقال: أين... أ... أين...

أكملت عنه: أين أظن أنني رأيتك؟ في مارلو. أتعرف مارلو. ولكن بالطبع، كم أنا غبية، فللسير يوستيس بيت هناك!

ولكن ضحيتي نهض وهرب متمتماً بعذر غير مفهوم.

في تلك الليلة اقتحمت على سوزان غرفتها وأنا في شدة الإثارة. وبعد أن أنهيت رواية قصتي قلت بإلحاح: لقد كان موجوداً في إنكلترا يا سوزان، في مارلو، وقت وقوع جريمة القتل. أأنت متأكدة الآن من أن «الرجل ذا البدلة البنية» مذنب؟

قالت سوزان فجأة وعيناها تطرفان: أنا واثقة من شيء واحد.

- وما هو؟

- أن «الرجل ذا البدلة البنية» أكثر وسامة من السيد باجيت المسكين. كلا يا آن، لا تغضبي؛ كنت أحاول إغاظتك فقط. اجلسي هنا. اتركي المزاح جانباً، أعتقد أنك قمت باكتشاف أمر مهم جداً، فقد كنا -حتى الآن- نرى أن لباجيت عذر غياب عن مسرح الجريمة، أما الآن فإننا نعرف أنه لا يملك هذا العذر.

قلت: بالضبط؛ يجب أن نبقيه تحت المراقبة.

قالت بحزن: شأنه في ذلك شأن الجميع. حسناً، هذا أحد الأشياء التي أردت الحديث معك بخصوصها. عن ذلك، وعن التمويل. لا،

لا تتشامخي. أعرف أنك ذات كبرياء واستقلالية تصل حد السخف، ولكن عليك أن تصغي إلى لغة العقل بهذا الخصوص... إننا شريكتان. ما كنت لأعرض عليك بنساً واحداً لمجرد محبتي لك، أو لمجرد أنك وحيدة دون أصدقاء... إن ما أريده هو الإثارة، وأنا على استعداد أن أدفع مقابل ذلك. سوف نقوم بهذا العمل معاً دون اعتبار للنفقات. أولاً، ستأتين معي إلى فندق ماونت نيلسون على نفقتي وهناك سنقوم بوضع خطة لحملتنا.

تجادلنا في هذه النقطة وفي نهاية الأمر استسلمت لطلبها، ولكني لم أرتح للأمر، فقد أردت القيام بهذا العمل وحيدة.

قالت سوزان آخر الأمر وهي تنهض وتتثاءب: انتهينا من هذا الآن. لقد أرهقتني فصاحتي، والآن هيا نناقش أمر ضحايانا. سيذهب السيد تشيتشيستر إلى دوربان. السير يوستيس ذاهب إلى فندق ماونت نيلسون في كيب تاون ثم يذهب إلى روديسيا. ستنتظره سيارة خاصة في محطة القطارات، وفي إحدى لحظات الأريحية -في الليلة الماضية- عرض علي أن أصحبه في السيارة. أعتقد أنه لم يكن يقصد ذلك فعلاً، ولكنه لن يستطيع التراجع إن أنا أخذته بكلامه.

وافقتها: هذا جيد. راقبي السير يوستيس والسيد باجيت، أمّا أنا فسأتولى أمر تشيتشيستر. ولكن ماذا عن الكولونيل رايس؟

نظرت سوزان إليّ باستغراب وقالت: آن، لا أظنك تشكين في..

- بل أشك... أشك في الجميع. إنني في ذلك المزاج الذي يبحث المرء فيه عن آخر من يُشتبه بهم.

قالت سوزان متأملة: الكولونيل رايس سيذهب إلى روديسيا أيضاً. إذا جعلنا السير يوستيس يدعوه هو الآخر...

- تستطيعين تدبير ذلك؛ يمكنك أن تدبري أي شيء

همهمت سوزان: أحب التملق.

افترقنا بعد التفاهم على ضرورة استخدام سوزان لمواهبها بما يحقق أفضل فائدة. وأحسست بأنني أكثر انفعالاً من أن أذهب مباشرة إلى النوم. كانت تلك ليلتي الأخيرة على السفينة، وسنكون في خليج تيبل في وقت مبكر من صباح الغد.

تسللت إلى ظهر السفينة. كان الهواء بارداً وعليلاً، والسفينة تمخر عباب البحر المائج. كان سطح المركب مظلماً وخالياً من أي مسافر؛ إذ جاوز الوقت منتصف الليل. مِلْت فوق الحاجز أرقب مياه البحر المزبدة... أمامنا كانت أفريقيا، وكنّا نندفع نحوها في ظلمات البحر. أحسست أنني وحيدة في عالم رائع. وقفت هناك يلفّني هدوء غريب، لا أبالي بالوقت وأنا غارقة في أحلامي.

وفجأة انتابني إحساس غريب بالخطر يقترب مني. لم أكن قد سمعت شيئاً، لكني استدرت بطريقة غريزية. كان شبح شخص قد زحف ليصبح ورائي، وعندما استدرت قفز فأمسك رقبتي بإحدى يديه بشكل يمنع أية صرخة قد أُطلقها. قاومته يائسة، ولكن لم تكن عندي أي فرصة. وكنت على وشك الاختناق من قبضته على حنجرتي، لكني عضضت وتشبثت وخمشت كما تفعل النساء عادة. كان الرجل مقيداً باضطراره لمنعي من الصراخ، ولو أنه نجح في أخذي على حين غرّة لكان سهلاً عليه إلقائي من فوق المركب بدفعة مفاجئة، وكانت أسماك

القرش ستتولى القيام ببقية العمل.

وبعد أن قاومته قدر استطاعتي شعرت أنني أضعف. وأحس مُهاجمي بذلك أيضاً، فاستخدم كل قوته. ثم جاء شبح آخر يركض بخفة ودون أي صوت، وبضربة واحدة من قبضته جعل خصمي ينطرح أرضاً. وبعد أن تحررت أسندت نفسي إلى الحاجز وأنا أشعر بالغثيان وأرتجف.

التفت منقذي إليّ بحركة سريعة وقال: هل تأذيت؟

كان في نبرة صوته شيء من الوحشية... تهديد للشخص الذي تجرأ على إيذائي. وحتى قبل أن يتكلم كنت قد عرفته؛ إنه رجلي... الرجل ذو الندبة.

ولكن تلك اللحظة التي حوّل فيها اهتمامه إليّ كانت كافية للعدو الساقط على الأرض؛ إذ قام عن الأرض بسرعة البرق وأسرع عائداً يركض عبر سطح السفينة، وقفز رايبرن وراءه وهو يشتمه.

كنت أكره دائماً أن أكون بعيدة عن الأحداث، ولذلك شاركت في المطاردة... وكنت أسوأ الثلاثة. اندفعنا حول ظهر المركب إلى ميمنة السفينة. وهناك، بجانب باب القاعة، كان الرجل ملقى كومة هامدة، وقد انحنى رايبرن فوقه.

قلت لاهثة: هل ضربته ثانية؟

أجابني عابساً: لم تكن لذلك حاجة. وجدته منهاراً قرب الباب، أو أنه لم يستطع فتحه وبالتالي فهو يتظاهر. سنعرف هذا في الحال، كما سنعرف من يكون هذا الرجل.

اقتربت وقلبي يخفق. أدركت على الفور أن مهاجمي كان رجلاً أكبر جسماً من تشيتشيستر. على أية حال فقد كان تشيتشيستر مخلوقاً ضعيفاً يمكنه أن يستخدم سكيناً يطعن بها، ولكنه لا يقوى كثيراً على استخدام يديه بمفردهما.

أشعل رايبرن عود ثقاب، وصحنا نحن الاثنين... كان الرجل هو غاي باجيت! بدا رايبرن ذاهلاً تماماً من هذا الاكتشاف.

تمتم: باجيت؟ يا إلهي، إنه باجيت!

أحسست بشعور خفيف من التفوق وقلت: تبدو وقد فوجئت.

قال بحزن: "لقد فوجئت فعلاً... لم أشك أبداً..."، ثم التفت إليّ بغتة وقال: وأنت؟ ألم تُفاجئي؟ أظنك عرفتِه عندما هاجمك؟

- كلا، لم أعرفه، ومع ذلك فلست أحس بكثير مفاجأة.

نظر إلي بارتياب وقال: إنني لأتساءل عن موقعك من هذا كله؟ ومقدار ما تعرفينه؟

ابتسمت وقلت: أعرف الكثير يا سيد... لوكاس!

أمسك بذراعي، وجعلتني قوة قبضته اللاإرادية أمتعض، ثم سألني بصوت أجش: من أين عرفت هذا الاسم؟

سألته بلطف: أليس اسمك؟ أم أنك تحب أن أناديك باسم «ذي البدلة البنية»؟

صعقته كلماتي هذه. أرخى ذراعي وتراجع خطوتين إلى الوراء وقال لاهثاً: أأنت فتاة أم ساحرة؟

قلت وأنا أتقدم نحوه خطوة: أنا صديقة. لقد قدمت لك مساعدتي مرة... وها أنا أقدمها لك ثانية. هل ستقبلها؟

أذهلتني قسوة إجابته: كلا؛ لن أتعامل معك أو مع أية امرأة أخرى... افعلي ما تشائين.

ومثلما حدث من قبل، بدأت أعصابي أنا تثور فقلت: ربما لا تدرك كم أنت في قبضتي؟ إن كلمة واحدة منّي للقبطان...

قال ساخراً: "قوليها". ثم قال وهو يتقدم خطوة سريعة: طالما أننا نتحدث عن إدراك الأمور يا فتاتي العزيزة، هل تدركين أنك الآن في قبضتي أنا؟ أستطيع أن أخنقك هكذا.

وبحركة سريعة من يده قرن كلامه بالفعل. أحسست أن يديه تطبقان حول حنجرتي وتضغطان... ضغطاً خفيفاً جداً، ثم أكمل: هكذا... حتى أُخرج الحياة منك! وبعدها -كصديقنا المغمى عليه هنا، ولكن بنجاح أكبر- ألقي بجثتك إلى أسماك القرش. ما رأيك بذلك؟

لم أقل شيئاً. ضحكت، ومع ذلك عرفت أن الخطر كان حقيقياً. في تلك اللحظة تماماً كان يكرهني، ولكني عرفت أنني أحببت الخطر، أحببت الإحساس بيديه حول عنقي، وأنني ما كنت لأستبدل بتلك اللحظة أي لحظة أخرى في حياتي.

حررني وهو يضحك ضحكة صغيرة، ثم سألني فجأة: ما اسمك؟

- آن بيدنغفيلد.

- ألا يخيفك شيء يا آن بيدنغفيلد؟

قلت متظاهرة ببرود كنت أبعد ما أكون عنه: آه، بلى؛ أخاف من الزنابير، والنساء الساخرات، والشباب الصغار، والصراصير، وموظفي المحلات المتكبرين.

ضحك ضحكة قصيرة كضحكته الأولى، ثم حرّك جسد باجيت الغائب عن الوعي بقدمه وسأل دون مبالاة: ماذا سنفعل بهذا التافه؟ أنلقيه في البحر؟

قلت بنفس القدر من الهدوء: إن شئت ذلك.

- إنني معجب بغرائزك المتقبلة لكل شيء والمتعطشة للدماء يا آنسة بيدنغفيلد، ولكننا سنتركه حتى يصحو على راحته. إن إصابته غير خطيرة.

قلت بلطف: أرى أنك تستنكف عن ارتكاب جريمة قتل ثانية.

- جريمة قتل ثانية؟!

بدا متحيراً بصدق. وذكّرته وأنا أراقب تأثير كلماتي عليه عن قرب: تلك المرأة في مارلو.

بدت على وجهه تقاسيم عبوس قبيحة. بدا وكأنه نسي وجودي معه وقال: كان يمكن أن أقتلها، وأحياناً أظنني كنت أعتزم قتلها...

جاشت في نفسي أحاسيس قاسية وحاقدة على المرأة القتيلة. لو كانت تقف أمامي في تلك اللحظة لقتلتها؛ لأن شعوره هذا يدل على أنه لا بد أحبها مرة. لا بد... لا بد!

ضبطت أعصابي وتكلمت بصوت طبيعي: يبدو أننا قلنا كل

ما يمكن أن يقال... باستثناء "طابت ليلتك".

- طابت ليلتك ووداعاً آنسة بيدنغفيلد.

- إلى اللقاء يا سيد لوكاس.

مرة أخرى جفل عند سماعه الاسم، واقترب مني أكثر: لماذا تقولين هذا... أقصد قولك "إلى اللقاء"؟

- لأني أظن أننا سنلتقي ثانية.

- لن يحدث هذا ما وسعني ذلك!

لم تضايقني كلماته هذه رغم أنها كانت مشدّدة، بل على العكس من ذلك أحسست برضا داخلي في نفسي؛ فأنا لست مغفلة تماماً. قلت بهدوء: ورغم ذلك أظن أننا سنلتقي.

- لماذا؟

هززت رأسي غير قادرة على شرح الأحاسيس التي حركت كلماتي، فقال فجأة وبعنف: لا أتمنى أن أراك أبداً مرة أخرى.

كان ذلك حقاً كلاماً وقحاً جداً، ولكني ضحكت ضحكة هادئة وابتعدت عنه في الظلام. سمعته وقد تحرك ليتبعني ثم توقف وقال كلمة طافت في الهواء. أعتقد أن الكلمة كانت «ساحرة»!

* * *

الفصل السابع عشر

(مقتطفات من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

فندق ماونت نيلسون، كيب تاون:

إن أعظم راحة في الحقيقة هي مغادرة المركب كيلموردن؛ فطوال وجودي على ظهر المركب كنت أدرك أنني محاط بشبكة من المكائد، وتتويجاً لكل شيء فإن غاي باجيت تورط -دون شك- في مشاجرة سكارى الليلة الماضية. هذه هي حقيقة ما حدث، رغم أنه حاول صرف نظري عن ذلك بتبريرات مختلفة. وإلاّ ماذا يرى المرء عندما يأتيه رجل وفي رأسه انتفاخ بحجم البيضة وحول عينه جميع ألوان الطيف؟

من شأن باجيت طبعاً أن يصرّ على كتمان الأمر كله. ولو أخذ المرء بكلامه لظنّ أن السواد حول عينه ما كان إلاّ نتيجة مباشرة لإخلاصه لمصالحي. كانت روايته غامضة عويصة جداً، وقد احتجت وقتاً طويلاً حتى عرفت رأسها من ذيلها.

يبدو -بدايةً- أنه لمح رجلاً يتصرف تصرفات مريبة. كانت هذه كلمات باجيت، وقد أخذ تلك الكلمات مباشرة من صفحة في قصة تجسس ألمانية، أما ما الذي يعنيه برجل يتصرف تصرفات مريبة فهو

نفسه لا يعرف. وقد قلت له ذلك فقال: لقد كان يتسلل خلسة بطريقة مخادعة جداً، وكان الوقت منتصف الليل يا سيدي.

قلت بانزعاج: حسناً، وماذا كنت تفعل أنت هناك؟ لماذا لم تكن نائماً كأي مخلوق طيب؟

- كنت أكتب لك البرقيات -يا سيدي- وأطبع لك اليوميات.

لك أن تفترض أن باجيت يرى نفسه دائماً على حق، وهو مستعد للاستشهاد في سبيل ذلك! قلت: حسناً؟

- رأيت أن ألقي نظرة على المكان قبل النوم يا سيدي. كان الرجل قادماً في الممر من غرفتك، وأدركت -على الفور- أن في الأمر شيئاً غير طبيعي من الطريقة التي كان ينظر فيها حوله. صعد الدرج المجاور للصالون بسرعة، وتبعته.

قلت: يا عزيزي باجيت، لماذا لا يصعد ذلك المسكين إلى ظهر المركب دون أن يطارده أحد؟ يبلغ الأمر أحياناً أن ينام الكثيرون على ظهر السفينة (وهو أمر كنت أراه دائماً غير مريح؛ فالبحارة يكنسون المرء مع بقية النفايات على ظهر السفينة في الساعة الخامسة صباحاً).

أكملت وأنا أرتعدُ من هذه الفكرة: وعلى أية حال، فإن كنتَ قد ذهبت لمضايقة رجل مسكين يعاني الأرق فلا أعجب أن يناولك ضربة.

بدا باجيت صابراً، ثم قال: لو تسمعني حتى أكمل حديثي يا سيدي. كنت مقتنعاً بأن الرجل كان يجوس قرب غرفتك حيث لا عمل له هناك؛ إن الغرفتين الوحيدتين اللتين تقعان في نهاية ذلك الممر هما

غرفتك وغرفة الكولونيل رايس.

قلت بحذر: "رايس يستطيع العناية بنفسه دون مساعدتك يا باجيت". ثم أضفت مستدركاً: وكذلك أنا!

اقترب باجيت أكثر وتنفس بصعوبة كما كان يفعل دائماً قبل أن يفشي سراً: خُيل إليّ يا سير يوستيس (والآن أنا واثق من ذلك) أنه رايبرن.

- رايبرن؟

- نعم يا سيدي.

هززت رأسي وقلت: إن رايبرن أعقل بكثير من أن يحاول إيقاظي في منتصف الليل.

- هذا صحيح يا سيدي. أعتقد أنه كان ذاهباً لرؤية الكولونيل رايس؛ اجتماع سري... طلباً للأوامر!

قلت وأنا أتراجع إلى الوراء: لا تتمتم في وجهي يا باجيت، واضبط تنفسك أيضاً. إن فكرتك سخيفة! لماذا يريدان عقد اجتماع سري في منتصف الليل؟ إذا كان أيٌّ منهما يريد قول شيء للآخر فيمكنه أن يقول له ذلك دون إحراج أثناء شرب الشاي عصراً وبطريقة طبيعية وعرضية.

أدركت أن باجيت لم يقتنع أبداً. أصرّ قائلاً: شيءٌ ما كان يحدث الليلة الماضية يا سيدي، وإلاّ فلماذا يهاجمني رايبرن بهذه الوحشية؟

- أأنت متأكد تماماً أنه كان رايبرن؟

بدا باجيت مقتنعاً تماماً بذلك. إنه الجزء الوحيد من القصة الذي كان جازماً فيه. قال: يوجد شيء غريب جداً في كل هذا الأمر؛ إذ أين هو رايبرن بدايةً؟

كان صحيحاً تماماً أننا لم نرَ الرجل منذ أن نزلنا اليابسة. لم يأتِ إلى الفندق معنا، وأنا لا أظنه خائفاً من باجيت في أي حال.

الأمر كله مزعج جداً. لقد اختفى سكرتيرٌ لي دون أن يترك أثراً، والسكرتير الآخر يبدو كملاكم متكسب فاشل، ولا أستطيع اصطحابه معي في وضعه الحالي؛ فسأكون مادة سخرية أهالي كيب تاون. عندي موعد بعد ذلك في النهار لتسليم رسالة العجوز ميلراي، ولكنني لن آخذ باجيت معي. تباً لهذا الرجل وأساليبه التجسسية!

ومع أنني كنت في مزاج سيء جداً، فقد اضطررت لتناول إفطار مؤذٍ مع أناس مؤذين. نادلات هولنديات بأقدام متثاقلة يحتجن لنصف ساعة حتى يحضرن لي قطعة سيئة من السمك، وهذه المهزلة في الاستيقاظ الساعة الخامسة صباحاً عند الوصول إلى الميناء لكي نرى طبيباً أعمش، ومسألة رفع أيدينا فوق رؤوسنا التي أتعبتني أيما تعب.

* * *

في وقت لاحق:

حدث شيء خطير جداً. ذهبتُ إلى موعدي مع رئيس الوزراء وأخذت معي رسالة ميلراي المختومة. لم يبدُ أن أحداً قد عبث بالظرف، ولكن كان بداخله ورقة بيضاء! أظنني الآن في ورطة كبيرة؛ لا أعرف لماذا سمحت لذلك العجوز الأحمق ميلراي أن يورطني في هذا الأمر.

إن لباجيت شهرة في إثارة النكد، وهو يظهر رضا كئيباً يثير جنوني، كما أنه استغل اضطرابي لكي يحمّلني مسؤولية صندوق القرطاسية. وإذا لم ينتبه لنفسه فستكون الجنازة التالية التي يحضرها جنازتّه هو.

ومع ذلك كان عليّ الإصغاء له في نهاية الأمر: افترض -يا سير يوستيس- أن رايبرن قد سمع كلمة أو اثنتين من حديثك مع السيد ميلراي في الشارع؟ تذكّر أنك لا تحمل تفويضاً كتابياً من السيد ميلراي، وقد قبلت رايبرن بناء على تقويمه هو.

قلت ببطء: إذن فأنت ترى أن رايبرن محتال؟

كان باجيت يرى ذلك فعلاً. لا أعرف إلى أي مدى كانت آراؤه هذه متأثرة بسخطه على ما أصاب عينه. لقد نسج قضية متكاملة ضد رايبرن، كما أن مظهر هذا الأخير يعزز الرأي ضده. كان رأيي أن لا أفعل أي شيء في هذه المسألة. إن رجلاً سمح لنفسه بأن يُصبح أضحوكة لا يحرص على إذاعة هذه الحقيقة.

لكن باجيت (الذي لم تضعف طاقته ممّا تعرض له مؤخراً) كان متحمساً لاتخاذ أقوى التدابير، وقد كان له طبعاً ما أراد! أسرع إلى مركز الشرطة وبعث برقيات لا تحصى وأحضر مجموعة من المسؤولين الإنكليز والهولنديين ليأكلوا ويشربوا على حسابي.

حصلنا على ردّ ميلراي في ذلك المساء- لم يكن يعرف أي شيء عن سكرتيري الهارب!

كانت في هذا الوضع نقطة مريحة واحدة فقط؛ فقد قلت لباجيت: إن حالتك لم تكن على أية حال حالة تسمم، لقد كانت واحدة من نوبات الصفراء العادية التي كانت تهاجمك.

رأيته يرمش بعينيه. كان ذلك هو الهدف الوحيد الذي سجلتُه ضده.

* * *

بعد ذلك:

إن باجيت مرتاح للجو العام. عقله يتدفق بالأفكار الذكية، ولن يلبث أن يقول إن رايبرن ليس إلاّ ذلك الرجل الشهير ذا البدلة البنية. وأظنه على حق؛ فعادة ما يكون على حق، ولكن الأمر كله يتطور بطريقة كريهة. كلما أسرعت في المغادرة إلى روديسيا كان ذلك أفضل.

لقد أوضحت لباجيت بأنه لن يصحبني، إذ قلت له: يجب أن تبقى هنا يا عزيزي في مركز الأحداث. قد يُطلب منك التعرف على رايبرن في أية لحظة، وإلى جانب ذلك فإن عليّ التفكير بسمعتي كعضو في البرلمان الإنكليزي. لا أستطيع الخروج مع سكرتير من الواضح أنه اشتبك مؤخراً في عراك شوارع.

جفل باجيت. إنه رجل محترم إلى الحد الذي يصبح مظهره مؤلماً بالنسبة له. قال: ولكن ماذا ستفعل بمراسلاتك وبالملاحظات الخاصة بخطاباتك يا سيدي؟

قلت برقة: سأتدبر الأمر.

- ستكون سيارتك الخاصة مصاحبة لقطار الساعة الحادية عشرة صباحاً؛ صباح الأربعاء. لقد قمت بكل الترتيبات. هل ستأخذ السيدة بلير خادمة معها؟

شهقتُ قائلاً: السيدة بلير؟

لقد أخبرتني بأنك عرضت عليها الذهاب معك.

هذا ما فعلته، وقد تذكرت هذا الآن... في ليلة الحفلة التنكرية! بل إنني ألححت عليها كي تأتي، ولكني لم أحسب أبداً أنها ستوافق. ورغم أنها امرأة مفرحة إلاّ أنني لا أرى نفسي راغباً برفقتها طوال الطريق إلى روديسيا والعودة؛ فالنساء يحتجن إلى الكثير من الاهتمام، وهن يُعِقنَ المرء عن أمره أحياناً بشكل بغيض.

قلت بعصبية: هل دعوتُ أحداً آخر للقدوم معي؟ إن المرء يفعل هذه الأشياء في لحظات الأريحية.

- يبدو أن السيدة بلير تحسبك دعوتَ الكولونيل رايس أيضاً.

زمجرت قائلاً: لا بد أنني كنت ثملاً جداً إن كنت قد طلبت من رايس ذلك... ثملاً جداً حقاً! اسمع نصيحتي يا باجيت واجعل من عينك المضروبة هذه تحذيراً لك: لا تحضر حفلات سكر مرة أخرى.

- كما تعرف يا سيدي؛ فإنني لا أشرب المسكرات.

- من الأفضل أن تأخذ على نفسك عهداً بهذا إن كنت تشعر بضعف تجاه المسكرات. هل دعوتُ أحداً آخر للقدوم معي يا باجيت؟

- لا أعرف يا سيدي.

تنهدت بارتياح، ثم قلت متأملاً: بقيت الآنسة بيدنغفيلد. أظنها تريد الذهاب إلى روديسيا لتنبش عن العظام، وأنا أفكر بأن أعرض عليها وظيفة سكرتيرة مؤقتة. أعرف أن باستطاعتها الطباعة؛ هي أخبرتني بذلك.

ولشدة دهشتي عارض باجيت هذه الفكرة بحماسة. إنه لا يحب

آن بيدنغفيلد، ومنذ الليلة التي تلقى فيها تلك الضربة على عينه أصبح يُظهر مشاعر عنيفة ضدها عندما يُذكر اسمها. إن باجيت مليء بالألغاز هذه الأيام.

سأطلب من الفتاة مصاحبتي لمجرد إزعاجه!

* * *

الفصل الثامن عشر

(آن تستأنف روايتها)

لا أظنني سأنسى ما حييت رؤيتي لجبل تيبل لأول مرة. نهضت في وقت مبكر جداً وصعدت مباشرة إلى ظهر السفينة، وهو أمر يشكل جريمة لا تُغتفر، ولكني قررت محاولة فعل شيء للإبقاء على عزلتي. كنّا نقترب من خليج تيبل، وكان ثمة غيوم بيضاء وخفيفة تحوم فوق جبل تيبل وتربض على سفوحه، وتحت المنحدرات في الأسفل كانت البلدة النائمة تتلألأ وتلمع تحت ضوء شمس الصباح.

جعلني هذا المنظر أحبس أنفاسي، وأحسست بداخلي إحساساً غريباً من ألم الجوع الذي ينتاب المرء أحياناً عندما يرى شيئاً فائق الجمال. لست بارعة كثيراً في التعبير عن هذه الأشياء، ولكني عرفت جيداً أنني وجدت -ولو للحظة عابرة- الشيء الذي كنت أبحث عنه منذ أن غادرت ليتل هامبسلي؛ شيئاً جديداً، شيئاً لم أحلم به حتى اليوم، شيئاً يشبع توقي الحميم إلى الرومانسية.

اقتربت الباخرة كيلموردن من الشاطئ أكثر وأكثر بصمت مطبق، أو هكذا بدا الأمر لي. كان الأمر ما زال أشبه بالحلم، ولكني -ككل

الحالمين- لم أستطع ترك حلمي وشأنه. إننا -مَعشرَ البشر المساكين- حريصون جداً على أن لا نفقد شيئاً!

رحت أقول لنفسي دون كلل: ها هي جنوب أفريقيا... جنوب أفريقيا... جنوب أفريقيا. أنت تشاهدين العالم؛ هذا هو العالم، إنك تشاهدينه. فكري في هذا يا آن بيدنغفيلد... إنك تشاهدين العالم.

كنت قد ظننتُ أنني بمفردي على ظهر المركب، ولكني الآن لاحظت شخصاً آخر ينحني فوق السياج يتأمل مثلي تلك المدينة التي تقترب بسرعة، وقد عرفته حتى قبل أن يلتفت برأسه. بدا مشهد الليلة الماضية ميلودرامياً غير حقيقي بعد أن سطعت شمس الصباح الهادئة. ماذا رأى فيّ؟ إن تذكري لما قلته الليلة الماضية يغضبني، ولم أكن أقصد ما قلته... أم أنني كنت أقصده؟

التفتُّ برأسي بعيداً بحزم، وأمعنت النظر بجبل تيبل. إذا كان رايبرن قد صعد إلى هنا ليكون وحيداً فلا حاجة بي -على الأقل- لأن أعكر عليه صفو وحدته بظهوري أمامه.

ولكن لشدة دهشتي سمعت وقع أقدام خفيفة ورائي ثم سمعت صوته مرحاً وطبيعياً: آنسة بيدنغفيلد.

قلت: "نعم؟"، والتفتُّ برأسي.

- أريد أن أعتذر لك؛ لقد تصرفت معك الليلة الماضية تصرفاً فظاً.

قلت بسرعة: لقد كانت... لقد كانت ليلة غريبة.

لم تكن ملاحظة واضحة مفهومة، ولكنها كانت الملاحظة الوحيدة التي استطعتُ التفكير فيها.

- هل ستسامحينني؟

مددت يدي دون أن أنبس بكلمة، فأمسك بها، ثم قال وقد ازداد تجهمه: شيء آخر أود قوله. ربما لا تعرفين ذلك آنسة بيدنغفيلد، ولكنك متورطة في عمل خطير.

- هذا ما فهمتُه.

- كلا، أنت لم تفهميه. لا يمكنك أن تعرفي. أريد أن أحذرك: اتركي هذا الأمر وشأنه. إنه لا يهمك في الحقيقة، فلا تدعي فضولك يقودك إلى العبث بشؤون الآخرين. كلا، أرجوك لا تغضبي ثانية. أنا لا أتكلم عن نفسي. أنت لا تعرفين شيئاً عما قد تواجهينه... لن يوقف هؤلاء الرجال شيء. إنهم قساة جداً، وأنت في موقع خطر. انظري إلى الليلة الماضية... إنهم يتصورون أنك تعرفين شيئاً، وفرصتك الوحيدة هي إقناعهم بأنهم مخطئون. ولكن احذري، احذري الخطر دائماً، واسمعيني جيداً: إذا وقعت في أيديهم في أي وقت فلا تحاولي التذاكي... قولي الحقيقة كلها، فستكون هذه فرصتك الوحيدة.

قلت بصدق: أنت ترعبني تماماً يا سيد رايبرن. لماذا تكلف نفسك عناء تحذيري؟

لم يردّ علي لبعض الوقت، ثم قال بصوت منخفض: قد يكون هذا آخر شيء أستطيع فعله من أجلك. إذا وصلت إلى اليابسة فسأكون على ما يرام... ولكني قد لا أصل إلى اليابسة.

صحت: ماذا تقول؟

- أخشى أنك لست الوحيدة على ظهر المركب التي تعرف بأنني «ذو البدلة البنية».

قلت غاضبة: إذا كنت تعتقد أنني أخبرتُ...

هدأني بابتسامة وقال: أنا لا أشك فيك يا آنسة بيدنغفيلد، وإن كنت قد قلت هذا من قبل فقد كذبت عليك. كلا، ولكن يوجد شخص في السفينة عرف بأمري من البداية. ما عليه إلاّ أن يتكلم... فيُقضى علي. ومع ذلك فأنا أراهن على أنه لن يتكلم.

- لماذا؟

- لأنه رجل يحب اللعب وحيداً، وعندما يمسك بي الشرطة فلن أكون ذا فائدة له. أما إن كنتُ طليقاً فربما كنتُ ذا فائدة له! حسناً، سنرى ذلك خلال ساعة.

ضحك ضحكة ساخرة، ولكني رأيت قسمات وجهه تتصلب. إن كان قد قامر بمصيره، فإنه مقامر جيد، إذ يمكنه أن يبتسم وهو خاسر.

قال كمن لا يهتم: على أية حال، لا أحسبنا سنلتقي ثانية.

قلت ببطء: نعم، لا أظن ذلك.

- إذن وداعاً.

- وداعاً.

شدّ بقبضته على يدي، وللحظة اشتعلت عيناه الفاتحتان الغريبتان

وهما تنظران في عيني، ثم التفت بسرعة وتركني.

سمعت صوت وقع أقدامه ترن على ظهر المركب، وتردد صداها مراراً. أحسست أنني سأسمعها دائماً؛ وقع خطوات... تخرج من حياتي.

أعترف -صراحةً- بأنني لم أستمتع بالساعتين اللتين تلتا ذلك، ولم أتنفس ثانية بحريّة إلاّ بعد أن وقفت على الرصيف بعد أن أنهيت تلك الإجراءات الشكلية السخيفة التي تتطلبها البيروقراطية. لم يتم اعتقال أحد، وأدركت أنه يوم رائع، وأنني في غاية الجوع. انضممت إلى سوزان، إذ كنتُ سأقضي الليلة معها في الفندق على أية حال. لم يواصل المركب طريقه إلى ميناء إليزابيث ودوربان إلاّ في صباح اليوم التالي. وركبنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى فندق ماونت نيلسون.

كان كل شيء رائعاً. الشمس، والهواء، والأزهار! وقد غمرتني فرحة كبيرة عندما فكرت كيف تكون ليتل هامبسلي في كانون الثاني حيث يصل الوحل إلى الركبتين ويكون نزول المطر محتماً. ولم تكن سوزان بمثل حماستي؛ فقد سافرت كثيراً بالطبع، كما أنها ليست من النوع الذي ينفعل قبل الإفطار. وقد زجرتني بشدة عندما خرجتْ منّي صيحة انفعال على منظر شجرة لبلاب زرقاء عملاقة.

كانت سوزان أقل عنفاً بعد الإفطار. وقد أعطوني غرفة بجانب غرفتها تطل على منظر جميل لخليج تيبل، وحدقت إلى المنظر بينما كانت سوزان تبحث عن ملطف البشرة، وعندما وجدَته وبدأت -على الفور- بوضعه على وجهها أصبحَتْ قادرة على الإصغاء إلي.

سألتها: هل رأيت السير يوستيس؟ كان يسير خارج قاعة الطعام

عندما دخلنا. كان قد تناول لحم سمك رديئاً أو شيئاً كهذا وكان يخبر النادل عن رأيه فيما أكله، وقد ألقى بثمرة درّاق على الأرض لكي يظهر درجة صلابتها... ولكنها لم تكن بالصلابة التي ظنها فانهرست.

ابتسمت سوزان وقالت: السير يوستيس مثلي تماماً؛ لا يحب النهوض من نومه مبكراً. ولكن هل رأيت السيد باجيت يا آن؟ لقد قابلته في الممر. إن كدمة سوداء تحيط بعينه. ماذا تراه فعل؟

أجبتها دون مبالاة: كان يحاول فقط إلقائي من فوق السفينة.

كانت كلماتي هذه هدفاً لصالحي. تركت سوزان عملها بعد أن صبغت نصف وجهها وأصرّت على معرفة التفاصيل، فأخبرتها بها.

صاحت: إن الأمر يزداد غموضاً شيئاً فشيئاً. لقد ظننتُ أن مهمة مرافقة السير يوستيس ستكون المهمة الأسهل، وأنك ستفوزين بكل الإثارة مع تشيتشيستر، ولكني الآن لست متأكدة تماماً. أرجو أن لا يلقي بي باجيت إلى خارج القطار في ليلة مظلمة.

- أحسب أنك ما تزالين فوق الشبهات يا سوزان، ولكن إذا حدث الأسوأ فسوف أبرق لكلارنس.

- لقد ذكّرتِني... أعطني نموذج برقية. دعيني أفكر الآن، ماذا سأقول؟ "لقد تورطت في لغز غامض مثير جداً، وأرجوك أن تبعث لي بألف جنيه على الفور. سوزان".

أخذت نموذج البرقية منها وأشرت إلى أن بوسعها اختصارها قليلاً، وأن بإمكانها -إن كانت لا تحفل كثيراً بآداب التخاطب- أن تحذف كلمة أرجوك. ولكن بدا أن سوزان مستهترة تماماً بالأمور المالية،

وبدلاً من أن تصغي إلى اقتراحاتي الهادفة للتوفير أضافت ثلاث كلمات أخرى: "إنني أستمتع كثيراً".

كانت سوزان ملتزمة بغداء مع أصدقاء لها جاؤوا لأخذها من الفندق في الساعة الحادية عشرة تقريباً، وقد بقيتُ وحيدة، فنزلت إلى الأراضي المحيطة بالفندق، وعبرت خط الترام وسرت في طريق مشجر ظليل وبارد إلى أن وصلت إلى الشارع العام. تجولت فيه أراقب المناظر وأستمتع بأشعة الشمس وبرؤية الباعة السمر يبيعون الورود والفواكه، كما اكتشفت أيضاً مكاناً يبيعون فيه المثلجات اللذيذة. وفي نهاية الرحلة اشتريت سلة خوخ بستّ بنسات وعدت أدراجي إلى الفندق.

ولدهشتي وسروري وجدت رسالة في انتظاري. كانت من مدير المتحف، وكان قد قرأ خبراً عن وصولي في الباخرة كيلموردن، وقد وصفني الخبر بأنني ابنة البروفسور الراحل بيدنغفيلد. كان مدير المتحف يعرف والدي قليلاً، وكان معجباً به إعجاباً شديداً، وقد تابع يقول إن زوجته ستشعر بالغبطة إذا جئت وتناولت معهما فنجان شاي بعد ظهر ذلك اليوم في منزلهما في ميوزنبرغ. وقد كتب لي تعليمات بكيفية الوصول إلى هناك.

كان جميلاً أن أرى أن والدي المسكين ما زال يُذكر ويحظى بتقدير بالغ. وقد توقعت بأن أضطر للقيام بجولة في المتحف قبل أن أغادر كيب تاون، ولكني كنتُ مستعدة للمجازفة بخوض تلك التجربة. وقد كان من شأن معظم الناس أن يروا في مثل تلك الجولة وليمة كبرى، ولكن المرء يسأم حتى اللذائذ إذا ما تربى على وجودها في حياته صبحاً وظهراً ومساء.

وضعت على رأسي أفضل قبعة عندي (مماً تخلصتْ منه سوزان) ولبست أقل أثوابي البيضاء تجعداً وانطلقت بعد الغداء. أدركت قطاراً سريعاً إلى ميوزينبرغ ووصلت إلى هناك بعد نحو نصف ساعة. كانت رحلة جميلة، ودرنا ببطء حول قاعدة جبل تيبل، وكانت بعض الأزهار رائعة. ولأن معلوماتي في الجغرافيا كانت ضعيفة، فلم أكن أعرف أن كيب تاون تقع في شبه جزيرة، ولذلك فوجئت عندما خرجت من القطار فوجدت نفسي في مواجهة البحر مرة أخرى. كان الناس يسبحون في جو جميل هناك ممتطين ألواحاً قصيرة معقوفة تحملهم فوق الأمواج. وكان الوقت مبكراً جداً على موعد الشاي، ولذلك اتجهتُ إلى مهرجان السباحة ذاك، وعندما سألوني إن كنت أريد لوحاً لركوب البحر أجبتهم بنعم على الفور. إن ركوب البحر على هذا اللوح يبدو سهلاً تماماً، ولكنه ليس كذلك. ولن أقول أكثر من ذلك. شعرت بالغضب الشديد وكدتُ أرمي اللوح بعيداً، ومع ذلك عزمت على العودة لأحاول ثانية. ما كنت لأرضى بأن أهزم، وعن طريق الصدفة فقط لاقيت نجاحاً في محاولتي الثانية، لأخرج وأنا أشعر بالسعادة العظيمة. إن ركوب الألواح هكذا... إمّا أن تخرج ساخطاً متبرماً أو فَرِحاً مسروراً بنفسك.

وجدت الدارة المسماة ميدجي بعد بعض الصعوبات. كانت على أحد جانبي الجبل معزولة عن البيوت الأخرى، وقرعت الجرس فخرج خادم مبتسماً. سألته: السيدة رافيني؟

أشار إليّ بالدخول وسبقني في الممر وفتح أحد الأبواب. وعندما كنت على وشك الدخول ترددت؛ أحسست بريبة مفاجئة، وما أن عبرتُ العتبة حتى أُغلق الباب ورائي بقوة.

نهض رجل من مقعده وراء طاولة وتقدم نحوي وهو يمد لي يده

قائلاً: نحن مسرورون جداً لإقناعك بزيارتنا آنسة بيدنغفيلد.

كان رجلاً طويلاً ذا لحية برتقالية اللون، وواضح أنه هولندي. لم يبدُ عليه أبداً أنه مدير متحف، والحقيقة أنني أدركت بسرعة أنني جعلت نفسي أضحوكة.

لقد وقعت في يد العدو.

* * *

الفصل التاسع عشر

ذكّرني هذا بالجزء الثالث من فلم «مغامرات باميلا» حين كنت أجلس على مقاعد الستّ بنسات آكل الشُكلاتة الرخيصة وأتمنى أن تحدث لي نفس الأشياء التي تحدث لبطلة الفيلم! حسناً، ها هي قد حدثت بشكل عنيف، ولم يكن الأمر -على نحو ما- مسلّياً جداً كما تخيلت. لا بأس في الأمر وأنت تراه على الشاشة... إذ تكون لديك تلك المعلومة المريحة بأن جزءاً رابعاً سيعقب هذا الجزء، أما في الحياة الحقيقية فليست لديك أية ضمانة على الإطلاق بأن آن المُغامِرة قد لا تموت فجأة في نهاية أي جزء.

نعم، كنت في مكان أُحكِم حصاره. عادت إلى ذاكرتي بوضوح كريه جميع الأشياء التي قالها لي رايبرن ذلك الصباح. لقد أوصاني بأن أقول الحقيقة. حسناً، أستطيع أن أفعل هذا دائماً، ولكن هل سيفيدني ذلك؟ فهل سيصدقون روايتي بدايةً؟ هل سيصدقون أنني قد بدأت هذا المغامرة المجنونة اعتماداً على مجرد قصاصة من الورق تفوح منها رائحة كرات العث؟ بدت لي تلك حكاية لا يمكن تصديقها أبداً. في تلك اللحظة من التفكير العقلاني لمت نفسي على غبائي وسذاجتي الميلودرامية واشتقت إلى ملل المطمَئنّ في ليتل هامبسلي.

كل هذا مرّ في خيالي في وقت أقل من الوقت الذي يستغرقه الإخبار به. كانت حركتي الغريزية الأولى هي التراجع إلى الوراء وتحسس مقبض الباب، وابتسم آسري وقال ممازحاً: أنت هنا، وستمكثين هنا.

بذلت كل جهدي لأن أتصنع الشجاعة في هذا الموقف، فقلت: لقد دُعيت هنا من قِبل مدير متحف كيب تاون، فإذا كنتُ قد أخطأت...

- أخطأتِ؟ آه، نعم، أخطأتِ خطأً كبيراً!

ضحك بصوت أجش فقلت: أي حق لك في حجزي هنا؟ سأبلغ الشرطة...

ضحك باستهتار فجلست على كرسي وقلت ببرود: ليس بوسعي إلاّ أن أستنتج بأنك مجنون خطير.

- أحقاً؟

- أودّ أن أعلمك بأن أصدقائي يعلمون مكان وجودي تماماً، وإذا لم أعد هذا المساء فسيأتون بحثاً عنّي. أفهمت؟

- إذن فأصدقاؤك يعرفون أين أنت، أليس كذلك؟ أيّ واحد منهم؟

قمت بعد هذا التحدي بحساب سريع لفرصي. هل أذكر السير يوستيس؟ فهو رجل معروف، وقد يكون لاسمه وزن. ولكن إن كانوا على صلة مع باجيت فسيعرفون أنني أكذب. من الأفضل أن لا أجازف بذكر السير يوستيس.

قلت دون إبداء اهتمام: السيدة بلير واحدة منهم، وهي صديقة أقيم معها.

قال آسري وهو يهز رأسه البرتقالي بخبث لا أظن ذلك؛ فأنت لم تريها منذ الساعة الحادية عشرة هذا الصباح، وقد استلمتِ رسالتنا التي تدعوك إلى المجيء هنا وقت الغداء.

أظهرت لي كلماته هذه كيف أنهم كانوا يراقبونني عن قرب، ولكني ما كنت لأستسلم دون معركة، فقلت: أنت ذكي جداً، ولعلّك سمعتَ بذلك الاختراع المفيد، الهاتف؟ لقد خابرتني السيدة بلير عندما كنت أرتاح في غرفتي بعد الغداء، وقد أخبرتها وقتها عن المكان الذي سأذهب إليه بعدَ الظهر.

ومما زادني ارتياحاً أنني رأيت ظلاً من القلق يطفو على وجهه. كان واضحاً أنه غفل عن احتمال اتصال سوزان بي عن طريق الهاتف، وتمنيتُ لو أنها اتصلت بي فعلاً!

قال بصوت أجش وهو ينهض: هذا يكفي.

سألته وأنا ما زلت أحاول أن أبدو رابطة الجأش: ما الذي ستفعله بي؟

- سأضعك في مكان لا تسببين فيه أي أذى إذا ما جاء أصدقاؤك بحثاً عنك.

برد الدم في عروقي لبعض الوقت، ولكن كلماته التالية طمأنتني.

- غداً ستُطرح عليك أسئلة لتجيبي عنها، وبعد إجابتك عنها سنعرف ماذا سنفعل بك. ويمكنني أن أقول لك أيتها الفتاة أن لدينا أكثر من وسيلة لحمل الحمقى الصغار والمعاندين على الكلام.

لم تكن كلماته هذه مفرحة، ولكنها -على الأقل- إرجاء للعقوبة، فعندي فرصة حتى الغد. كان واضحاً أن هذا الرجل تابع يطيع أوامر شخص أعلى منه. أيمكن أن يكون ذلك المسؤول هو باجيت؟

نادى فجاء خادمان وأخذاني إلى الطابق العلوي، ورغم مقاومتي كمّماني ثم قيداني من يدي وقدمي. كانت الغرفة التي أخذاني إليها أشبه بعلّية تحت سطح المنزل مباشرة، وكانت مغبرّة ولا يظهر فيها الكثير مما يدل على أنها كانت مشغولة من قبل. انحنى الهولندي لي انحناءة ساخرة ثم انسحب بعد أن أغلق الباب وراءه.

كنت في وضع بائس تماماً. تقلبت ودرت، ولكني لم أستطع إرخاء وثاقي ولو قليلاً، وقد منعتني الكمامة من الصراخ. وإذا ما صدف أن جاء أي شخص إلى البيت فلن أستطيع عمل أي شيء لجذب انتباهه. سمعت أسفل منّي صوت باب يُغلق، وكان واضحاً أن الهولندي قد خرج.

كان عدم قدرتي على فعل أي شيء يثير جنوني. شددت وثاقي ثانية، ولكن العُقد صمدت. استسلمت في النهاية ثم غبتُ عن الوعي إما إغماء أو نوماً، وعندما استيقظت كان كل جسدي يؤلمني. كان المكان مظلماً تماماً ثم رأيت بأن الليل لا بد وأنه تقدم لأن القمر كان عالياً في السماء ويرسل أشعته من خلال الجو المُغبر. كادت الكمامة تخنقني وكان التصلب والألم في جسدي لا يحتمل.

ثم وقعت عيناي على قطعة من الزجاج المكسور في الزاوية. كان ضوء القمر يسقط عليها مباشرة ولقد لفت انتباهي الضوء المنعكس منها، وعندما نظرت إليها خطرت لي فكرة.

كانت يداي وساقاي عاجزتين، ولكني مع ذلك كنت أستطيع

التقلب. بدأت أتحرك ببطء ودون نظام. لم يكن ذلك سهلاً ، إلى جانب كونه مؤلماً إلى أبعد حد حيث لم أكن أستطيع حماية وجهي بيدي، وكان من الصعب أيضاً البقاء في أي اتجاه معين.

وبدا أنني أتقلب في جميع الاتجاهات عدا الاتجاه الذي أردت الذهاب نحوه، ومع ذلك وصلت في نهاية الأمر إلى هدفي، وكادت الزجاجة تلمس يدي المقيدتين.

وحتى بعد ذلك لم يكن الأمر سهلاً. لقد استغرق الأمر دهراً حتى استطعت تحريك قطعة الزجاج بحيث أثبتها في الحائط في وضع أستطيع معه تمرير وثاقي عليها إلى أعلى وأسفل. كانت عملية طويلة تمزق القلب، وقد أوشكت على اليأس، ولكني في النهاية نجحت في نشر الحبال التي كانت تقيد معصمي. أما بقية العمل فكانت مسألة وقت. وعندما أعدت الدورة الدموية إلى يدي بعد فرك معصمي بقوة استطعت إزالة الكمامة عن فمي، وقد أفادني أخذ نفس كامل بضع مرات.

وسرعان ما استطعت فك آخر عقدة، ولم أستطع الوقوف على قدمي إلاّ بعد مضي وقت طويل، ولكني وقفت في النهاية أحرك ذراعيّ جيئة وذهاباً لكي أعيد حركة الدم إليهما، وأتمنى قبل كل شيء العثور على شيء آكله.

انتظرت نحو ربع ساعة حتى أتأكد من أنني استعدت قوتي، ثم مشيت على أطراف أصابعي إلى الباب. وكما كنت آمل فلم يكن مقفلاً بالمفتاح، وإنما بالمزلاج فقط. فتحت المزلاج ونظرت إلى الخارج بحذر.

كان كل شيء هادئاً. كان ضوء القمر يدخل من خلال إحدى النوافذ

ويبير لي الدرج العاري المغبر، وزحفت عليه بحذر ما زال السكون مخيماً ولكن عندما وقفت على استراحة الدرج سمعت همهمات أصوات خافتة. وقفت جامدة لبعض الوقت. كانت الساعة على الحائط تدل على أن الوقت كان بعد منتصف الليل.

كنت أدرك تماماً الأخطار التي قد تحدث لو أنني نزلت إلى أسفل لكن فضولي كان كبيراً. بدأت أستكشف المكان بحذر شديد زحفت بهدوء أسفل إلى آخر درجة من الدرج ووقفت في الصالة المربعة نظرت حولي ثم حبست أنفاسي لاهثة؛ فقد كان خادمٌ صبي يجلس بجانب باب الصالة لم يكن قد رآني، وقد أدركت في الحال من تنفسه انه كان يغط في نوم عميق.

هل أرجع أدراجي أم أتقدم؟ كانت الأصوات تخرج من الغرفة التي دخلت فيها عند وصولي. كان أحدها صوت صديقي الهولندي، أما الآخر فلم أستطع التعرف عليه وقتها، رغم أنه بدا لي مألوفا على نحو غامض.

وفي نهاية الأمر قررت أن واجبي الأكيد هو أن أسمع كل ما أستطيع سماعه، ولو جازفت في أمر استيقاظ الخادم. عبرت الصالة بهدوء وجثوت على ركبتي بجانب باب غرفة المكتب. لم أستطع سماع شيء واضح لبعض الوقت، ثم علت الأصوات قليلاً، ولكني لم أستطع تمييز ما يقولانه.

وضعت عيني على فتحة المفتاح بدلاً من أذني. وكما حدست، كان أحد المتكلمين الهولندي الضخم. أما الرجل الآخر فكان جالساً خارج مجال رؤيتي وفجأة نهض عن مقعده، ورأيت ظهره مكسواً

بثياب سوداء جليلة عرفت من يكون حتى قبل أنْ يلتفت برأسه .. السيد تشيتشيستر!

والآن بدأت فهم كلامهما.

- ومع ذلك فهذا خطير. افترض أن أصدقاءها جاؤوا بحثاً عنها؟

كان الرجل الضخم هو الذي تحدث. أجابه تشيتشيستر (وكان قد هجر كلياً صوت رجل الدين الذي كان ينتحله، ولذلك لا عجب أنني لم أستطع تمييزه): كل ذلك خدعة؛ إنهم لا يعرفون مكانها.

- لقد تكلمت بلهجة الواثقة تماماً.

- إنها تتكلم كذلك بالتأكيد لقد درست الأمر وليس لدينا ما نخشاه. على أية حال إنها أوامر «الكولونيل»، ولا أحسبك تريد عصيانها؟

تلفظ الهولندي بشيء بلغته الخاصة، وأحسب أن ذلك الشيء كان تراجعاً سريعاً عن اعتراضه. قال مزمجراً: ولكن لِمَ لا نضربها على رأسها؟ سيكون هذا سهلاً. القارب جاهز ويمكننا أخذها إلى البحر.

قال تشيتشيستر متأملاً: نعم، هذا هو رأيي أيضاً؛ فمن المؤكد أنها تعرف الكثير. ولكن «الكولونيل» رجل يحب اللعب بمفرده، وهو لا يريد لأحد غيره أن يفعل ذلك.

بدا أن شيئاً في كلماته قد ذكّره بشيء أزعجه. استمر قائلاً: إنه يريد معلومات معينة من هذه الفتاة.

كان قد سكت قبل ذكر كلمة «معلومات»، وأسرع الهولندي إلى مقاطعته: يريد معلومات؟

- شيئاً كهذا.

قلت في نفسي: "الألماس!". وأكمل تشيتشيستر: والآن أعطني القوائم.

ولفترة طويلة بعد ذلك كان حديثهما غير مفهوم لي، ويبدو انه كان يتعلق بكميات كبيرة من الخضراوات. تم ذكر تواريخ وأسعار وأسماء أماكن مختلفة لم أكن أعرفها، وقد مضت نصف ساعة كاملة قبل أن ينهيا تدقيقهما وعدّهما.

قال تشيتشيستر: هذا جيد.

ثم سمعت صوتاً وكأنه دفع كرسيه إلى الوراء، وقال: سآخذ هذه معي لكي يراها «الكولونيل».

- متى ستغادر؟

- في الساعة العاشرة من صباح الغد.

- هل تريد رؤية الفتاة قبل رحيلك؟

- كلا. لدينا أوامر صارمة بأن لا يراها أحد قبل مجيء «الكولونيل». هل هي بخير؟

- ذهبتُ لرؤيتها عندما جئتُ إلى هنا للعشاء وكانت نائمة. ماذا بخصوص الطعام؟

- قليل من الجوع لن يؤذيها. سيكون الكولونيل هنا في وقت ما غداً، وستجيب عن الأسئلة بطريقة أفضل إذا كانت جائعة. من الأفضل أن لا يقترب منها أحد حتى ذلك الوقت. هل قُيدت بإحكام؟

ضحك الهولندي وقال: ماذا ترى؟

ضحك الاثنان، وكذلك فعلت أنا في قرارة نفسي، ثم عندما بدا من الأصوات أنهما على وشك الخروج من الغرفة عدتُ أدراجي بسرعة. وقد كان ذلك في الوقت المناسب تماماً؛ فعندما وصلت أعلى الدرج، سمعت صوت باب الغرفة يفتح وفي نفس الوقت تحرك الخادم النائم. ينبغي عدم التفكير بالانسحاب عن طريق باب الصالة، ولذلك تعقّلتُ وعدت إلى العلّيّة حيث جمعت وثاقي حولي واستلقيت على الأرض ثانية خشيةَ أن يخطر في بالهم المجيء وإلقاء نظرة علي.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وبعد نحو ساعة تسللت إلى الطابق السفلي، ولكن الخادم الذي كان قرب الباب كان مستيقظاً ويترنم مع نفسه. كنت متلهفة على الخروج من البيت لكني لم أعرف طريقاً للخروج.

وفي النهاية أُجبرت على التراجع إلى العلية مرة أخرى. كان واضحاً أن الخادم يحرس الباب هذه الليلة، وبقيت هناك صابرة حتى بدأت أصوات استعدادات الصباح تصلني. تناول الرجلان إفطارهما في الصالة حيث كانت أصواتهما تصل إلى مسامعي بوضوح، وقد كان يأسي يزداد كثيراً: كيف أستطيع الخروج من البيت؟

أقنعت نفسي بالصبر، فمن شأن حركة متهورة أن تفسد كل شيء. بعد الإفطار سمعت صوت تشيتشيستر وهو يغادر البيت، ولعظيم ارتياحي فقد رافقه الهولندي أيضاً.

انتظرت حابسةً أنفاسي. أُخليت طاولة الطعام من بقايا الإفطار، وتم الانتهاء من أعمال البيت، وفي الختام بدا أن الأعمال المختلفة

في البيت قد انتهت. تسللت خارج العلّية مرة أخرى ونزلت الدرج بحذر شديد. كانت الصالة فارغة تماماً فعبرتها كالبرق وفتحت الباب ثم خرجت إلى ضوء الشمس، وهناك ركضتُ في الممشى الخارجي كمن مسّه جنون.

عندما أصبحت خارج أسوار البيت عدت أمشي مشياً طبيعياً. كان الناس ينظرون إليّ باستغراب ولم أتعجب من ذلك؛ فلا بد أن وجهي وملابسي مغطاة بالغبار نتيجة التدحرج في العلّية. وفي النهاية وصلت إلى موقف للسيارات فدخلته وشرحت قائلة: لقد تعرضت لحادث وأريد سيارة تأخذني إلى كيب تاون فوراً. أريد اللحاق بالباخرة الذاهبة إلى دربان.

لم أنتظر طويلاً، فبعد ذلك بعشر دقائق كنت في السيارة أسابق الريح نحو كيب تاون. يجب أن أعرف إن كان تشيتشيستر على الباخرة أم لا، ولم أستطع تقرير ما إذا كنت سأبحر عليها بنفسي أم لا، ولكني -في النهاية- قررت الإبحار على متنها. لم يكن تشيتشيستر ليعرف أنني رأيته في المنزل في مويزنبرغ، ولا شك أنه سيضع فخاخاً أخرى لاصطيادي ولكني أصبحت حذرة الآن. كما أنه الرجل الذي أطارده، الرجل الذي كان يبحث عن الألماس نيابة عن «الكولونيل» الغامض.

واأسفاه على خططي! فعندما وصلت إلى الرصيف كانت الباخرة، «قلعة كيلموردن»، تمخر عباب البحر، ولم تكن عندي طريقة لأعرف إن كان تشيتشيستر قد أبحر عليها أم لا!

* * *

الفصل العشرون

توجهت إلى الفندق. لم يكن في الردهة أحد أعرفه، فأسرعت إلى الطابق العلوي وضربت على باب غرفة سوزان. سمعت صوتها وهي تأذن لي بالدخول، وعندما رأتني ألقت بنفسها علي تعانقني.

- آن، أين كنت يا عزيزتي؟ لقد قلقت عليك كثيراً. ما الذي كنت تفعلينه؟

- كنتُ أغامر... الحلقة الثالثة من «مغامرات باميلا».

أخبرتها بكل القصة. وحين انتهيت تنهدتْ بعمق ثم سألت بتذمر: لماذا تحدث هذه الأمور دائماً معك أنت؟ لماذا لا يكممني أحد ويقيدني من يدي وقدمي؟

طمأنتها: لن تحبي ذلك إن فعلوه لك، والحقيقة أنني لم أعد حريصة إلى ذلك الحد على القيام بالمغامرات، فالقليل منها يمكن أن يودي بالمرء.

بدت سوزان غير مقتنعة، وقد كان من شأن ساعة أو اثنتين تقضيهما مكممةً موثقةً أن تغير نظرتها بسرعة كافية. إن سوزان تحب الإثارة لكنها تكره المنغصات. سألتني: وماذا سنفعل الآن؟

قلت متأملة: لا أعرف تماماً. أنت بالطبع ستذهبين إلى روديسيا لمراقبة باجيت...

- وأنت؟

كان ذلك الصعوبةَ التي تواجهني: هل ذهب تشيتشيستر في كيلموردن أم لم يذهب؟ هل اعتزم تنفيذ خطته الأصلية في الذهاب إلى دربان؟ يبدو أن توقيت مغادرته مويزنبرغ كانت تشير إلى إجابة على كلا السؤالين بالإيجاب، وفي تلك الحالة قد أذهب إلى دربان بالقطار. تصورت أنني سأصل إلى هناك قبل وصول الباخرة، ومن ناحية أخرى فإذا ما أُرسلت برقية إلى تشيتشيستر بخبر هروبي، بالإضافة إلى خبر مغادرتي كيب تاون إلى دربان، فلن يكون شيء أبسط له من مغادرة الباخرة إمّا في ميناء إليزابيث أو ميناء إيست لندن وبذلك يراوغني كلية.

كانت مشكلة معقدة. قلت: سوف نستعلم عن القطارات الذاهبة إلى دربان.

- ما زال الوقت غير متأخر بالنسبة لشاي الصباح؛ سنشربه في الردهة.

غادر قطار دربان الساعة الثامنة والربع مساء ذلك اليوم كما أخبروني في المكتب، وفي تلك اللحظة أجّلت القرار وانضممت إلى سوزان لشرب شاي الحادية عشرة المتأخر.

سألتني سوزان: هل تشعرين أنك ستتعرفين على تشيتشيستر ثانية... أقصد إذا ما تنكر بأية هيئة أخرى؟

هززت رأسي بحزن وقلت: لم أميِّزه بالتأكيد عندما كان يتقمص شخصية مضيفة، وما كنت لأميزه أبداً لولا الرسم الذي رسمتِه أنت.

قالت سوزان متأملة: أنا واثقة من أن هذا الرجل ممثل محترف، وقد يخرج من الباخرة على هيئة عامل أو شيء غير ذلك، ولن تعرفيه.

- أنت تشجعينني كثيراً.

في تلك اللحظة دخل الكولونيل رايس وانضم إلينا فسألته سوزان: ما الذي يفعله السير يوستيس؟ لم أره طيلة اليوم تقريباً.

ارتسم على وجه الكولونيل -للحظة- تعبير غريب وقال: إن لديه مسألة صغيرة خاصة يتابعها وتشغله.

- أخبرنا عنها.

- يجب أن لا أروي حكاياتٍ خارجَ المدرسة!

- أخبرنا شيئاً... حتى لو كان عليك اختراعه من أجلنا.

- حسناً، ما رأيك إذا علمت أن «الرجل ذا البدلة البنية» كان قد أبحر في السفينة معنا؟

- ماذا؟

أحسست أن الدماء قد غارت من وجهي ثم عادت ثانية، ولحسن الحظ لم يكن الكولونيل رايس ينظر إلي.

- أعتقد أنها حقيقة. كانت كل المواتئ ترقبه، وقد خدع بيدلار وحمله على إحضاره معه كسكرتير له!

- هل تعني أنه السيد باجيت؟

- آه، ليس باجيت... وإنما الشخص الآخر. إنه يسمي نفسه رايبرن.

سألته سوزان: هل اعتقلوه؟

قامت من تحت الطاولة بعصر يدي لكي تطمئنني، وانتظرتُ إجابته بشغف.

- يبدو أنه اختفى تماماً عن الأنظار.

- وكيف كان تقبّل السير يوستيس لهذا الأمر؟

- اعتبرها إهانة شخصية له.

أتيحت لي فرصة لسماع وجهة نظر السير يوستيس في هذه المسألة في وقت لاحق من ذلك اليوم. كنا قد استيقظنا من قيلولة مريحة بعد الظهر حين جاء خادم يحمل رسالة، وقد دعتنا الرسالة بعبارات مؤثرة لتناول الشاي مع السير يوستيس في غرفة جلوسه.

كان المسكين في حالة يرثى لها وقد أفضى لنا بمتاعبه، وقد شجعته تمتمات سوزان المتعاطفة (وهي بارعة في القيام بمثل هذا العمل).

- في البداية كان لامرأة غريبة من الوقاحة ما جعلها تُقتل في بيتي... وأحسب أن ذلك كان تصرفاً متعمداً هدفه إزعاجي. لماذا في

بيتي أنا؟ لماذا اختارت ميل هاوس من بين جميع البيوت الأخرى في بريطانيا العظمى؟ ما هو الضرر الذي سببتُه لتلك المرأة بحيث تأتي وتُقتل هناك؟

تعاطفت سوزان معه بواحدة من عباراتها فمضى السير يوستيس في سرده بنبرة أكثر أسىً: وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد جاء الرجل الذي قتلها وأظهر من الوقاحة (بل من الوقاحة الصفيقة) ما جعله يربط نفسه بي كسكرتير لي. سكرتيري أنا إن كنتما تصدقان! لقد سئمت السكرتيرين، ولن أُبقي عندي أي سكرتير؛ فهم إما قتلة مُتخفّون أو سكارى يتشاجرون. هل رأيتما الكدمة السوداء حول عين باجيت المضروبة؟ لا بد أنكما رأيتماها بالطبع. كيف يمكنني التحرك مع سكرتير كهذا؟ كما أن وجهه شاحب مُصفر بغيض... وهو تماماً اللون الذي لا يناسب سواد الكدمة. لقد أقلعتُ عن توظيف سكرتير عندي... إلاّ إذا كانت فتاة. فتاة لطيفة ذات عينين صافيتين تمسك بيدي عندما أشعر بالغضب. ماذا عنك يا آنسة آن؟ هل تقبلين بالوظيفة؟

سألته ضاحكة: كم من المرات سيتعيّن عليّ الإمساكُ بيدك؟

ردّ السير يوستيس مازحاً: طوال اليوم.

ذكّرته: لن أنجز الكثير من الطباعة في تلك الحالة.

- هذا لا يهم. كل تلك الأعمال من ابتكار باجيت. إنه يرهقني كثيراً، وأنا أعتزم تركه ورائي في كيب تاون.

- هل سيمكث هنا بعد مغادرتك؟

- نعم، سوف يستمتع تماماً بالتحري والبحث عن رايبرن. هذا هو

الشيء الذي يناسب باجيت كثيراً؛ إنه يحب الدسائس، لكني جادٌّ تماماً في عرضي. هل تأتين؟ ستكون السيدة بلير مرافقة قديرة، ويمكنك أخذ عطلة من وقت لآخر لكي تُنقِّبي عن العظام.

قلت بحذر: أشكرك يا سير يوستيس كثيراً، ولكن أحسب أنني ذاهبة إلى دربان هذه الليلة.

- لا تكوني فتاة عنيدة. تذكّري أن في روديسيا الكثير من الأُسود. سوف تحبين الأسود، فكل الفتيات هكذا.

سألته ضاحكة: هل ستكون الأسود مشغولة بالتمرن على القفزات المنخفضة؟ كلا، أشكرك كثيراً، يجب أن أذهب إلى دربان.

نظر السير يوستيس إلي، وتنهد بعمق ثم فتح باب الغرفة المجاورة ونادى باجيت قائلاً: إذا كنت قد أنهيت قيلولتك يا عزيزي فربما كان من المناسب أن تقوم ببعض الأعمال على سبيل التغيير.

جاء غاي باجيت ووقف عند مدخل الباب، وقد جفل قليلاً عندما رآني وردّ بصوت كئيب: كنت أطبع تلك المذكرة طوال العصر يا سيدي.

- حسناً، توقف عن طباعتها إذن. اذهب إلى مكتب المفوض التجاري أو المجلس الزراعي أو غرفة المناجم أو أي مكان آخر واطلب منهم أن يعيروني امرأة آخذها معي إلى روديسيا. وهي يجب أن تكون ذات عينين صافيتين ولا تعارض إمساكي بيدها.

- حاضر يا سيدي؛ سأطلب طابعة اختزال قديرة.

قال السير يوستيس بعد أن غادر السكرتير: إن باجيت رجل خبيث. أراهن أنه سيختار مخلوقة دميمة عامداً لكي يزعجني!

أمسكت بيد سوزان بانفعال وسحبتها إلى غرفتها حيث قلت: سوزان، يجب أن نضع الخطط... وبسرعة. إن باجيت سيبقى هنا... أسمعتِ ذلك؟

- نعم. أظن أن هذا يعني بأنني لن أذهب إلى روديسيا... وهو أمر مزعج لأنني أريد الذهاب إلى روديسيا. كم هذا مضجر!

- ابتهجي. ستذهبين لا محالة. لا أفهم كيف يمكنك التراجع عن الذهاب في آخر لحظة دون أن يبدو هذا مثيراً للارتياب تماماً، وإلى جانب ذلك فقد يستدعي السير يوستيس سكرتيره باجيت فجأة وعندها سيكون من الصعب عليك مصاحبته في رحلته.

قالت سوزان وهي تغمزني: لن يكون هذا تصرفاً محترماً. سيتوجب عليّ وقتها أن أتظاهر بحبي الشديد له كعذر لمصاحبته!

- ومن ناحية أخرى إذا كنتِ هناك عندما يصل فسيكون الأمر كله عادياً وطبيعياً تماماً، كما أنني أرى أن علينا أن لا نُبعد الرجلين الآخرين عن ناظرينا تماماً.

- آه يا آن، لا أحسبك تشكّين بالكولونيل رايس أو بالسير يوستيس؟

قلت بغموض: إنني أشك في الجميع، ولو قرأتِ أية قصة بوليسية يا سوزان لعلمتِ أن المجرم يكون دائماً هو الشخص الأقل احتمالاً. لقد كان الكثير من المجرمين رجالاً مرحين بدينين مثل السير يوستيس.

- الكولونيل رايس ليس بديناً على نحو خاص... ولا هو مرح على نحو خاص أيضاً.

- أحياناً يكونون نحيلين وكئيبين. أنا لا أقول إنني أشتبه في واحد منهما اشتباهاً جاداً، ولكن المرأة قُتلت في بيت السير يوستيس في نهاية المطاف...

- نعم، نعم. لا حاجة لذكر هذا مرة أخرى. سوف أراقبه لك يا آن، وإذا أصبح أكثر سمنة وأكثر مرحاً فسوف أبعث لك ببرقية على الفور أخبرك فيها: "السير ي. يسمن بطريقة تثير الريبة. احضري على الفور".

صحت: يا لروحك المرحة يا سوزان! يبدو أنك ترين الأمر لعبة.

قالت سوزان دون خجل: أعترف بأنني أنظر إلى الأمر على هذا النحو، فهو يبدو أشبه بلعبة. إنها غلطتك يا آن؛ لقد تأثرتُ بروح المغامرة عندك. لا يبدو الأمر حقيقياً. يا إلهي! لو عرف كلارنس بأنني أجري في أفريقيا للإيقاع بعتاة المجرمين لأُصيب بنوبة.

سألتها ساخرة: لم لا تبرقين له وتخبرينه بذلك؟

كانت روح الدعابة تخذل سوزان عندما يصل الأمر إلى إرسال برقيات. فقد فكرت في اقتراحي بحسن نية: هذا ممكن، ستكون برقية طويلة جداً.

لمعت عيناها للفكرة وأضافت: ولكن أعتقد أن من الأَولى أن لا أفعل. إن الأزواج يريدون دائماً التدخل في كل تسلية بريئة.

قلت وأنا ألخص الموقف: حسناً. ستقومين بمراقبة السير يوستيس

والكولونيل رايس...

قاطعتني سوزان: أعرف لماذا علي مراقبة السير يوستيس؛ بسبب شكله وحديثه الساخر. لكني أعتقد أن الاشتباه بالكولونيل رايس يعني المضي بعيداً في الارتياب؛ فهو على علاقة بالمخابرات. أتعرفين يا آن، أظن أن أفضل شيء يمكننا عمله هو الإسرار إليه وإخباره بالقصة كلها.

عارضتُ هذا الاقتراح الخطير بقوة، وأدركتُ أنه أحد النتائج الكارثية للزواج. ألم أسمع مراراً امرأة ذكية جداً تقول بنبرة امرأة تحسم جدالاً: "إدغار يقول..."؟ (ويكون السامع مدركاً طوال الوقت أن إدغار رجل مغفل تماماً)! ولأن سوزان متزوجة كانت تتوق للاعتماد على رجل في هذا الأمر.

ومع ذلك فقد وعدَتْ بإخلاص بأن لا تتفوه بكلمة واحدة إلى الكولونيل رايس، ثم واصلنا وضع خطتنا.

- واضح تماماً أنني يجب أن أبقى هنا وأراقب باجيت، وهذه هي أفضل طريقة لذلك. يجب أن أتظاهر بأنني سأغادر هذه الليلة إلى دربان وآخذ حقائبي إلى أسفل، ولكني سأذهب -في الحقيقة- إلى فندق صغير في المدينة. يمكنني أن أغير مظهري قليلاً وألبس شعراً أشقر مستعاراً وخماراً أبيض سميكاً، وستكون لديّ فرصة أفضل لمعرفة ما ينوي عمله إذا ظنّ أنني ابتعدت عن طريقه.

وافقت سوزان على هذه الخطة بحماسة. قمنا بالاستعدادات الظاهرية اللازمة، واستعلمنا -مرة أخرى- عن موعد مغادرة القطار، وحزمت أمتعتي.

تناولنا العشاء معاً في الفندق. لم يظهر الكولونيل رايس لكن السير يوستيس وباجيت كانا يجلسان على طاولتهما، وقد ترك باجيت طاولة الطعام قبل فراغنا من الوجبة ممّا أزعجني؛ إذ كنت أريد أن أودِّعه. ومع ذلك يمكن أن ينوب السير يوستيس عنه دون شك. وهكذا ذهبت نحوه حين فرغت من طعامي وقلت: وداعاً يا سير يوستيس؛ سأذهب الليلة إلى دربان.

تنهد السير يوستيس بقوة وقال: هكذا سمعت. ألا تريدينني أن آتي معك؟

- كنت أود ذلك.

- أنت فتاة لطيفة. هل أنت متأكدة بأنك لن تغيري رأيك وتأتي للبحث عن الأسود في روديسيا؟

- متأكدة تماماً.

قال السير يوستيس باكتئاب: على فكرة، إن باجيت ذاهب بالسيارة بعد قليل، ويمكنه أن يأخذك إلى محطة القطارات.

قلت بعجلة: آه، لا، أشكرك. لقد طلبنا أنا والسيدة بلير سيارة أجرة.

الذهاب مع غاي باجيت كان آخر شيء أريده! نظر السير يوستيس إليّ بإمعان وقال: لا أظنك تحبين باجيت. ولا ألومك؛ ذلك الحمار المتطفل الثقيل... يتصرف وكأنه مظلوم، ويفعل كل شيء يستطيعه لكي يضايقني ويزعجني!

سألته ببعض الفضول: ماذا فعل الآن؟

- لقد أحضر لي سكرتيرة؛ لا يمكن أن تري امرأة مثلها! إنها في الأربعين وتلبس نظارة وحذاء ضخماً، وعليها سمتُ الكفاءة الشديدة التي سيكون فيها موتي. امرأة دميمة الوجه.

- ألن تمسك يدك؟

صاح السير يوستيس: أرجو مخلصاً أن لا تفعل ذلك! سيكون ذلك القشة التي ستقصم ظهري. حسناً، وداعاً يا ذات العينين الصافيتين. إذا اصطدتُ أسداً فلن أعطيك جلده... بعد الطريقة اللئيمة التي هجرتني بها!

شدّ على يدي بحرارة ثم افترقنا. كانت سوزان تنتظرني في الصالة، وكانت قد نزلت لكي تودعني.

قلت بسرعة: هيّا نذهب فوراً.

أشرت إلى الخادم ليحضر سيارة أجرة، ثم سمعت صوتاً من ورائي أجفلني: اسمحي لي يا آنسة بيدنغفيلد، إنني ذاهب في سيارة وأستطيع أخذك إلى المحطة مع السيدة بلير.

قلت بسرعة: آه، أشكرك، لا حاجة لأن تتعب نفسك. إنني...

- أؤكد لك أنه لا توجد مشقة على الإطلاق. أدخل الحقائب في السيارة أيها العامل.

كنت عاجزة. كان بوسعي أن أتمنع أكثر، ولكن وخزة خفيفة من سوزان جعلتني أحترس. قلت ببرود: أشكرك يا سيد باجيت.

دخلنا السيارة جميعاً، وعندما انطلقنا في الطريق إلى المدينة رحت أقدح زناد فكري لأقول شيئاً، وفي نهاية الأمر قطع باجيت نفسه الصمت: لقد أمّنت للسير يوستّيس سكرتيرة قديرة جداً؛ إنها الآنسة بيتيغرو.

قلت: لم يكن يفرط في مديحها بالضبط قبل قليل

نظر باجيت إليّ ببرود، ثم قال بأسلوب قمعي: إنها طابعة اختزال قديرة.

توقفنا أمام المحطة. سيتركنا هنا بالتأكيد. التفتُّ ومددت له يدي... ولكن لا؛ لقد أصرّ قائلاً: سآتي وأودعك. الساعة الآن الثامنة وقطارك يتحرك بعد ربع ساعة.

أعطى أوامره للحمالين. وقفت عاجزة لا أجرؤ على النظر إلى سوزان؛ فقد ارتاب الرجل. لقد عزم على التأكد من أنني ذهبت في القطار. وماذا أستطيع أن أعمل؟ لا شيء.

وجدت نفسي بعد ربع ساعة راحلة في القطار وباجيت واقفٌ على الرصيف يلوح لي بيده مودعاً. لقد قلب الطاولة عليّ بدهاء، كما أن سلوكه معي قد تغير، فقد كان أسلوبه زاخراً بلطف مشوب بعدم الارتياح، وهو أسلوب لم يكن يناسبه بتاتاً؛ الأمر الذي جعلني أشعر بالغثيان. كان الرجل منافقاً مداهناً. في البداية حاول قتلي وها هو الآن يحييني! هل تخيل دقيقة واحدة أنني لم أميّزه في تلك الليلة على الباخرة؟ كلا، كان تكلفاً، تكلفاً أجبرني على الإذعان له، وهو يضحك مني وقاحة طوال الوقت.

تحركت -بناء على تعليماته الخبيرة- عاجزة كحمل وديع. كُوِّمَتْ

أمتعتي في المقصورة، وكانت ذات سريرين. كانت الساعة الثامنة واثنتي عشرة دقيقة، وسينطلق القطار بعد ثلاث دقائق.

ولكن باجيت لم يكن قد حسب لسوزان حساباً. قالت فجأة: ستكون رحلة حارة جداً يا آن، وخصوصاً عند قطع صحراء كارو غداً. هل أحضرت معك بعض الكولونيا؟

بدا واضحاً أن دوري قد جاء، فصحتُ: آه، يا إلهي! لقد تركت زجاجة الكولونيا على طاولة الزينة في الفندق.

وقد خدم سوزان أسلوبها الآمر؛ فقد التفتت إلى باجيت بأسلوب سلطوي وقالت: سيد باجيت، أسرع، لديك الوقت. هناك صيدلية مقابل المحطة؛ يجب أن تشتري لآن زجاجة كولونيا.

تردد، ولكن أسلوب سوزان الجازم غلبه؛ فهي استبدادية بطبعها. ذهب إلي حيث أمرته، وتابعته سوزان بنظراتها إلى أن اختفى ثم قالت: أسرعي يا آن واخرجي من الناحية الأخرى... لا تهتمي بأمر أمتعتك؛ فيمكنك إرسال برقية بهذا الخصوص غداً. آه، ليت القطار يتحرك في موعده!

فتحتُ البوابة من جانب الرصيف المقابل ونزلت. لم يكن أحد يلحظني، وكنت أرى سوزان تقف حيث تركتها ترفع بصرها إلى القطار وتتظاهر بأنها تتحدث معي من النافذة. صفر القطار وبدأ يتحرك، ثم سمعت أقداماً تجري على الرصيف بقوة.

انسحبت إلى ظل كشك كتب وبقيت أراقب. استدارت سوزان بعد أن كانت تلوح بمنديلها إلى القطار المبتعد وقالت مبتهجة: لقد فات

الوقت يا سيد باجيت؛ لقد رحلت. هل هذه هي زجاجة الكولونيا؟ للأسف لم نفكر في هذا قبل ذلك!

مرّا قريباً مني وهما في طريقهما إلى خارج المحطة. كان غاي باجيت يتصبب عرقاً، وبدا واضحاً أنه ذهب إلى الصيدلية وعاد ركضاً.

- هل أحضر لك سيارة أجرة يا سيدة بلير؟

لم تفشل سوزان في دورها.

- نعم، أرجوك. ألا يمكنني أن أعيدك معي؟ هل لديك عمل كثير تقوم به للسير يوستيس؟ يا إلهي! كنت أتمنى لو أن آن بيدنغفيلد ستأتي معنا غداً. لا أحب فكرة سفر فتاة شابة كهذه إلى دربان لوحدها، ولكنها كانت مصممة على الذهاب. يخيل إليّ أن لديها هناك أحداً تحبه...

ثم ابتعدا عن مجال سمعي. يا لسوزان الذكية! لقد أنقذتني.

انتظرت بعض الوقت ثم خرجت أنا الأخرى من المحطة بعد أن كدت أصطدم وأنا خارجة برجل... رجل كريه المنظر ذي أنف كبير بالنسبة لوجهه.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

لم أجد صعوبة أخرى في تنفيذ خططي. وجدت فندقاً صغيراً في شارع خلفي أخذت غرفة فيه ودفعت تأميناً حيث لم تكن معي أمتعة وذهبت إلى النوم بهدوء.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت في وقت مبكر وخرجت إلى المدينة لشراء حقيبة ملابس متواضعة. كانت فكرتي أن لا أفعل شيئاً لحين مغادرة قطار الحادية عشرة إلى روديسيا وهو يحمل معظم المجموعة. لم يكن من المحتمل أن يقوم باجيت بأية أعمال شائنة قبل أن يتخلص منهم، ولذلك ركبت قطاراً إلى خارج المدينة وبدأت الاستمتاع بالمشي في المناطق الريفية. كان الجو بارداً نسبياً وقد سعدت لتمرين ساقيّ بعد الرحلة البحرية الطويلة وبعد تقييدي في مويزنبرغ.

إن كثيراً من الأمور الكبيرة تتوقف على أشياء صغيرة. ارتخى رباط حذائي ووقفت لأربطه، وكان الطريق قد انعطف في زاوية. وبينما كنت منحنية أربط حذائي جاء رجل يسير وكاد يصطدم بي. رفع قبعته وهمس معتذراً ثم أكمل طريقه، وقد خطر لي في ذلك الوقت بأن وجهه كان مألوفاً بعض الشيء لديّ، ولكني لم أفكر بأكثر من ذلك في تلك اللحظة. نظرت إلى ساعتي. كان الوقت يتقدم، ودرت عائدة باتجاه كيب

تاون. وكان هناك ترام ذاهب إلى المدينة وكان عليّ أن أسرع للحاق به. سمعت وقع أقدام أخرى تجري ورائي، فقفزت إلى الترام بسرعة وكذلك فعل الذي كان يركض خلفي، وعرفته على الفور. كان نفس الرجل الذي مرّ بجانبي على الطريق عندما ارتخى رباط حذائي، وبسرعة عرفت لماذا كان وجهه مألوفاً لدي. كان ذلك هو الرجل ضئيل الجسم ذو الأنف الكبير الذي اصطدمت به عندما غادرت محطة القطارات في الليلة الماضية!

أجفلتني تلك الصدفة. أيمكن أن يكون ذلك الرجل يتبعني متعمداً؟ قررت اختبار ذلك بالسرعة الممكنة. ضغطت على الجرس ونزلت في المحطة التالية، ولم ينزل الرجل. انسحبت إلى مدخل أحد المحلات وراقبت، فترجل عند المحطة التالية وعاد يمشي باتجاهي.

وضَحَتْ القضية بما فيه الكفاية؛ كان هذا الشخص يلاحقني. لقد تسرعتُ في إصدار الحكم بغلبتي، فقد أخذ انتصاري على غاي باجيت منحى آخر. أشرتُ للترام التالي وركبته، وكما توقعت ركب ظلّي فيه أيضاً. واستسلمت لبعض التفكير الجاد.

كان واضحاً تماماً بأنني اكتشفت شيئاً أكبر من الذي كنت أعرفه. إن جريمة القتل في ذلك البيت في مارلو لم تكن حادثة معزولة ارتكبها شخص منفرد. لقد كنت أواجه عصابة، وبفضل ما كشفه الكولونيل رايس لسوزان وما سمعته في البيت في مويزنبرغ بدأت أفهم بعضاً من أعمالها المتشعبة. إنها الجريمة المنظمة، ينظمها رجل معروف بين أتباعه بأنه «الكولونيل»! تذكرت بعضاً من الحديث الذي سمعته على ظهر السفينة عن الإضراب في منطقة الراند وأسبابه، والاعتقاد بأن منظمة سرية تعمل على إثارة الاضطرابات هناك. كان ذلك هو عمل

«الكولونيل»، وكان جواسيسه يعملون وفق خطة. وقد كنت أسمع دائماً أنه لا يشارك في هذه الأعمال بنفسه، حيث حدّد لنفسه القيام بأعمال التوجيه والتنظيم. كان محدداً له أن يكون العقل المفكر ولا يقوم بالأعمال التنفيذية الخطيرة. ولكن -مع ذلك- ربما كان موجوداً في المكان يدير الأمور من موقع أمين.

كان ذلك -إذن- هو معنى وجود الكولونيل رايس على ظهر السفينة قلعة كيلموردن. لقد خرج وراء المجرم الرئيس. كل شيء كان ينسجم مع ذلك الافتراض؛ كان شخصاً ذا منصب رفيع في المخابرات وعمله هو اعتقال الكولونيل.

أومأت برأسي وأنا أحدث نفسي... كانت الأمور تَضِح لي كثيراً. ماذا عن دوري في هذه المسألة؟ ما علاقتي بالموضوع؟ هل كانوا يجرون وراء الألماس فقط؟ هززت رأسي بالنفي؛ فكائناً ما كانت قيمة الألماس فهي لا تبرر المحاولات اليائسة التي جرت للتخلص مني. كلا، إنني أرمز لشيء أكثر من هذا. لقد كنت أمثل تهديداً أو خطراً عليهم وذلك على نحوٍ لا أدري أنا كُنهه! لقد جعلتُهم معلومة أعرفها (أو يظنون أنني أعرفها) حريصين كل الحرص على إزاحتي عن الطريق مهما كان الثمن... وكانت تلك المعلومة مرتبطة بالألماس بشكل أو بآخر. أحسست بالثقة في أن شخصاً واحداً يمكن أن يرشدني... إذا أراد! إنه «الرجل ذو البدلة البنية»... هاري رايبرن. كان يعرف النصف الآخر من الحكاية، لكنه اختفى في الظلام! كان شخصاً ملاحَقاً فاراً من الشّباك التي نُصبت له، والأغلب أنني لن ألتقي به ثانية أبداً.

عدت أفكر في أحداث الساعة. لن يفيد التفكير العاطفي الساذج في هاري رايبرن. لقد أظهر كراهيته نحوي منذ البداية. أو أنه على

الأقل... ها قد عدتُ أحلم! المشكلة الحقيقية هي: ما العمل... الآن؟

أنا التي كنت أتفاخر بدوري كمراقِبة أصبحت مراقَبةً الآن، وقد كنت خائفة! لأول مرة بدأت أفقد أعصابي. لقد كنتُ حبةَ الرمل الصغيرة التي تُعيق العمل السلس للآلة الكبيرة... وخُيِّلَ إليّ أن الآلة الكبيرة ستتعامل مع الحبّات الصغيرة بكل سرعة وحزم. مرة أنقذني هاري رايبرن ومرة أنقذت نفسي، ولكنني أحسست فجأة بأن الاحتمالات كانت ضدي تماماً. كان أعدائي يلتفون جميعهم حولي في كل اتجاه وكانوا يقتربون مني، وإذا مضيت في القيام بهذا العمل وحيدة فسوف أهلك.

بذلتُ جهداً لأستجمع قواي، فماذا يمكنهم أن يفعلوا في نهاية الأمر؟ إنني في مدينة متحضرة... يتتشر فيها رجال الشرطة في كل شبر. سأكون حذرة في المستقبل. يجب أن لا يوقعوني في فخهم مرة أخرى كما حدث في مويزنبرغ.

وعندما وصلت إلى هذه النقطة في تفكيري وصل الترام إلى شارع أدرلي، فخرجت منه ومشيت ببطء على الجانب الأيسر من الشارع لا أعرف ماذا أفعل. لم أكلِّف نفسي عناء النظر إن كان مطاردي ورائي أم لا؛ فقد كنت أعرف أنه يتبعني. دخلت مطعم كارترايت وطلبت كأسين من المثلجات لتهدئة أعصابي. أكملتُ الأول منهما باستمتاع كبير، وكان السائل البارد يقطر داخل حنجرتي وأنا أتلذذ به. دفعت الكأس الأول جانباً فارغاً.

كنت أجلس على أحد المقاعد العالية ورأيت بطرف عيني متعقبي وهو يدخل ويجلس بشكل ظاهر على طاولة صغيرة قرب الباب. وأنهيت الكأس الثاني وطلبت كأساً ثالثاً. إنني أستطيع -في الواقع- شرب عددٍ

غير محدد من كؤوس المثلجات!

وفجأة نهض الرجل الجالس قرب الباب وخرج، وقد أدهشني ذلك. إن كان يريد الانتظار في الخارج فلماذا لم ينتظر في الخارج من البداية؟ نزلت عن الكرسي وذهبت إلى الباب بحذر، ثم تراجعت بسرعة إلى الوراء؛ فقد كان الرجل يتحدث مع غاي باجيت.

ولئن كانت عندي أية شكوك من قبل فقد كان من شأن ذلك أن يؤكدها. أخرج باجيت ساعته من جيبه ونظر إليها، وتبادلا بعض الكلمات المختصرة ثم دار السكرتير بسرعة وتوجه نحو المحطة. واضحٌ أنه أعطى أوامره، ولكن ماذا كانت؟

وفجأة قفز قلبي من الخوف، فقد عبر الرجل الذي تبعني إلى وسط الشارع وتكلم مع الشرطي. تكلم معه مطولاً وكان يشير بيده نحو مطعم كارترايت، وواضحٌ أنه كان يشرح له شيئاً. فهمت الخطة على الفور؛ كانوا يريدون من الشرطة اعتقالي بتهمة أو بأخرى... ربما بتهمة النشل. كان سهلاً على العصابة أن تقوم بمثل هذا العمل البسيط، وماذا ينفع التأكيد على براءتي؟ لا شك أنهم سيكونون قد رتبوا جميع التفاصيل، فقبل وقت طويل لفقوا تهمة عن سرقة شركة دي بيرس ضد هاري رايبرن وفشل في نفيها. ما هي الفرصة التي عندي للنجاة من مكيدة كهذه يدبرها «الكولونيل»؟

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط وعلى الفور خطر لي مظهر آخر من مظاهر القضية؛ وفهمت مغزى نظر غاي باجيت إلى ساعته. كانت الساعة الحادية عشرة، وفي هذه الساعة يغادر قطار البريد إلى روديسيا يحمل معه الأصدقاء المتنفذين الذين ربما كانوا سيهبون

لنجدتي. كان ذلك هو سبب حصانتي حتى الآن؛ فمنذ الليلة الماضية وحتى الحادية عشرة من صباح هذا اليوم كنت آمنة، أمّا الآن فإن الشُّباك تقترب مني لتصيدني.

أسرعت وفتحت حقيبتي ثم دفعت ثمن الشراب، وبينما كنت أفعل ذلك بدا أن قلبي قد توقف؛ لأنني رأيت داخل الحقيبة محفظة رجل مكدسة بالنقود! لا بد أنه قد أدخلها في حقيبتي بخفة عندما كنت أغادر الترام.

وعلى الفور فقدت أعصابي. أسرعت خارج المطعم، وكان الرجل الصغير صاحب الأنف الكبير يقطع الشارع مع الشرطي. رآني الرجلان وأشار الرجل الصغير إليّ بانفعال، فأطلقت ساقيّ للريح. رأيت أنه شرطي بطيء ولا بد أن أسبقه بمسافة، ولكن لم تكن عندي خطة وقتها. ركضت إلى شارع أدرلي طلباً للنجاة فقط، وبدأ الناس ينظرون إلي. أحسست أن واحداً منهم قد يوقفني خلال دقيقة.

خطرت لي فكرة فسألت لاهثة: المحطة؟

- إنها باتجاه اليمين.

أسرعت في ذلك الاتجاه؛ فالركض للّحاق بالقطار أمر مألوف. دخلت إلى المحطة، ولكن بينما كنت أدخل سمعت وقع أقدام قريبة من ورائي. لقد كان الرجل الصغير صاحبُ الأنف الكبير بطلَ عدو، وتكهنت بأنه سيوقفني قبل أن أصل إلى الرصيف الذي كنت أبحث عنه. رفعت بصري إلى الساعة المعلقة... الحادية عشرة إلاّ دقيقة واحدة. قد أستطيع فعل ذلك إذا نجحت خطتي.

كنت قد دخلت محطة القطارات من البوابة الرئيسة في شارع أدرلي، أمّا الآن فقد خرجت ثانية من مخرج جانبي، وكان أمامي مباشرة المدخل الجانبي لمكتب البريد حيث بوابته الرئيسة تطل على شارع أدرلي.

وكما توقعت، فإن متابعي كان قد خرج إلى الشارع ليقطع عليّ الطريق عندما أخرج بدلاً من أن يتبعني إلى الداخل، أو لكي يطلب من رجل الشرطة اعتقالي. وعلى الفور تسللت وعبرت الشارع ثانية وعدت إلى المحطة. كنت أركض كالمجنونة، وكانت الساعة الحادية عشرة تماماً. كان القطار الطويل يتحرك عندما ظهرتُ على الرصيف، وحاول أحد الحمالين وقفي، لكنني تخلصت من قبضته وقفزت على موطئ العربة. وصعدت الدرجتين وفتحت الباب. لقد أصبحت آمنة؛ فالقطار كان يتحرك بعيداً!

مرّ القطار أمام رجل يقف وحيداً عند طرف الرصيف، ولوحت له بيدي قائلة: "وداعاً يا سيد باجيت". لم أرَ في حياتي رجلاً يصاب بالذهول مثله؛ كان يبدو وكأنه قد رأى شبحاً.

وبعد قليل كنت أواجه المتاعب مع مفتش التذاكر، لكنني تكلمت معه بنبرة متشامخة. قلت بغطرسة: أنا سكرتيرة السير يوستيس بيدلار؛ أرجو أن تأخذني إلى عربته الخاصة.

كانت سوزان تقف مع الكولونيل رايس على المنصة الخلفية للقطار، وعندما رآني الاثنان صاحا بدهشة.

صاح الكولونيل رايس: مرحباً آنسة آن، من أين جئت؟ ظننت أنك ذهبت إلى دريان. يا لك من شخص غير مُتوقَّع!

لم تقل سوزان شيئاً، لكني رأيت في عينيها مئة سؤال.

قلت بأسلوب رسمي: يجب أن أبلغ رئيسي بحضوري. أين هو؟

- إنه في المكتب... في المقصورة الوسطى... يملي على الآنسة بيتيغرو البائسة عدداً لا يصدق من الرسائل.

علّقتُ قائلة: إن هذه الحماسة للعمل تُعدّ شيئاً جديداً.

قال الكولونيل رايس: أعتقد أن فكرته هي إعطاؤها عملاً يكفي لحجزها مع آلة الطباعة في مقصورتها بقية اليوم.

ضحكت. ثم ذهبتُ أبحث عن السير يوستيس وكان الاثنان الآخران يتبعانني. كان يجوب المقصورة ذهاباً وإياباً في مساحة ضيقة ويلقي بسيل من الكلمات على السكرتيرة البائسة التي أراها الآن لأول مرة. كانت امرأة طويلة وقوية الجسم تلبس ثوباً بنياً باهتاً ونظارة وتبدو عليها ملامح الاقتدار. أدركت أنها كانت تجد صعوبة في متابعة السير يوستيس لأن قلم الرصاص الذي كان معها كان يطير من السرعة وكانت تعبس عبوساً شديداً.

دخلت المقصورة وقلت: لقد صعدت القطار يا سيدي.

وقف السير يوستيس في وسط الجملة المعقدة التي كان يمليها حول وضع سوق العمل وحدّق إلي. لا بد أن الآنسة بيتيغرو كانت من النوع العصبي رغم ملامح الاقتدار عليها، فقد جفلت وكأن رصاصة أُطلقت عليها.

صاح بانفعال: "كيف وصلتِ إلى هنا؟!". ثم سعلت الآنسة بيتيغرو فسحب يده بسرعة وقال: آه، نعم. إلى أين وصلنا؟ نعم... إن تيلمان

روس في خطابه في... ما الأمر؟ لماذا لا تكتبين هذا؟

قال الكولونيل رايس بلطف: أحسب أن الآنسة بيتيغرو قد كسرت قلمها.

أخذه منها وبراه، وحدّق السير يوستيس وكذلك أنا. كان في نبرة الكولونيل رايس شيء لم أفهمه تماماً.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

(من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

إنني أميل إلى التخلي عن يومياتي، وبدلاً من ذلك سأكتب مقالاً قصيراً بعنوان «مصيبتي مع كل سكرتير». وبالنسبة لهذا الأمر يبدو أنني أصبت بآفة، إذ تجدني في لحظة دون أي سكرتير، ثم لا تلبث أن ترى في لحظة أخرى أن لديّ الكثير منهم. وفي الوقت الحالي فإنني مسافر إلى روديسيا مع مجموعة من النساء، وبالطبع فإن رايس يخرج مع المرأتين الجميلتين ويتركني مع المرأة البلوى. هذا ما يحدث معي دائماً... وفوق ذلك فإن هذه عربتي الخاصة وليست عربة رايس.

كما أن آن بيدنغفيلد تصاحبني إلى روديسيا على أنها سكرتيرتي المؤقتة، لكنها كانت طوال عصر هذا اليوم في الخارج على المنصة الخلفية مع رايس تنظر بإعجاب إلى جمال ممر نهر هيكس. صحيح أنني أخبرتها بأن عملها الأساسي سيكون الإمساك بيدي، ولكنها لا تفعل حتى ذلك. قد تكون خائفة من الآنسة بيتيغرو، وإن كانت كذلك فلا ألومها؛ فلا شيء جذاب في الآنسة بيتيغرو... إنها امرأة منفرة بقدمين كبيرتين تشبه الرجل أكثر من المرأة.

يوجد شيء غامض في آن بيدنغفيلد. كانت قد قفزت إلى داخل القطار في آخر دقيقة وهي تنفخ لاهثة كأنها محرك بخاري، وكأنها كانت تعدو في سباق... ومع ذلك فقد أخبرني باجيت بأنه ودعها إلى دربان الليلة الماضية! إمّا أن باجيت عاد للشرب ثانية أو أن للفتاة جسداً يتناسخ.

كما أنها لا تشرح شيئاً أبداً... لا أحد يشرح شيئاً. نعم: «مصيبتي مع كل سكرتير». رقم ١ قاتل هارب من العدالة، ورقم ٢ شارب خمر غامض يقوم بدسائس مشينة في إيطاليا، ورقم ٣ فتاة جميلة تمتلك موهبة مفيدة في القدرة على الحضور في مكانين في آن واحد، ورقم ٤ الآنسة بيتيغرو التي لا شك أنها محتالة خطيرة متخفية! قد تكون واحدة من صديقات باجيت الإيطاليات فرضها عليّ. لن أتعجب إذا ما وجد الناس كلهم أن باجيت قد خدعهم جميعاً! وبصورة عامة أعتقد بأن رايبرن كان أفضل المجموعة؛ فهو لم يكن يزعجني أبداً أو يريني وجهه. لقد كان لباجيت من الوقاحة ما جعله يضع صندوق القرطاسية هنا، ولا أحد منّا يستطيع الحركة دون أن يتعرقل به.

خرجت إلى منصة القطار الخلفية متوقعاً أن يتلقاني أولئك الواقفون عليها بعبارات الترحيب، وكانت المرأتان تصغيان مفتونتين لإحدى الحكايات عن أسفار رايس. لن أسمي هذه العربة عربة «السير يوستيس بيدلار ومجموعته» بل عربة «الكولونيل رايس وحريمه».

ثم لا بد أن تأخذ السيدة بلير صوراً سخيفة. كانت تلتقط صوراً للقطار كلما انعطفنا عند منحنى مرعب ونحن نرتفع أعلى وأعلى. صاحت مبتهجة: هل تدركون المغزى؟ إن كنت تريد تصوير الجزء الأمامي من القطار وأنت في المؤخرة فيجب أن يكون ذلك عند أحد

المنعطفات، وعندما يكون الجبل في خلفية الصورة سيبدو المنظر خطيراً للغاية.

أوضحتُ لها بأن أحداً لا يمكن أن يعرف بأنها أُخذت من مؤخرة القطار، فنظرت مشفقة وقالت: سوف أكتب أسفلها "أُخذت من القطار وهو يدور حول المنعطف".

قلت: يمكنك أن تكتبي هذا تحت أية صورة لقطار.

إن النساء لا يفكرن أبداً بهذه الأمور البسيطة!

صاحت آن بيدنغفيلد: إنني مسرورة لأننا مررنا من هنا في وضح النهار. ما كنت سأرى هذا المنظر لو أنني ذهبت ليلة الأمس إلى دربان، أليس كذلك؟

قال الكولونيل رايس مبتسماً: نعم، كنتِ ستستيقظين من نومك صباح الغد لتجدي نفسك في صحراء كارو، وهي صحراء حارة مُغبرَّة كلها حجارة وصخور.

قالت آن وهي تتنهد وتنظر حولها مسرورة: إنني سعيدة لأنني غيرت رأيي.

كان منظراً رائعاً. الجبال الشاهقة حولنا، ونحن نلف وندور حولها ونصعد إلى أعلى الجبل بثبات. وسألَتْ آن بيدنغفيلد: أهذا أفضل قطار يذهب إلى روديسيا في النهار؟

ضحك رايس وقال: في النهار؟ يا عزيزتي، توجد ثلاثة قطارات في الأسبوع فقط؛ أيام السبت والاثنين والأربعاء. أتعلمين أنك لن تصلي إلى الشلاّلات إلاّ يوم السبت القادم؟

قالت السيدة بلير بخبث: عندها سيكون-قد عرف بعضنا بعضاً معرفة جيدة. كم يوماً ستبقى في منطقة الشلالات يا سير يوستيس؟

قلت بحذر: هذا يعتمد؟

- على ماذا؟

- على كيفية سير الأمور في جوهانسبرغ. كانت فكرتي الأولى الإقامة لمدة يومين في الشلالات التي لم أرها من قبل، رغم أن هذه هي زيارتي الثالثة إلى أفريقيا... ثم أذهب إلى جوهانسبرغ لأدرس وضع الأمور في الراند. إنني في إنكلترا أُعدّ مرجعاً في سياسة جنوب أفريقيا، ولكن -من كل الذي سمعته- فإن جوهانسبرغ بالتحديد ستكون مكاناً غير صالح للزيارة بعد نحو أسبوع. لا أريد دراسة الأوضاع وسط ثورة عاصفة.

ابتسم رايس بشيء من التعالي وقال: أظن أنك تبالغ في مخاوفك يا سير يوستيس؛ فلن يكون في جوهانسبرغ أي خطر كبير.

نظرت المرأتان فوراً إليه بإعجاب كأنه بطل مظفر. وقد ضايقني ذلك كثيراً؛ فأنا لا أقل بطولة عن رايس... ولكن ينقصني الجسم المناسب. إن هؤلاء الرجال الطوال الناحلين ذوي البشرة المسفوعة يحصلون على كل شيء كما يريدون! قلت ببرود: أظنك ستكون هناك.

- محتمل جداً... قد نسافر معاً.

أجبته مبتعداً عن أي التزام: لست متأكداً من أنني لن أمكث في الشلالات طويلاً.

لماذا يحرص رايس كل هذا الحرص على ذهابي إلى جوهانسبرغ؟ أظن أن عينه على آن. قلت: ما هي خططك يا آنسة آن؟

أجابت: هذا يعتمد.

عارضتها: كنت أحسبك سكرتيرتي.

- آه، ولكن تم استبعادي. لقد كنتَ تمسك يد الآنسة بيتيغرو طوال العصر.

طمأنتها قائلاً: بوسعك القول إنني كنت أفعل أي شيء إلاّ هذا.

* * *

الخميس ليلاً:

لقد غادرنا كيمبرلي لتونا، وقد طُلب من رايس أن يحكَي قصة سرقة الألماس مرة أخرى. لماذا تشعر النساء بإثارة لذكر أي شيء له علاقة بالألماس؟

لقد كشفت آن بيدنغفيلد عن لغزها أخيراً. يبدو أنها مراسلة لصحيفة؛ فقد أرسلت برقية كبيرة هذا الصباح من دي آر. وإذا كان لي أن أحكم من خلال الثرثرة التي جرت في مقصورة السيدة بلير طول الليل تقريباً فلا بد أنها كانت تقرأ بصوت مرتفع جميع المقالات الخاصة التي ستنشرها لسنوات قادمة.

يبدو أنها كانت تتعقب من البداية آثار «الرجل ذي البدلة البنية»، وواضحٌ أنها لم تعرفه على الباخرة كيلموردن (وفي الواقع لم تتح لها الفرصة)، وهي الآن مشغولة جداً في إرسال البرقيات إلى الوطن: "كيف

خرجت في رحلة مع القاتل"، وتخترع قصصاً خيالية من طراز: "ماذا قال لي"، إلخ. (أنا أعرف كيف يتم عمل هذه الأشياء؛ فأنا سأفعلها بنفسي في اليوميات التي سأكتبها عندما يتركني باجيت). وبالطبع سيقوم واحد من المحررين القديرين في صحيفة الديلي بدجيت بزيادة زركشة التفاصيل أكثر حتى إذا ما نُشرت فلن يعرف رايبرنُ نفسَه.

ومع ذلك فإن الفتاة ذكية. من الواضح أنها استكشفت بمفردها هوية المرأة التي قتلت في بيتي؛ وكانت ممثلة روسية تدعى ناديتا. سألتُ آن بيدنغفيلد إن كانت متأكدة من هذا، وردّت عليّ بأن هذا مجرد استنتاج... على طريقة شيرلوك هولمز تماماً (ومع ذلك أعتقد أنها نُقلت للصحيفة في بريطانيا على أنها حقيقة ثابتة!). إن النساء يمتلكن مثل هذا النوع من الحدس... لا أشك في أن آن بيدنغفيلد مصيبة تماماً في تخمينها، ولكن من السخافة أن تسمي ذلك استنتاجاً.

لا أستطيع أن أتخيل كيف وصلتْ حتى أصبحت ضمن هيئة تحرير صحيفة الديلي بَدجيت، ولكنها شابة من النوع الذي يستطيع فعل مثل هذه الأمور. من المستحيل مقاومتها؛ فهي مليئة بالأساليب المتملقة التي تخفي تحتها عزيمة لا تقهر. انظر كيف دخلت إلى عربتي الخاصة!

بدأت أفهم السبب. لقد قال رايس شيئاً عن ارتياب الشرطة بأن رايبرن قد ذهب إلى روديسيا، وربما ذهب إلى هناك بقطار الإثنين. أظن أنهم أرسلوا برقيات إلى جميع المحطات ولم يعثروا على أحدٍ بصفاته، لكن هذا لا يعني الكثير. إنه شاب داهية ويعرف أفريقيا، وربما كان متخفياً بطريقة متقنة بهيئة خادمة عجوز... بينما كان الشرطة الساذجون يواصلون بحثهم عن شاب وسيم في وجهه أثر جرح يلبس ملابس أوروبية. لم أستوعب موضوع أثر الجرح هذا على الإطلاق.

على أية حال فإن آن بيدنغفيلد تتعقبه، وهي تريد مجد اكتشافه لنفسها ولصحيفة الديلي بدجيت. إن الفتيات هادئات الأعصاب كثيراً هذه الأيام. ألمحتُ لها بأن ذلك عمل يتنافى مع طبيعة المرأة فضحكت مني وطمأنتني بأن قدرها أن تبقى تطارده، ومع ذلك كنت أستطيع أن أرى بأن رايس لم يحب ذلك هو الآخر. قد يكون رايبرن في هذا القطار، وإن كان كذلك فربما يقتلنا جميعاً ونحن في أسرّتنا. ذكرت هذا للسيدة بلير، ولكن بدا أنها ترحب بالفكرة، وقالت بأنني إن قُتلت فسيكون هذا عنواناً مثيراً تستفيد منه آن! ها، عنوان مثير لآن!

سنسير غداً خلال منطقة بيشوانالاند وسيكون الغبار مروعاً، كما أن الصبية الصغار سيأتون إلى كل محطة ليبيعوك تماثيل خشبية لحيوانات صنعوها بأنفسهم، وأيضاً عرانيس الذرة والسلال. أخشى أن تندفع السيدة بلير إلى الشارع كالمجنونة؛ ففي تلك اللُّعب سحرٌ طبيعي أشعر بأنه سيعجبها.

* * *

مساء الجمعة:

كما كنت أخشى؛ لقد اشترت السيدة بلير وآن تسعة وأربعين تمثالاً خشبياً لحيوانات!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

(آن تتابع روايتها)

استمتعت كثيراً بالرحلة إلى روديسيا. كنت أرى كل يوم شيئاً جديداً ومثيراً: المنظر الرائع لوادي نهر هيكس، ثم عظمة صحراء كارو المقفرة، وأخيراً ذلك الخط الرائع الممتد في بيشوانالاند، وتلك اللعب الفاتنة التي يبيعها المواطنون. كنت مع سوزان نتخلف عند كل محطة متواضعة يتوقف فيها القطار، وفي كل مرة كان القطار على وشك التحرك من دوننا. كان يبدو لي أن القطار كان يتوقف متى شاء، وحالما يتوقف كانت مجاميع المواطنين تتكدس عند المحطة الخاوية وهم يحملون معهم عرانيس الذرة وقصب السكر وعباءات الفراء وتماثيل حيوانات خشبية جميلة. بدأت سوزان على الفور في تجميع عدد من هذه الأخيرة، وسرت على منوالها... ومعظمها كانت قيمته «تيكي» (ثلاثة بنسات) وكان كل واحد مختلفاً عن الآخر؛ فمنها تماثيل لزرافات ولنمور وأفاعٍ وحيوان العلند الكئيب وأشكال سخيفة أخرى لمحاربين سود. لقد استمتعنا أيما استمتاع.

حاول السير يوستيس أن يمنعنا... ولكن عبثاً. ما زلت أحسب أنها كانت معجزة أن القطار لم يتركنا عند إحدى المحطات على الخط.

إن قطارات جنوب أفريقيا لا تصفر أو تزمجر عندما تريد التحرك ثانية، بل إن القطار ينسلّ مبتعداً بهدوء وترفع بصرك وأنت تشتري ثم تركض للّحاق به.

يمكنني تخيل ذهول سوزان عندما رأتني أتسلق القطار في كيب تاون. وقد أجرينا دراسة موسعة للوضع في الليلة الأولى لسفرنا، وتحدثنا نصف الليل.

لقد أصبح واضحاً لي ضرورة القيام ببعض التكتيكات الدفاعية بالإضافة إلى الهجومية؛ فقد كنت آمنة تماماً وأنا مسافرة مع السير يوستيس بيدلار وجماعته. كان هو والكولونيل رايس حاميين قويين، وقد رأيت أن أعدائي لن يرغبوا في إثارة عش زنابير كهذا. كما أنني كنت على صلة بغاي باجيت إلى حد ما، ما دمت قريبة من السير يوستيس... وكان غاي باجيت هو قلب اللغز. سألت سوزان إن كانت ترى بأن باجيت يمكن أن يكون هو «الكولونيل» الغامض. إن موقعه كسكرتير تابع كان -بالطبع- عكس هذا الافتراض، ولكني رأيت مرة أو مرتين أن السير يوستيس -رغم كل أساليبه الاستبدادية- كان متأثراً كثيراً بسكرتيره. كان السير يوستيس رجلاً طيّعاً بإمكان سكرتير حاذق أن يديره كيف يشاء، وقد يكون الغموض النسبي لوضعه مفيداً له في الحقيقة لأنه سيكون حريصاً على البقاء بعيداً عن الأضواء.

إلاّ أن سوزان نفت هذه الأفكار نفياً قوياً. رفضت الاعتقاد بأن غاي باجيت هو العقل المدبر، وقالت إن الرأس الحقيقي... «الكولونيل»، كان رجلاً في مكان ما خلف الأضواء، بل وربما كان أصلاً في أفريقيا قبل وصولنا.

وافقتها على وجود الكثير مما يؤيد وجهة نظرها، ولكني لم أكن

مقتنعة تماماً؛ ففي كل موقف مشبوه كان يظهر باجيت كعقلٍ مُدبِّر. صحيح أن شخصيته كان ينقصها الحزم والعزم اللذان يتوقعهما المرء من زعيم مجرم، ولكن هذا الزعيم الغامض -كما قال الكولونيل رايس- لم يكن دوره يتعدى التفكير فقط، والعقلية الإبداعية ترتبط في الغالب بشخص ذي بنية ضعيفة جبانة.

قاطعتني سوزان عندما وصلتُ إلى هذه النقطة في النقاش قائلة: إن ابنة البروفسور هي التي تتكلم هنا.

قلت: "ومع ذلك فهذا صحيح". وسكتّ بعض الوقت ثم أكملت: ليتني أعرف كيف يكوّن السير يوستيس ثروته!

- هل تشكّين فيه ثانية؟

- سوزان، إنني في وضع لا أملك فيه إلاّ الشك في أي شخص! أنا لا أشك به حقاً... ولكنه -في نهاية الأمر- رئيس باجيت بالفعل، وهو يملك فعلاً بيت ميل هاوس.

قالت سوزان متأملة: كنت أسمع دائماً بأنه جمع ثروته بطريقة لا يرغب كثيراً بالحديث عنها، لكن هذا لا يعني بالضرورة جريمة... قد يكون جمعها من المسامير الصغيرة أو من أدوية معالجة الصلع!

وافقتها على مضض، فقالت بارتياب: أتحسبين أننا نسير في الاتجاه الصحيح؟ أعني: ألا يمكن أن نكون قد ضُلّلنا تماماً عندما افترضنا مشاركة باجيت في الجريمة؟ ماذا لو كان رجلاً شريفاً تماماً؟

فكرت بهذا بعض الوقت ثم هززت رأسي وقلت: لا أستطيع تصديق ذلك.

- لقد كانت له تفسيراته الخاصة لكل شيء.

- نـ...نعم، لكنها غير مقنعة كثيراً. على سبيل المثال، الليلة التي حاول فيها إلقائي من فوق السفينة كيلموردن، إنه يقول بأنه تبع رايبرن إلى ظهر المركب وأن رايبرن صرعه أرضاً، ونحن نعرف أن هذا ليس صحيحاً.

قالت سوزان كارهة: نعم، ولكننا سمعنا القصة كرواية غير مباشرة من السير يوستيس فقط. لو أننا سمعناها من باجيت مباشرة فربما كانت مختلفة. أنت تعرفين كيف يخطئ الناس في رواية قصة عندما يكررونها.

فكرت في هذا الأمر ملياً، ثم قلت أخيراً: لا، لا أرى له مخرجاً؛ إن باجيت مذنب. لا يمكنك أن تتجاهلي حقيقة أنه حاول إلقائي عن ظهر المركب، كما أن كل الحقائق الأخرى تنسجم مع ذلك. لماذا تصرين كثيراً على فكرتك الجديدة هذه؟

- بسبب وجهه.

- وجهه؟ ولكن...

- نعم، أعرف ماذا ستقولين. إنه وجه شرير... هذا ما يبدو، ولكن الشكل لا علاقة له بالجوهر في الحقيقة.

لم أقتنع كثيراً بجدل سوزان، وانتقلنا إلى مناقشة خططنا الفورية. كان واضحاً لي ضرورة اتخاذ موقف ما، فلا أستطيع الاستمرار في تجنب إعطاء تفسيرات إلى الأبد. إن حل جميع الصعوبات التي تواجهني موجود عندي، رغم أنني لم أفكر فيه لوقت طويل... صحيفة

الديلي بدجيت! إن صمتي أو كلامي لم يعد يؤثر على هاري رايبرن؛ فلقد وُصم بأنه «الرجل ذو البدلة البنية»، ولم يكن ذلك خطئي أنا. أستطيع مساعدته بطريقة أفضل عن طريق التظاهر بأنني ضده. يجب أن لا يكون عند «الكولونيل» وعصابته أي اشتباه بوجود أي مشاعر من الود بيني وبين الرجل الذي اختاروا جعله كبش فداء لجريمة القتل التي حدثت في مارلو، وحسب معرفتي فإن المرأة التي قُتلت هناك ما زالت مجهولة الهوية، وسوف أبرق للّورد ناسبي وأخبره بأنها ليست سوى الممثلة الروسية المشهورة «نادينا» التي كانت تمتع باريس بفنها منذ وقت طويل. لم أكن أصدق أنهم لم يتعرفوا إلى جثتها إلى الآن، ولكن عندما علمت أكثر عن القضية -بعد ذلك بوقت طويل- أدركت كم كان الأمر طبيعياً.

لم تذهب نادينا إلى إنكلترا أبداً أثناء حياتها المهنية الناجحة في باريس. كانت غير معروفة لدى الجمهور الإنكليزي في لندن، وكانت الصور التي نشرتها الصحف عن ضحية مارلو غير واضحة ولا يمكن التعرف على صاحبتها، ولذلك لا عجب إن لم يكن قد تعرف عليها أحد. ومن ناحية أخرى فقد أبقت نادينا نيتها في زيارة إنكلترا سراً دفيناً ولم تخبر أحداً به، وقد استلم مدير أعمالها رسالة في اليوم التالي للجريمة تبدو كأنها منها تقول فيها بأنها ستعود إلى روسيا بسبب بعض الشؤون الخاصة وأنه يجب أن يعالج موضوع مخالفة العقود بأفضل ما يستطيع.

وأنا لم أعلم بهذا كله طبعاً إلاّ فيما بعد، ومع استحسان سوزان لهذه الفكرة أرسلتُ برقية طويلة من دي آر، وقد وصلتْ في لحظة سيكولوجية حاسمة (وهذا أيضاً علمته بالطبع فيما بعد). كانت الديلي بدجيت في حاجة ماسة إلى أنباء مثيرة، وقد تم التأكد من تخميني

فثبتت صحته، وأحرزت الديلي بدجيت قصب سبق لا يحدث إلاّ نادراً.
"ضحية بيت ميل هاوس تم التعرف عليها بواسطة مراسلتنا الخاصة"...
"مراسلتنا تسافر مع القاتل؛ الرجل ذي البدلة البنية"...

وكانت الحقائق الأساسية قد أُرسلت بالطبع إلى صحف جنوب أفريقيا، لكني قرأت مقالاتي المطولة في وقت متأخر! وقد تلقيت استحساناً وتعليمات كاملة عن طريق برقية في بولاوايو. لقد عُيّنتُ في هيئة تحرير الديلي بدجيت، وقد أرسل إليّ اللورد ناسبي تهنئة خاصة. وقد أُسنِد إليّ الفضل في تعقب القاتل، فيما كنتُ أنا (وأنا وحدي) أعلم بأن القاتل لم يكن هاري رايبرن! ولكن دع العالم يعتقد أنه هو... لأن هذا أفضل شيء في الوقت الحالي.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

وصلنا إلى بولاوايو في وقت مبكر من صباح يوم السبت، وقد خيب المكان آمالي. كان حاراً جداً وكرهت الفندق، كما أن السير يوستيس بدا هو الآخر شديد التجهم والنكد. وأحسب أن ما أزعجه هو حيواناتنا الخشبية، وخصوصاً الزرافة الكبيرة. كانت زرافة ضخمة ذات رقبة شديدة الطول وعين زائغة وذيل قصير واهن... كانت ذات شكل مميز، وكان لها سحرها، وقد وقع نزاع بخصوص مَن منا هي صاحبتها: أنا أم سوزان؛ فكل واحدة منّا ساهمت بجزء من ثمنها. وقد جادلتْ سوزان بأنها الأكبر سنّاً وأنها متزوجة، أمّا أنا فقد تمسكت بموقفي بأنني كنتُ أول من لاحظ جمال الزرافة.

في غضون ذلك يجب أن أعترف بأن هذه التماثيل قد احتلت مساحة كبيرة من مقصورتنا. إن حمل تسعة وأربعين حيواناً خشبياً بأشكالها الغريبة والكبيرة وهي مصنوعة من الخشب الهش يُعدّ مشكلة إلى حد ما، وقد أثقلنا اثنين من الحمالين حمَلَ كلٌّ منهما كومة من هذه التماثيل، وأسقط أحدهما على الفور مجموعة رائعة من النعام فكتسر رؤوسها. وبعد هذا التحذير، قمتُ مع سوزان بحمل ما نستطيعه منها وساعَدَنا في ذلك الكولونيل رايس، ووضعتُ الزرافة الكبيرة بين ذراعي السير يوستيس. وحتى الآنسة بيتيغرو المنضبطة لم تفلت من ذلك، حيث

كانت حصتها حمل فرس نهر كبير ومحاربين أسودين. لديّ إحساس بأن الآنسة بيتيغرو لا تحبني؛ ربما رأت فيّ فتاةً وقحة. على أية حال فقد كانت تتجنبني قدر استطاعتها، والغريب أن وجهها كان يبدو لي مألوفاً على نحو غامض، رغم أنني لم أستطع تحديده.

أرحنا أنفسنا معظم الصباح، واعتزمنا أن نخرج بعد الظهر بالسيارة إلى ماتوبوس لرؤية قبر روديس، ولكن السير يوستيس غيّر رأيه. كان مزاجه سيئاً جداً (كحاله في صباح اليوم الذي وصلنا فيه إلى كيب تاون عندما ألقى بحبة الخوخ على الأرض فانهرست)! واضح أن الوصول إلى أي مكان في وقت مبكر من الصباح يعكر مزاجه، وقد سبّ الحمالين، وسبّ النادل وقت الإفطار، وسبّ كل إدارة الفندق، ولا شك أنه كان يرغب بسبّ الآنسة بيتيغرو التي كانت تحوم في المكان حاملة قلمها ودفتر ملاحظاتها، ولكني لا أحسب أن بوسع أحد (حتى السير يوستيس) أن يجرؤ على شتم الآنسة بيتيغرو؛ فهي تماماً مثل أولئك السكرتيرات القديرات في الروايات. وقد أنقذتُ زرافتنا العزيزة في الوقت المناسب؛ إذ شعرت بأن السير يوستيس يوشك على تحطيمها على الأرض.

وعودة إلى حملتنا، فبعد أن غير السير يوستيس رأيه قالت الآنسة بيتيغرو إنها ستبقى في البيت خشية أن يحتاجها، وفي الدقيقة الأخيرة أرسلت سوزان رسالة تقول فيها إنها تعاني من الصداع. وهكذا ذهبت

إنه رجل غريب. لا يلاحظ المرء ذلك عندما يكون في مجموعة، ولكن عندما يكون المرء معه وحده يشعر بقوة شخصيته المسيطرة. إنه يصبح أكثر تكتماً، ومع ذلك يبدو أن صمته يقول أكثر مما يمكن أن يقول كلامُه.

كان هذا ما حدث عندما توجهنا بالسيارة إلى ماتوبوس عبر شجيرات الغابات ذات الألوان الصفراء والخضراء. بدا كل شيء صامتاً على نحو غريب... ما عدا سيارتنا، التي أحسب أنها أول سيارة فورد صنعها إنسان! كان فرشها ممزقاً على شكل شرائط، ورغم أنني لا أعرف شيئاً عن المحركات إلاّ أنني أستطيع أن أخمن بأن محركها لم يكن أحسن حالاً من فرشها.

وشيئاً فشيئاً أخذ شكل الطبيعة حولنا يتغير؛ ظهرت صخور كبيرة وقد تجمعت على هيئة أشكال غريبة، وأحسست فجأة بأنني دخلت في عصر بدائي. بدا لي للحظة أن رجال نياندرتال حقيقيون بالنسبة لي كما كانوا بالنسبة لأبي.

التفتّ إلي الكولونيل رايس وقلت حالمة: لا بد أنه كان يعيش عمالقة ذات يوم، وأطفالهم كانوا كأطفال اليوم... يلعبون بالحصى ويكومونها ثم يفككونها، وكلما استطاعوا الإبقاء عليها متوازنة كلما شعروا بالسرور أكثر. ولو كان لي أن أُطلق على هذا المكان اسماً لأسميته «بلد الأطفال العمالقة».

قال الكولونيل رايس بهدوء: ربما كنتِ أقربَ إلى الصواب ممّا تدركين، فما يميز أفريقيا هو كونها بسيطة وبدائية وكبيرة.

أومأت برأسي باستحسان وقلت: أنت تحبها، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن العيش فيها فترة طويلة يجعل الإنسان قاسياً؛ تصبح نظرة المرء إلى الحياة والموت نظرة استخفاف.

قلت وأنا أفكر في هاري رايبرن الذي كان أيضاً كذلك: نعم، ولكن أيصبح المرء قاسياً مع المخلوقات الضعيفة؟

- تختلف الآراء يا آنسة آن حول تعريف «المخلوقات الضعيفة».

كان في صوته نبرة جدية كادت تجفلني. شعرت أنني لا أعرف عن هذا الرجل الجالس بجانبي إلاّ القليل جداً. قلت: أحسب أنني كنت أقصد الأطفال والكلاب.

- أصدقك القول بأنني لم أكن قاسياً مع الأطفال أو الكلاب أبداً. إذن فأنت لا تصنفين النساء ضمن «المخلوقات الضعيفة»؟

فكرت ثم قلت: لا، لا أظنني أصنفهن كذلك... رغم أنني أظن أنهن ضعيفات بالفعل. أعني أنهن ضعيفات في أيامنا هذه، ولكن أبي كان يقول دائماً إن الرجال والنساء الأوائل كانوا يطوفون العالم معاً متساوين في القوة... كالأسود والنمور!

قاطعني الكولونيل رايس بخبث: والزرافات؟

ضحكت؛ فقد كان الجميع يسخرون من تلك الزرافة. قلت: والزرافات أيضاً!

- وهل ما يُقال صحيح؟ أقصد أن النساء يعشقن القوة؟

- أحسبه صحيحاً تماماً... إذا أردت الصدق. يظن المرء أنه معجب بالصفات المعنوية، ولكن عندما يقع في الحب فإنه يرتدّ إلى البدائية حيث القوة الجسدية هي أهم شيء. ولكني لا أؤمن بأن هذه هي النهاية. إن كنت تعيش في ظروف بدائية فإن هذا صحيح، لكنك لا تعيش في هذه الظروف... وهكذا فإن الصفات الخُلُقية، وليس الخلْقية، هي التي تنتصر في النهاية.

قال الكولونيل رايس متأملاً: في النهاية تقعين في الحب... وتخرجين منه، هل هذا ما تقصدينه؟

- ليس تماماً، ولكنك تستطيع وضع الأمر على هذا النحو إذ شئت.

- لكني لا أعتقد أنك قد خرجت من الحب يا آنسة آن؟

اعترفت صراحة: نعم، لم أخرج.

- ولا حتى وقعت في الحب؟

لم أجبه. وتوقفت السيارة عند وجهتنا المقصودة وانتهى الحديث عند ذلك. خرجنا وبدأنا الصعود البطيء لرؤية العالم. شعرت بقليل من عدم الارتياح من صحبة الكولونيل رايس، ولم تكن هذه هي المرة الأولى. لقد أخفى أفكاره جيداً وراء عينيه السوداوين اللتين لا يخترقهما شيء. أخافني قليلاً... كان دائماً يخيفني؛ فلم أعرف أبداً موطئ قدمي معه.

تسلقنا بصمت إلى أن وصلنا إلى المكان الذي يرقد فيه روديس تحرسه صخور عملاقة؛ مكان غريب مخيف بعيد عن أعين الناس يُنشِد -دون توقف- أنشودة الجمال القاسي.

جلسنا هناك صامتين لبعض الوقت، ثم نزلنا مرة أخرى، لكننا انحرفنا قليلاً عن الطريق. كانت الأرض أحياناً وعرة وقد وصلنا مرة إلى منحدر شديد أو صخرة كانت حادة الانحدار.

ذهب الكولونيل رايس أولاً ثم التفت ليساعدني وقال فجأة: "من الأفضل أن أرفعك"، ثم حملني بحركة سريعة من يده. وأحسست بقوته عندما أنزلني وأبعد قبضته عني؛ رجل حديدي بعضلات صلبة. ومرة أخرى أحسست بالخوف، وخصوصاً لأنه لم يتحرك جانباً لكنه وقف أمامي مباشرة يحدق إلى وجهي.

قال فجأة: ما الذي تفعلينه هنا يا آنسة بيدنغفيلد؟

- أنا غجرية تشاهد العالم.

- نعم، هذا صحيح. إن مراسلة الصحيفة هي مجرد غطاء. ليست فيك روح الصحفية؛ أنت خرجت على مسؤوليتك الخاصة... تحاولين الإمساك بالحياة. لكن هذا ليس كل شيء.

ما الذي يحاول حملي على إخباره به؟ كنت خائفة... خائفة. نظرت إلى وجهه مباشرة. عيناي لا يمكنهما إخفاء الأسرار مثل عينيه، لكنهما تستطيعان نقل الحرب إلى أرض العدو.

سألته عامدة: ما الذي تفعله أنت هنا يا كولونيل رايس؟

ظننتُ لبعض الوقت أنه لن يردّ علي، وبدا واضحاً أنه فوجئ بسؤالي. وفي نهاية الأمر تكلم، وبدا أن كلماته تعطيه شيئاً من السرور المتجهم: ألاحق الطموح... هذا فقط، ألاحق الطموح!

قلت ببطء: يقولون إنك في الحقيقة مرتبط مع الحكومة... وأنك في المخابرات. هل هذا صحيح؟

هل كنت متوهمة أم أنه تردد لحظة بسيطة قبل أن يجيبني؟

- أؤكد لك -يا آنسة بيدنغفيلد- بأنني هنا بصفتي الفردية المحضة كشخص يسافر لإمتاع نفسه فقط.

وعندما فكّرتُ ملياً في هذا الرد لاحقاً رأيت أنه رد غامض بعض الشيء، ولعله قصد أن يكون هكذا.

عدنا إلى السيارة بصمت، وركبنا وانطلقنا وكلٌّ منا غارق في

أفكاره. وفجأة، ولشدة دهشتي، أمسك بيدي وقال بلطف: آن، أنا أريدك. هل تتزوجينني؟

ذهلت تماماً، ثم قلت متلعثمة: آه، لا، لا أستطيع.

- ولم لا؟

- إنني لا أهتم بك من هذا الجانب؛ لم أفكر بك أبداً بهذه الطريقة.

- فهمت. هل هذا هو السبب الوحيد؟

كان عليّ أن أكون صادقة؛ فهذا حقٌّ له علي، ولذلك قلت: لا، ليس السبب الوحيد. إنني... إنني... أهتم بشخص آخر.

قال ثانية: فهمت. وهل كان هذا صحيحاً في البداية؛ عندما رأيتك أول مرة في السفينة كيلموردن؟

- لا. حدث ذلك... بعدها.

- فهمت.

قالها للمرة الثالثة، ولكن في هذه المرة كان في صوته رنة متعمدة جعلتني ألتفت وأنظر إليه. كان وجهه أكثر تجهماً من أية مرة رأيته فيها. قلت متلعثمة: ماذا... ماذا تعني؟

نظر إليّ نظرة مسيطرة لا يُسبر غورها ثم قال: فقط... أعرف الآن ما يتوجب عليّ عمله.

جعلتني كلماته أرتعد. كان وراءها عزم لم أفهمه، وقد أخافني ذلك. ولم يقل أحدنا أي كلمة أخرى إلى أن وصلنا إلى الفندق. ذهبت

إلى سوزان مباشرة، وكانت مستلقية على السرير تقرأ ولم تكن تبدو وكأنها مصابة بالصداع على الإطلاق. قالت: هنا ترقد المتطفلة الزائدة التي لا يريدها أحد، والتي كانت سابقاً مرافقة لبقة... ماذا حدث يا عزيزتي آن؟

أحسست بأن من غير الإنصاف أن أخبرها عن الكولونيل رايس، ولكن سوزان حادة الذكاء، وأحسب أنها أدركت وجود شيء في الأمر. وقد سألتني: هل أصبتِ بنزلة برد يا آن؟ يبدو من السخف قول هذا في هذا الجو الحار، ولكنك ترتجفين.

- لا شيء. أعصاب... أو أنني أشعر بالخوف. ما زلت أشعر أن شيئاً مخيفاً سيحدث.

قالت سوزان بحزم: لا تكوني سخيفة. دعينا نتحدث عن شيء مشوّق. آن، بخصوص أحجار الألماس تلك...

- ماذا بها؟

- لست متأكدة أنها في أمان معي. لم يكن في ذلك بأس في السابق، فما كان أحد ليحسب أنها بين أغراضي، ولكن الجميع يعرفون الآن أننا صديقتان، ولذلك فسأكون موضع اشتباه أنا الأخرى.

- لا أحد يعلم أنها في بكرات الأفلام. إنه مكان رائع لإخفائها فيه، ولا أظننا سنجد مكاناً أفضل.

وافقتني بارتياب، ولكنها قالت بأننا سنناقش هذا ثانية عندما نصل إلى الشلالات.

رحل قطارنا في الساعة التاسعة. كان مزاجّ السير يوستيس ما زال سيئاً، وبدت الآنسة بيتيغرو أكثر خضوعاً. وكان الكولونيل رايس كما هو تماماً، بحيث أحسست بأنني كنت أحلم بكل ذلك الحديث الذي دار بيننا في طريق العودة.

نمت نوماً عميقاً تلك الليلة على سريري القاسي أتصارع مع الأحلام المخيفة والغامضة. ثم استيقظت وأنا أشعر بصداع، وخرجت إلى المنصة الخلفية للعربة. كان الجو منعشاً وجميلاً، وكانت الغابات المتموجة تكسو التلال في كل مكان. أحببت ذلك المكان... أحببته أكثر من أي مكان رأيته من قبل. تمنيت وقتها أن أتمكن من شراء كوخ صغير وسط الأشجار لأعيش فيه دائماً... دائماً.

وقبل الساعة الثانية والنصف ناداني الكولونيل رايس وأشار إلى ضباب رقيق على شكل باقة أزهار بيضاء كان يحوم فوق منطقة مكسوة بالأشجار، ثم قال: إنه الرذاذ المتطاير من الشلالات؛ لقد اقتربنا منها.

كنت ما زلت غارقة بذلك الإحساس بالنشوة الحالمة الذي جاءني بعد ليلتي القلقة. لقد انغرس في نفسي بقوة إحساسٌ بأنني جئت إلى موطني... موطني! ومع ذلك لم أكن قد جئت إلى هذا المكان من قبل أبداً. أم أنني قد جئت إليه في الأحلام؟!

انتقلنا من القطار إلى الفندق مشياً على الأقدام. كان الفندق مبنى كبيراً أبيض زُوِّدت نوافذه كلها بالشبك للوقاية من البعوض، ولم تكن هناك طرق ولا بيوت.

خرجنا إلى الشرفة، وما أن رأيت المشهد حتى شهقت. كانت

الشلالات هناك على بعد نصف ميل أمامنا، ولم أرَ في حياتي أي شيء بمثل هذه العظمة وهذا الجمال... ولن أراه أبداً.

قالت سوزان عندما جلسنا لتناول الغداء: آن، إنك مخبولة! لم ارك على هذه الحالة من قبل أبداً.

ثم نظرتْ إليّ نظرة استغراب، فضحكتُ وقلت: "أحقاً؟". ولكني أحسست بأن ضحكتي لم تكن طبيعية، فأضفتُ قائلة: كل ما في الأمر أنني أحببت المكان.

- الأمر أكثر من ذلك.

ظهر شيء من التجهم على وجهها... تجهم خشية وقلق.

نعم، لقد كنت سعيدة، ولكن كان لدي -فوق ذلك- إحساس غريب بأنني أنتظر شيئاً... شيئاً كان سيحدث عمّا قريب. كنت منفعلة وقلقة.

بعد أن شربنا الشاي خرجنا نتمشى ثم ركبنا عربة يدفعها رجال، سود مبتسمون على سكة القطار نزولاً باتجاه الجسر. كان منظراً رائعاً؛ الهوة الكبيرة أمامنا والماء المندفع في الأسفل، وغلالة الضباب من رذاذ الماء التي كانت تنفرج من وقت لآخر لمدة قصيرة ليظهر شلال الماء ثم تعود لتنغلق ثانية كلغز غامض. كان ذلك بالنسبة لي هو مكمن سحر الشلالات؛ طبيعتها الغامضة التي لا تُسلِّم نفسها للحواس. تعتقد دائماً بأنك سترى... ولكنك لا ترى أبداً.

عبرنا الجسر ومشينا ببطء على جانب الممر الذي كان محدداً بأحجار بيضاء على الجانبين ويلتف حول حافة الممر الضيق، وفي

النهاية وصلنا إلى فسحة كبيرة يتفرع منها -إلى-اليسار منّا- طريق ينزل إلى الهوة السحيقة.

أوضح الكولونيل رايس: إنه وادي النخيل. هل ننزل، أم نترك ذلك إلى الغد؟ سيستغرق النزول بعض الوقت، والتسلق منه ممتع.

قال السير يوستيس حازماً: سنترك هذا إلى الغد.

لقد لاحظتُ أنه لا يحب القيام بالأعمال التي تتطلب جهداً عضلياً بالغاً. وكان يتقدمنا ونحن في طريق العودة، وفيما كنّا نسير مررنا بمواطنٍ نحيلٍ يمشي ببطء وخلفه امرأة تبدو وكأنها كانت تحمل كل أغراض البيت فوق رأسها!

دمدمت سوزان قائلة: عندما أحتاج الكاميرا لا تكون معي أبداً.

قال الكولونيل رايس: هذه فرصة ستتكرر كثيراً يا سيدة بلير، فلا تحزني.

وصلنا مرة أخرى إلى الجسر، وواصل الكولونيل حديثه: هل نذهب إلى غابة قوس قزح؟ أم تخافون البلل؟

صحبته أنا وسوزان، أما السير يوستيس فقد عاد إلى الفندق. خاب أملي في غابة قوس قزح؛ فلم يكن فيها الكثير من أقواس قزح، وقد نُقعنا بالماء نقعاً، لكننا كنّا نلمح الشلالات من وقت لآخر في الجهة المقابلة لنا وأدركنا كبر حجمها. آه، أيتها الشلالات، كم أحبك وسأبقى أحبك أبداً!

عدنا إلى الفندق تماماً في الوقت الذي يسمح لنا بتغيير الملابس

قبل وجبة العشاء. يبدو أن السير يوستيس قد أخذ موقف كراهية أكيدة من الكولونيل رايس، ومازحناه (أنا وسوزان) بلطف لكننا لم نحصل على نتيجة كبيرة.

بعد العشاء انسحب إلى غرفة جلوسه وسحب معه الآنسة بيتيغرو. تحدثت وسوزان مع الكولونيل رايس لبعض الوقت، ثم أعلنت وهي تتثاءب بأنها ذاهبة إلى النوم، ولم أحب البقاء وحيدة معه ولذلك نهضت وذهبت لغرفتي.

ولكني كنت أكثر انفعالاً من أن أستطيع النوم. استلقيت على كرسي وسلّمت نفسي للأحلام، وكنت طوال الوقت أحس بأمر يقترب شيئاً فشيئاً...

سمعت أحدهم يدق على الباب فخفت. نهضت وذهبت إلى الباب، فوجدت ولداً أسود صغيراً يحمل رسالة قدمها لي. كانت مُعنونة إليّ بخطٍ لا أعرفه، وأخذتها وعدت إلى الغرفة. وقفت هناك أحملها، وفي النهاية فتحتها. كانت قصيرة جداً!

"يجب أن أراك. لا أجرؤ على المجيء إلى الفندق. هلاّ جئت إلى الفسحة القريبة من وادي النخيل؟ أرجوك أن تأتي إحياء لذكرى الغرفة رقم ١٧. الرجل الذي عرفتِه باسم هاري رايبرن".

خفق قلبي إلى حد الاختناق. إذن فقد كان هنا! آه، لقد عرفت ذلك... عرفت ذلك طوال الوقت! لقد شعرت بأنه قريب مني؛ ولقد جئت إلى مخبئه دون قصد مني.

لففت وشاحاً على رأسي ومشيت إلى الباب. يجب أن أكون حذرة؛ فهو ملاحَق ويجب أن لا يراني أحد أقابله. ذهبت إلى غرفة سوزان.

كانت تغط في نوم عميق وكنت أسمع أصوات أنفاسها المنتظمة.

السير يوستيس؟ وقفت خارج باب غرفة جلوسه. نعم، كان يملي رسائله على الآنسة بيتيغرو، وكنت أسمع صوتها الرتيب وهي تكرر وراءه: "ولذلك أغامر في القول بأنه حتى نعالج مشكلة العمال الملونين...". توقفَتْ حتى يتابع هو، وسمعتُه وهو يتفوه غاضباً بشيء.

أكملت سيري. كانت غرفة الكولونيل رايس فارغة ولم أره في الردهة، وكان هو الرجل الذي كنت أخشاه أكثر من الجميع! ومع ذلك، لا أستطيع أن أضيع مزيداً من الوقت. تسللت بسرعة خارج الفندق وسلكت الطريق المؤدي إلى الجسر.

عبرته ووقفت هناك أنتظر في الخفاء. إذا كان أحد يتبعني فسوف أراه وهو يعبر الجسر. لكن الدقائق مرت ولم يأت أحد؛ لم يكن أحد يتبعني. استدرت وسلكت الممر المؤدي إلى الفسحة، وخطوت ست خطوات أو قريباً من ذلك ثم وقفت؛ فقد سمعتُ صوت خشخشة خلفي. لا يمكن أن يكون هذا شخصاً تبعني من الفندق. إنه شخص موجود هنا أصلاً، ينتظر.

وعرفت فوراً -دون أي سبب أو منطق ما عدا الغريزة- أنني أنا المهددة. كان ذلك نفس الشعور الذي انتابني في السفينة كيلموردن تلك الليلة... غريزة مؤكدة تحذرني من الخطر.

التفتُّ إلى الوراء بحدة... لا شيء غير الصمت. تقدمت خطوة أو خطوتين، وسمعت مرة أخرى تلك الخشخشة. نظرت ورائي ثانية وأنا ما زلت أمشي، وظهر شبح رجل من خلال الظلال، وقد عرف أنني رأيته فقفز إلى الأمام يطاردني بشدة.

كان الجو أكثر ظلمة من أن أميِّز أحداً. كل ما استطعتُ تمييزه هو أنه رجل طويل وأوروبي وليس مواطناً أفريقياً، وأطلقتُ ساقيّ للريح. سمعته يخبط الأرض بقدميه ورائي فأسرعت أكثر وأنا أركز بصري على الحجارة البيضاء التي كانت توضح لي الطريق، حيث لم يكن القمر ظاهراً في تلك الليلة.

وفجأة شعرت بقدمي بأن لا شيء تحتها. وسمعت الرجل ورائي يضحك ضحكة شريرة مخيفة ترددت أصداؤها في أذني، وأنا أسقط... نزولاً... نزولاً إلى النهاية أسفل مني ببعيد.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

استعدت وعيي ببطء وألم. وعيت على ألم في رأسي وألم حاد في ذراعي الأيسر عندما حاولت الحركة، وبدا كل شيء غير حقيقي أشبه بحلم. ارتسمت أمامي كوابيس، وشعرت بأنني أسقط... أسقط ثانية. مرة بدا وجه هاري رايبرن أمامي وهو قادم لي من وسط الضباب، وكدتُ أتخيل أن ذلك حقيقي، ثم ابتعدتْ هذه الرؤى ثانية وهي تسخر مني. ومرة تذكرت شخصاً يضع كوباً بين شفتي وشربت منه. ابتسم وجه أسود في وجهي؛ وجه شيطان، وصرخت. ثم الأحلام ثانية... أحلام طويلة مشوشة كنت أبحث فيها عن هاري رايبرن لأحذره... أحذره من ماذا؟ لم أكن أعرف ذلك. ولكن كان يوجد خطر... خطر كبير... وأنا وحدي كنت أستطيع إنقاذه. ثم الظلام ثانية؛ الظلام الرحيم والنوم الحقيقي.

ثم استيقظت أخيراً من جديد. لقد انتهى الكابوس الطويل، وتذكرت كل شيء تماماً: خروجي المتسرع من الفندق لملاقاة هاري، الرجل المتخفي في الظلام، وآخر لحظة سقوط مرعبة...

لم أُقتل بفضل معجزة. أصبت بكدمات وآلام وأصبحت ضعيفة جداً، ولكنّي كنت في قيد الحياة. ولكن أين أنا؟ حركت رأسي بصعوبة ونظرت حولي. كنت في غرفة صغيرة ذات جدران خشبية خشنة، وكانت

جلود حيوانات كبيرة وأنياب مختلفة من العاج معلقة عليها. كنت مستلقية على أريكة خشنة مغطاة أيضاً بالجلود، وكانت ذراعي اليسرى ملفوفة كلها، متصلبة تؤلم. في البداية اعتقدت أنني كنت وحيدة ثم رأيت خيال رجل يجلس بيني وبين الضوء ورأسه باتجاه النافذة. كان يجلس جامداً وكأنه نُحت من خشب. كان في رأسه وشعره الأسود القصير شيء مألوف لدي، ولكني لم أجرؤ على ترك خيالي يضل بعيداً. وفجأة التفتَ وحبستُ أنفاسي. كان هاري رايبرن... هاري رايبرن بلحمه ودمه.

نهض وجاء نحوي وقال بقليل من الحرج: أتشعرين بتحسن؟

لم أستطع الرد عليه؛ وكانت الدموع تنهمر من عيني. كنت ما أزال ضعيفة، ولكني أمسكت يده بكلتا يدي. لو كان بوسعي فقط أن أموت على هذه الحال وهو يقف ينظر إلي بنظراته الجديدة تلك.

قال: "لا تبكي يا آن، أرجوك لا تبكي. أنت الآن في أمان". ثم ذهب وأحضر كوباً وقدمه لي: اشربي قليلاً من هذا الحليب.

شربت طائعة. استمر يتحدث بنبرة منخفضة ملاطفة كما لو أنه كان يخاطب طفلاً: لا تسأليني أي سؤال الآن. نامي ثانية، وستعود لك قوتك شيئاً فشيئاً. سأذهب عنك إن شئت.

قلت بإلحاح: لا... لا، لا.

قال: "إذن سأبقى". ثم أحضر كرسياً صغيراً إلى جانبي وجلس عليه. وضع يده على يدي، وبعد أن هدأتُ وارتحت ذهبت في سبات عميق مرة أخرى.

لا بد أن الوقت كان مساء عندها لكني عندما استيقظت ثانية كانت

الشمس في كبد السماء. كنت في الكوخ وحيدة، ولكن عندما تحركتُ جاءت إليّ امرأة عجوز من أهل البلد مسرعة وابتسمت لي تشجعني. أحضرت لي ماء في حوض وساعدتني في غسل وجهي ويدي، ثم أحضرت لي إناء كبيراً من الحساء فشربته حتى آخر قطرة فيه! سألتها عدة أسئلة لكنها كانت تبتسم فقط وتومئ برأسها وتتكلم لغة غريبة، ولذلك أدركت أنها لم تكن تعرف الإنكليزية.

وفجأة نهضَتْ وتراجعت إلى الوراء باحترام عندما دخل هاري رايبرن. أومأ لها لتنصرف فخرجت وتركتنا وحدنا، وابتسم لي وقال: أنت اليوم أفضل حقاً!

- نعم، لكنني ما زلت متحيرة جداً. أين أنا؟

- أنت في جزيرة صغيرة على الزامبيزي تبعد أربعة أميال تقريباً عن الشلالات.

- هل... هل يعرف أصدقائي أنني هنا؟

هز رأسه نافياً فقلت: يجب أن أبلغهم.

- كما تشائين بالطبع، ولكن لو كنت مكانك لانتظرت ريثما أصبح أقوى قليلاً.

- لماذا؟

لم يجبني على الفور ولذلك أكملت: منذ متى وأنا هنا؟

أذهلني جوابه: منذ نحو شهر.

صحت: آه! يجب أن أبلغ سوزان؛ ستكون قلقة جداً.

- من هي سوران؟

- السيدة بلير. كنت معها ومع السير يوستيس والكولونيل رايس في الفندق... ولكنك تعرف ذلك بالتأكيد؟

هز رأسه بالنفي وقال: لا أعرف أي شيء سوى أنني وجدتك عالقةً بين غصني شجرة فاقدةً الوعي وذراعك ملتوية كثيراً.

- أين كانت الشجرة؟

- على سفح الوادي السحيق. ولولا أن علقت ملابسك بالأغصان لكنتِ هويتِ وتمزقتِ شرّ ممزق.

ارتعدت خوفاً. ثم خطرت لي فكرة فقلت: أنت لم تكن تعرف أنني هناك. ما شأن الرسالة إذن؟

- أي رسالة؟

- الرسالة التي بعثتها لي تطلب مني فيها لقاءك في الفسحة.

حدّق إليّ وقال: لم أرسل أي رسالة.

شعرت بأني أحمرُّ خجلاً حتى جذور شعري، ولحسن الحظ لم يبدُ أنه لاحظ ذلك. سألته بطريقة لامبالية قدر الإمكان: وكيف حدث أن كنتَ موجوداً في المكان بمثل هذه الطريقة الرائعة؟ وماذا تفعل في هذا المنطقة أصلاً؟

قال ببساطة: أعيش هنا.

- على هذه الجزيرة؟

- نعم، جئت إلى هذا المكان بعد الحرب. أحياناً آخذ المجموعات السياحية من الفندق على قاربي، لكن الحياة هنا تكلفني قليلاً، وفي الغالب أعمل كما أشاء.

- هل تعيش هنا وحدك؟

ردّ ببرود: أؤكد لك أنني لا أتوق لرفقة الناس.

أجبته بسرعة: آسفة لأنني فرضت رفقتي عليك، ولكن يبدو أنني لم تكن لي حيلة في هذا الأمر.

ولدهشتي طرفت عيناه قليلاً وقال: أبداً؛ لقد حملتك على كتفي مثل كيس فحم وأخذتك إلى قاربي، تماماً كرجل بدائي في العصور الحجرية.

قاطعته: لكنك لم تخبرني كيف حدث أن كنت تتسكع بهذا الشكل الملائم بحيث تنجدني في الوقت المناسب؟

- لم أستطع النوم. كنت قلقاً... مضطرباً... وراودني إحساس بأن شيئاً سوف يحدث، وفي نهاية الأمر أخذت القارب وجئت إلى اليابسة وتسكعت في اتجاه الشلالات، وكنت عند رأس وادي النخيل عندما سمعتك تصرخين.

- لماذا لم تطلب المساعدة من الفندق بدلاً من نقلي كل هذه المسافة إلى هنا؟

احمرّ وجهه وقال: أحسب أن ذلك يبدو لك تطاولاً مني لا يُغتفر... ولكني لا أظنك تدركين -حتى هذه اللحظة- مبلغ الخطر المحدق بك! أتعتقدين أنه كان عليّ أن أخبر أصدقائك؟ يا للطف هؤلاء الأصدقاء

الذين سمحوا لك بالوقوع في الشرك القاتل! لا، كنت واثقاً في نفسي بأنني أستطيع العناية بك أكثر من أي شخص آخر. لا يأتي أحد إلى هذه الجزيرة على الإطلاق، وعندي العجوز باتاني التي عالجتها من الحمى ذات مرة فشفيت، ويمكنها أن تأتي للعناية بك. إنها مخلصة، ولن تقول كلمة واحدة أبداً. يمكنني إبقاؤك هنا عدة أشهر دون أن يعرف أحد عنك شيئاً.

"يمكنني إبقاؤك هنا عدة أشهر دون أن يعرف أحد عنك شيئاً!". لَكَم تُفرح المرء بعض الكلمات!

قلت بهدوء: لقد فعلتَ الصواب، ولن أرسل خبراً لأحد؛ إن يوماً واحداً أو أكثر من القلق لا يعد فرقاً كبيراً، وأياً كان ذلك الذي كتب تلك الرسالة فلا بد أنه يعرف... الكثير! لم يكن ذلك من عمل شخص خارجي.

ذكرت الرسالة هذه المرة دون أن يحمر وجهي على الإطلاق. وقال متردداً: لو أنك تسمعين نصيحتي...

أجبته بصراحة: لا أحسبني سأفعل، ولكن لا ضرر من الاستماع.

- هل تفعلين دائماً ما تشائين يا آنسة بيدنغفيلد؟

أجبته بحذر: "في العادة". (وكان من شأني أن أقول لأي شخص آخر: "دائماً").

قال على نحو غير متوقع: إنني أشفق على زوجك.

رددت بسرعة: لا حاجة بك لذلك، فما كنت لأحلم بالزواج بأي رجل إلاّ إذا أحببته بجنون، وبالطبع لا شيء تستمتع به المرأة أكثر من

القيام بكل الأشياء التي لا تحبها من أجل شخص تحبه، وكلما كان ذلك نابعاً عن إرادة ذاتية منها كلما أحبته أكثر.

قال ببعض السخرية: أخشى أنني لا أوافقك الرأي. إن العكس هو الصحيح كقاعدة عامة.

صحت بلهفة: بالضبط، وهذا هو سبب وجود الكثير من الزيجات غير السعيدة. إنها غلطة الرجال دائماً؛ إمّا أنهم يستسلمون لزوجاتهم (فتحتقرهم زوجاتهم) أو يكونون أنانيين تماماً ويصرون على آرائهم ولا يقولون: "شكراً" أبداً. الأزواج الناجحون يجعلون زوجاتهم يفعلنَ ما يريدونه تماماً، ثم يدللونهن دلالاً بالغاً لأنهن فعلن ذلك. إن النساء يحببن أن يتسيّد عليهن أزواجهن، لكنهن يكرهن أن لا يقدّر أزواجهن تضحياتهن. ومن ناحية أخرى فإن الرجال لا يقدّرون -في الحقيقة- النساء اللاتي يكنّ لطيفات معهم كل الوقت. عندما أتزوج سأكون شيطانة معظم الوقت، ولكني سأري زوجي مِن وقت لآخر (حيث لا يتوقع ذلك مني) كيف يمكن أن أكون ملاكاً كاملاً.

ضحك هاري بملء فيه وقال: يا لحياة القط والفأر التي ستعيشينها!

طمأنته قائلة: إن العشاق يتقاتلون دائماً لأنهم لا يفهم بعضهم بعضاً، وما أن يأتي الوقت الذي يفهم فيه بعضهم بعضاً حتى يكون الحب قد انتهى.

- هل العكس صحيح؟ هل الناس الذين يحارب بعضهم بعضاً يكونون دائماً عشاقاً بعضهم لبعض؟

قلت وقد ارتبكت بسرعة: إنني... لا أعرف.

مشى نحو الموقد وقال بطريقة عرضية: أتحبين مزيداً من الحساء؟

- نعم، أرجوك. إنني جائعة لدرجة أستطيع معها أكل فرس نهر.

- هذا جيد.

انشغل بالنار بينما كنت أراقبه، ثم قلتُ أعِدُه: عندما أغادر فراشي سأطبخ لك.

- لا أظنك تعرفين شيئاً عن الطبخ.

أجبته بسرعة وأنا أشير إلى صف من العلب على رف الموقد: أستطيع تسخين الطعام في هذه العلب كما تفعل أنت.

قال: "هذه واحدة لك"، ثم ضحك. كان وجهه كله يتغير عندما يضحك فيصبح صبيانياً، سعيداً... شخصية مختلفة.

استمتعت بالحساء. وعندما كنت أتناوله ذكّرته بأنه لم يقدم لي نصيحته حتى الآن.

- آه، نعم. إن ما كنت أريد قوله هو التالي. لو كنتُ مكانك لبقيت هادئاً متخفياً هنا، إلى أن تستعيدي قوتك كاملة مرة أخرى. سيعتقد أعداؤك بأنك مت، ولن يفاجئهم عدم العثور على جثتك. سيعتقدون أنها تمزقت إرباً فوق الصخور وحملها السيل الجارف معه.

ارتعدت أوصالي.

- عندما تستعيدين عافيتك تماماً يمكنك الذهاب إلى بيرا بهدوء، ومن هناك تأخذين سفينة تعيدك إلى إنكلترا.

عارضته بازدراء: سيكون هذا تصرفاً خانعاً جداً.

- ها هي التلميذة الغبية تتكلم!

صحت ساخطة: لست تلميذة غبية... إنني امرأة.

نظر إلي نظرة لم أستطع فهمها بينما جلست محمرة من الغضب، ثم خرج فجأة.

تعافيت سريعاً. كانت الإصابتان اللتان تحملتهما ضربة في الرأس والتواءً شديداً في الذراع، وكانت الأخيرة هي الأسوأ، وقد ظن منقذي في البداية أنها مكسورة، ولكن أقنعني الفحص المتأني بأنها لم تكن كذلك، ورغم أنها كانت مؤلمة جداً إلاّ أنني بدأت أستعملها بسرعة.

كانت فترة غريبة. كنّا معزولين عن العالم، وكانت باتاني العجوز تحوم في المكان أشبه بكلب لا يشعر أحد بوجوده. أصررت على أن أقوم بالطبخ، أو بما أستطيعه منه بذراع واحدة. كان هاري يخرج لوقت طويل، لكننا كنّا نقضي ساعات طويلة معاً تحت ظلال أشجار النخيل نتحدث ونتشاجر ونناقش كل شيء يمكن تصوره، ونتشاجر ثم نتصالح ثانية. تخاصمنا كثيراً ولكن نشأت بيننا صحبة حقيقية دائمة لم أكن أصدق إمكانية حدوثها.

وكنت أعرف بأن الوقت كان يقترب على تحسن صحتي بحيث أغادر، وقد أدركتُ ذلك بقلب مُثقل. هل كان سيتركني أذهب دون كلمة واحدة؟ دون إشارة؟ كانت تأتيه نوبات من الصمت؛ فترات طويلة من المزاجية؛ لحظات كان يقفز فيها من مكانه ويذهب ليتسكع وحيداً.

وذات مساء جاءت الأزمة. كنّا قد انتهينا من وجبتنا البسيطة وجلسنا

عند مدخل الكوخ، وكانت الشمس تغرق. كانت دبابيس الشعر من ضرورات الحياة التي لم يستطع هاري تأمينها لي، وكان شعري الأسود تدلى حتى بلغ ركبتي. جلست وذقني على يدي غارقة في التفكير، وأحسست بأن هاري ينظر إلي دون أن يلتفت.

أخيراً قال: تبدين مثل ساحرة يا آن.

كان في صوته شيء لم أعهده من قبل، ومدّ يده ولمس شعري. ارتعدتُ، وفجأة قفز غاضباً وصاح: يجب أن تغادري هذا المكان غداً، هل تسمعين؟ إنني...

- إذا أردتني أن أذهب فسوف أذهب، ولكن إن أردتني أن أبقى فسوف أبقى.

صاح بانفعال: إلاّ هذه! إلاّ هذه. أتدركين من أنا؟ مجرم كبير؛ رجل ملاحَق. يعرفونني هنا باسم هاري باركر، ويعتقدون بأنني قد خرجت من البلد، ولكنهم سيجرون حساباتهم ذات يوم ويعرفون، وعندها تقع الواقعة. أنت صغيرة جداً يا آن، وجميلة جداً... الحياة كلها أمامك؛ الحب والدنيا وكل شيء، أما حياتي أنا فورائي... حياة تلفت وفسدت، لها طعم الرماد المر.

- إن كنت لا تريدني...

- تعرفين أنني أريدك... تعرفين أنني يمكن أن أضحي بنفسي لكي أبقيك هنا مستترة عن العالم إلى الأبد، ولكنني سأنقذك من نفسك ومنّي. سوف تذهبين هذه الليلة؛ ستذهبين إلى بيرا...

- لن أذهب إلى بيرا.

- بلى. ستذهبين إلى بيرا حتى لو تطلّب الأمر أن أحملك بنفسي وألقيك على ظهر السفينة. من أية مادة تظنين أنني خُلقت؟ أتظنين أنني سأستمر بالاستيقاظ ليلة بعد ليلة خشية أن يكونوا قد أوقعوا بك؟ لا يمكن للمرء أن يستمر معتمداً على المعجزات. يجب أن تعودي إلى إنكلترا يا آن، وأن... وأن تتزوجي وتعيشي سعيدة.

- مع رجل مستقر يوفر لي بيتاً هادئاً!

- هذا أفضل من... الكارثة التامة.

- وماذا عنك؟

تجهم وجهه وقال: لديّ عملي الذي أقوم به. لا تسألي ما هو؛ إذ أحسب أن بوسعك أن تخمنيه، ولكني سأقول لك ما يلي: سوف أبرئ اسمي أو أموت دون ذلك، وسوف أعتصر الحياة من عيني ذلك الوغد القذر الذي حاول جاهداً قتلك.

- يجب أن نكون منصفين؛ إنه لم يدفعني من أعلى فعلياً.

- لم تكن لديه حاجة لذلك. كانت خطته أذكى من هذا؛ فلقد ذهبتُ وصعدتُ إلى الممر بعدها، وبدا كل شيء طبيعياً، ولكن عندما رأيت العلامات على الأرض أدركت أن الحجارة التي كانت تحدد الممر قد رفعت من مكانها ووضعت ثانية في أمكنة مختلفة قليلاً. توجد شجيرات طويلة نامية على الحافة، وقد وُضعت الحجارة عليها حتى تظني أنك ما زلت تسيرين فوق الممر بينما كنت في الحقيقة تضعين قدمك في الهواء. فليساعده الله إذا ما وقع بين يدي!

سكت دقيقة ثم قال بنبرة مختلفة تماماً: نحن لم نتحدث عن هذه

الأشياء أبداً يا آن، أليس كذلك؟ لكن الوقت قد حان. أريدك أن تسمعي القصة بكاملها... من البداية.

قلت بصوت منخفض: إن كان تذكّرك للماضي يؤذيك فلا تفعل.

- لكني أريدك أن تعرفي. لم يخطر لي أبداً أنني سأتحدث عن ذلك الجزء من حياتي لأحد. أليست تصريفات القدر غريبة؟

سكت بعض الوقت. كانت الشمس قد غربت، وكان الظلام المخملي لليل أفريقيا قد خيّم علينا كغلالة رقيقة.

قلت بهدوء: أعرف بعضه.

- ما الذي تعرفينه؟

- أعرف أن اسمك الحقيقي هو هاري لوكاس.

بقي متردداً... لا ينظر إلي، ولكنه يحدق أمامه مباشرة. لم أكن أعرف ما الذي يدور في خلده، ولكنه في النهاية هز رأسه إلى الأمام وكأنه قد سلّم بهذه الحقيقة وبدأ روايته.

* * *

الفصل السادس والعشرون

- أنت على حق؛ اسمي الحقيقي هو هاري لوكاس. كان والدي جندياً متقاعداً خرج للعمل في مزرعة في روديسيا، ومات عندما كنت في السنة الثانية في كامبردج.

سألته فجأة: هل كنت تحبه؟

قال: "إنني... لا أعرف". ثم احمرّ وجهه واستمر في حديثه بحماسة مفاجئة: لماذا أقول هذا؟ كنت أحب والدي فعلاً. قلنا أشياء مريرة بعضنا لبعض في آخر مرة رأيته فيها، وقد تشاجرنا كثيراً بسبب طيشي وديوني، لكني كنت أحب العجوز. أعرف مقدار حبي له الآن... بعدما فات الوقت.

ثم أكمل بهدوء أكثر: وهناك في كامبردج التقيت بالشخص الآخر...

- الشاب إيردسلي؟

- نعم... الشاب إيردسلي. كان والده -كما تعلمين- من أبرز رجالات جنوب أفريقيا، وقد انسجمنا فوراً أنا وصديقي. كان بيننا الحب المشترك لجنوب أفريقيا، وكلانا كان له ذوق خاص في حب الأماكن

التي لم يطأها البشر من قبل في هذا العالم. وبعد أن تخرج إيردیسلي من كامبردج تشاجر مع والده الشجار النهائي. كان العجوز قد دفع عنه ديونه مرتين ورفض أن يدفع للمرة الثالثة، وحدث بينهما مشهد مرير. أعلن والده في نهاية الأمر أن صبره قد نفد وأنه لن يفعل لولده أكثر مما فعله، وقال إنه يجب أن يعتمد على نفسه، وكانت النتيجة -كما تعرفين- أن هذين الشابين ذهبا إلى أميركا الجنوبية معاً للتنقيب عن الألماس. لن أخوض في هذا الآن لكننا قضينا وقتاً رائعاً هناك. كانت المشقات عديدة، ولكنها كانت حياة رائعة... حياة كفاف ينحت المرء فيها الصخر لمجرد البقاء، وفي طريق جديدة لم يمهدها السالكون من قبل. وكان ذلك -والله- خير مكان ليعرف المرء صديقه حقاً، وقد تشكلت بيننا رابطة قوية لم يكن يحلّها إلاّ الموت. حسناً، وكما أخبرك الكولونيل رايس، فإن جهودنا قد تُوّجت بالنجاح؛ فقد وجدنا منجماً كمنجم كيمبرلي في قلب غابات غويانا البريطانية، ولا أستطيع أن أصف لك مقدار نشوتنا. ولم يكن هذا بسبب القيمة المالية للاكتشاف؛ فإيردسلي كان معتاداً على المال، وكان يعلم أنه سيصبح مليونيراً بعد موت والده، وكان لوكاس فقيراً دائماً ومعتاداً على الفقر. لا، إنما كان ذلك بسبب فرحة الاكتشاف.

سكت ثم أضاف معتذراً: هل تمانعين في رواية القصة لك بهذه الطريقة؟ أقصد كما لو لم أكن مشاركاً في هذا الأمر على الإطلاق. يبدو لي الأمر هكذا الآن عندما أنظر إلى الماضي وأرى هذين الولدين. لقد كدتُ أنسى أن أحدهما كان... هاري رايبرن.

قلت: اروِها بالطريقة التي تشاء.

مضى يكمل حديثه: جئنا إلي كيمبرلي ونحن مزهوان جداً

باكتشافنا. وأحضرنا معنا مجموعة رائعة من أحجار الألماس لنقدمها إلى الخبراء، وبعد ذلك... في فندق في كيمبرلي... قابلناها

تصلبت قليلاً، وشدّت يدي على مقبض الباب دون وعي مني.

- أنيتا غرونبرغ... كان هذا اسمها. كانت ممثلة، وكانت شابة وجميلة جداً. وُلدت في جنوب أفريقيا وأظن أن أمها كانت مجرية. كان الغموض يكتنف حياتها، وهذا -بالطبع- زاد من جاذبيتها لولدين عادا إلى الوطن من الأدغال. لا بد أن مهمتها كانت سهلة. كلانا وقع في حبها بسرعة، وكلانا أخذ الأمر بكل جدية. كان ذلك هو أول ظل لخلاف يقع بيننا... ولكن حتى ذلك لم يضعف صداقتنا. أعتقد صادقاً أن كلاً منّا كان مستعداً لأن يتنحى جانباً من أجل الآخر لكي يفوز ويحصل عليها، ولكن هذه لم تكن لعبتها. كنتُ -بعد ذلك- أتساءل أحياناً لماذا لم يكن ذلك هدفها، ذلك أن ابن السير لورنس إيردسلي الوحيد كان صيداً ثميناً، ولكن الحقيقة هي أنها كانت متزوجة بأحد العاملين في شركة دي بيرس... رغم أن أحداً لم يكن يعلم بهذا. وقد أظهرتْ اهتماماً كبيراً باكتشافنا، وأخبرناها كل شيء عنه، حتى أننا أريناها الألماس. كان ينبغي أن تُسمى هذه المرأة دليلة... وقد لعبت دورها جيداً!

اكتُشف حادث السطو على محلات دي بيرس وانقضّ الشرطة علينا كقصف الرعد ووضعوا أيديهم على ألماساتنا. في البداية اكتفينا بالضحك؛ فالأمر كله كان سخيفاً جداً. ثم تم إبراز الألماسات في المحكمة، وكانت -دون شك- هي الأحجار المسروقة من دي بيرس.

كانت أنيتا غرومبرغ قد اختفت بعد أن أبدلت الألماسات بطريقة

محكمة، ولم تصدق المحكمة بأن هذه الألماسات ليست هي التي كانت بحوزتنا في الأصل.

كان للسير لورنس إيردسلي نفوذ كبير، وقد نجح في إغلاق ملف القضية... ولكنها تركت شابين محطمين وقد لحق بهما العار ليواجها العالم واسمهما ملطخ بتهمة السرقة، وهذا ما حطم قلب الرجل العجوز تماماً. تقابل مع ابنه مقابلة مريرة حيث قام بتوبيخه بكل ما يمكن تصوره، وقال إنه قد عمل ما في وسعه لإنقاذ اسم العائلة ولكن منذ ذلك اليوم لم يعد ابنه هو ابنه. تخلى عنه كلياً، وبقي الولد صامتاً (بما كان يتصف به من حمق وغرور) وترفّعَ عن إثبات براءته في وجه أبيه الذي لم يكن يصدّق براءته. خرج من المقابلة ثائراً، وكان صديقه ينتظره. وبعد ذلك بأسبوع أُعلنت الحرب فتطوع الصديقان للقتال معاً. أنت تعرفين ما حدث؛ لقد قُتل أفضل صديق يمكن للمرء أن يعرفه، وذلك بسبب اندفاعه المجنون نحو الخطر غير الضروري... مات واسمه ملوث.

أقسم لك -يا آن- بأنني شعرت بالكراهية تجاه تلك المرأة بسبب ما جرى له فقط؛ فقد أثر حبها فيه أكثر مما أثر بي. صحيح أنني كنت وقتها مجنوناً في حبها، ولكن مشاعره كانت أكثر هدوءاً وعمقاً. كانت مركز عالمه كله، وقد مزقت خيانتُها جذورَ حياته؛ لقد صعقته الضربة وتركته مشلولاً.

سكت هاري ثم أكمل بعد دقيقة: كما تعلمين فقد وصفتني التقارير العسكرية بأنني «مفقود ويُحتمل أنه قُتل». لم أتعب نفسي في تصحيح هذا الخطأ أبداً، بل انتحلت اسم باركر وجئت إلى هذه الجزيرة التي كنت أعرفها منذ زمن طويل. في بداية الحرب كانت لديّ آمال طَموحة في إثبات براءتي، لكن كل هذه الروح تبدو الآن قد خمدت. كنت

أشعر دائماً بأنه لا فائدة من ذلك؛ فصديقي قد مات وليس لي أو له أي أقارب أحياء تهمهم براءتنا، وكان مفروضاً أن أكون أنا الآخر ميتاً، إذن لأدع الأمر على ما هو عليه. لقد عشت حياة هادئة هنا، لم أكن سعيداً ولم أكن حزيناً... كنتُ خالياً من كل المشاعر. ولقد عرفت الآن أن ذلك كان -إلى حد ما- من تأثير الحرب رغم أنني لم أكن أدرك ذلك في ذلك الوقت.

ثم ذات يوم ظهر شيء أيقظني من غفلتي ثانية. كنت أحمل مجموعة من الناس في قاربي في رحلة في النهر، وكنت أقف عند مرسى القارب أساعدهم في ركوب القارب عندما صاح أحد الرجال صيحة تعجّبٍ جعلتني أركز اهتمامي عليه. كان رجلاً صغير الحجم نحيفاً له لحية وكان يحدق إليّ بما أوتي من قوة وكأنني كنت شبحاً. كان انفعاله قوياً جداً بحيث أيقظ في نفسي الفضول؛ فقمت بالاستفسار عنه في الفندق وعلمت أن اسمه كان كارتون وأنه من كيمبرلي وأنه صاقل ألماس يعمل عند محلات دي بيرس. وفي دقيقة واحدة جاشت في نفسي مرة أخرى جميع الأحاسيس القديمة بالظلم، فغادرت الجزيرة وذهبت إلى كيمبرلي.

ومع ذلك لم أستطع معرفة المزيد عنه، وفي نهاية الأمر قررت أنني يجب أن أسرع إلى مقابلته. أخذت مسدسي معي، وعثرت عليه بلمح البرق (وكنت قد أدركت -من تلك النظرة السريعة عند القارب- بأنه جبان وضعيف جسدياً). وحالما أصبحنا وجهاً لوجه أدركت أنه كان خائفاً مني، وفي الحال أجبرته على أن يخبرني بكل ما كان يعرفه. وقد تبين أنه قد خطط لجزء من عملية السطو وأن أنيتا غرونبرغ كانت زوجته، وقد رآنا مرة معاً ونحن نتناول العشاء معها في الفندق، ولأنه قرأ بأنني قُتلت فقد أصابه ظهوري عند الشلالات بالذعر. كان قد تزوج

أنيتا وهما صغيران ولكنها سرعان ما هجرته، وقد أخبرني بأنها تورطت مع مجموعة سيئة... وكانت تلك أول مرة أسمع فيها عن «الكولونيل». أما كارتون نفسه فلم يتورط في أي عمل غير تلك السرقة. هذا ما أكده لي... وكنت أميل إلى تصديقه؛ إذ لم يكن -بالتأكيد- من تلك الخامة التي تُنتج مجرمين ناجحين.

ولكني بقيت أشعر بأنه يخفي شيئاً. وكاختبار له هددت بقتله في الحال وقلت له إنني لم أعد أهتم كثيراً بما سيحصل لي الآن، وفي نوبة من الرعب حكى لي حكاية أخرى. يبدو أن أنيتا غرونبرغ لم تكن تثق بالكولونيل كثيراً؛ فبينما تظاهرت بأنها سلمته أحجار الألماس التي أخذتها من الفندق احتفظت ببعضها عندها، وقد نصحها كارتون بخبرته الفنية وأرشدها إلى الأحجار التي يُفضل أن تحتفظ بها. وإذا ظهرت هذه الألماسات في أي وقت فإن لونها ونوعيتها سيجعلان من السهل التعرف عليها، وكان خبراء دي بيرس سيعترفون -على الفور- بأن تلك الأحجار لم تمر بين أيديهم أبداً. وبهذه الطريقة فإن قصتي حول تبديل الألماسات كانت ستُدعم، واسمي سوف يُبرَّأ، وسوف تتحول الشبهة إلى المتهم الحقيقي. وقد فهمتُ بأن «الكولونيل» كان متورطاً بهذه المسألة شخصياً على غير عادته، ولذلك اقتنعتُ أنيتا بأنها أصبحت تملك شيئاً يدينه إذا ما دعت الحاجة. وقد اقترح كارتون بأن أعمل صفقة مع أنيتا غرونبرغ (أو نادينا، وهو الاسم الذي أطلقته على نفسها بعد ذلك)، وقد رأى أنها ستوافق على التخلي عن الألماسات وعلى خيانة رئيسها السابق مقابل مبلغ كبير من المال، وكان يريد أن يبرق لها بذلك على الفور.

ولكني بقيت مرتاباً في كارتون. كان رجلاً من السهل إخافته لكنه -في خوفه- سيقول لك الكثير من الأكاذيب التي سيكون من الصعب

معرفة الحقيقة منها. عدت إلى الفندق وانتظرت، وقد رأيت بأنه سيستلم رداً على برقيته في مساء اليوم التالي. ذهبت إلى بيته فقالوا لي إن السيد كارتون قد خرج لكنه سيعود في الغد، وعلى الفور أحسست بالارتياب، وفي اللحظة الأخيرة عرفت أنه كان مبحراً في الحقيقة إلى إنكلترا على الباخرة «قلعة كيلموردن» التي غادرت كيب تاون قبل يومين. وكان لديّ الوقت لألحق بنفس الباخرة في ميناء آخر.

لم أكن أعتزم تنبيه كارتون على وجودي في الباخرة. كنت قد قمت بأعمال تمثيل كثيرة أثناء دراستي في كامبردج وكان سهلاً عليّ تغيير مظهري لأبدو رجلاً ملتحياً كهلاً، وقد تجنبت كارتون على ظهر الباخرة بحذر وبقيت في مقصورتي الخاصة قدر الإمكان متظاهراً بالمرض.

ولم أجد صعوبة في ملاحقته عندما وصلنا إلى لندن، فقد ذهب فوراً إلى فندق ولم يخرج حتى اليوم التالي، وغادر الفندق قبل الساعة الواحدة بقليل. كنت وراءه، وقد ذهب إلى وكيل عقارات في نايتسبريدج، وهناك سأل عن مواصفات بيوت ليستأجر أحدها على النهر.

كنت أجلس عند طاولة مجاورة أسأل عن بيوت أيضاً، وفجأة دخلت أنيتا غرونبرغ (أو نادينا؛ سمّها ما شئت)... فاتنةً ومتغطرسة وجميلة كما هي دائماً. يا إلهي، كم أكرهها! ها هي المرأة التي دمرت حياتي... والتي دمرت أيضاً حياة شخص أفضل مني. في تلك اللحظة كنت أستطيع إطباق يدي حول عنقها وخنقها تماماً. وقد اشتعلت غضباً لبعض الوقت، ولم أفهم ما كان وكيل العقارات يقوله، ثم سمعت صوتها بعد ذلك عالياً وواضحاً بلكنة أجنبية مبالغ فيها: "بيت ميل هاوس في مارلو؟ بيت السير يوستيس بيدلار... يبدو أنه يناسبني. على أية حال سوف أذهب وأراه".

كتب لها الرجل إذناً بمعاينة البيت فخرجتْ ثانيةً بطريقتها المتغطرسة. إنها لم تلتفت إلى كارتون بكلمة أو حتى إشارة، ومع ذلك كنت واثقاً أن لقاءهما هناك كان بناء على خطة موضوعة سلفاً، ثم بدأت أقفز إلى النتائج. لم أكن أعرف أن السير يوستيس كان موجوداً في كان، ولذلك اعتقدت بأن هذا العمل كان مجرد غطاء للقائهما به في ميل هاوس. كنت أعرف أنه كان موجوداً في جنوب أفريقيا وقت حادث السطو، ولأنني لم أكن قد رأيته من قبل أبداً فقد قفزت إلى نتيجة مؤداها أنه هو نفسه «الكولونيل» الغامض الذي سمعت عنه الكثير.

تبعت المشتبهين على طول شارع نايتسبريدج. ودخلت أنيتا إلى فندق هايد بارك فأسرعت في خطواتي أنا الآخر ودخلت. ذهَبَتْ إلى المطعم مباشرة، وقررتُ أن لا أجازف بتعرفها عليّ في تلك اللحظة وأن أواصل ملاحقة كارتون. كان لديّ أمل كبير بأنه سيحصل على الألماس وأنني قد أستطيع انتزاع الحقيقة منه عن طريق ظهوري المفاجئ وكشف نفسي له عندما لا يتوقع رؤيتي. تبعته إلى محطة قطار الأنفاق في هايد بارك كورنر وكان يقف هناك عند نهاية الرصيف، وكانت تقف بالقرب منه فتاة ولكن لا أحد آخر، وقررت أن أواجهه فوراً هناك. وتعرفين ما حدث... ففي صدمة مفاجئة لرؤيته رجلاً كان يظن أنه بعيد في جنوب أفريقيا فقَدَ عقله وتراجع إلى الوراء وسقط على خط السكة... لقد كان جباناً دائماً! وتظاهرت بأنني طبيب وفتشت جيوبه، فوجدت محفظة بها بعض النقود ورسالة أو رسالتين غير مهمتين، وكانت هناك بكرة أفلام (لا بد أنني أسقطتها في مكان ما بعد ذلك) وقطعة من الورق عليها موعد في يوم الثاني والعشرين على السفينة «قلعة كيلموردن». وأثناء عجلتي في الهروب قبل أن يعتقلني أحد أسقطت تلك الورقة أيضاً، ولكني -لحسن الحظ- تذكرت الأرقام.

أسرعت إلى أقرب حجرة ودائع في المحطة وأزلت التنكر عن وجهي بسرعة (إذ لم أرد أن أعتقل بتهمة نشل جيوب رجل ميت)، ثم عدت أدراجي إلى فندق هايد بارك. كانت نادينا تتناول غداءها، ولا حاجة لأن أصف بالتفصيل كيف تبعتها إلى مارلو. دخلت هي إلى البيت أولاً، ثم جئتُ وتحدثتُ مع المرأة في بيت البواب متظاهراً بأنني كنت معها، ودخلت إلى البيت أنا الآخر.

سكت، وساد صمت ثقيل.

- هل ستصدقينني يا آن؟ أقسم بالله أن ما سأقوله هو الحقيقة. ذهبت إلى البيت وراءها وفي قلبي شيء أشبه ما يكون رغبةِ بالقتل... ووجدتها مقتولة! وجدتها هناك في غرفة في الطابق الأول... يا إلهي! كان منظراً مرعباً. مقتولة... ولمّا يمض على دخولي وراءها ثلاث دقائق، ولا أثر لوجود أحد آخر في البيت! وبالطبع أدركت على الفور الوضع المرعب الذي كنت فيه؛ فـ«بضربة مُعلِّم» واحدة تخلص الضحية ممن كان يبتزه وفي نفس الوقت قدم ضحية يمكن أن تلصق به هذه الجريمة. كانت يد «الكولونيل» واضحة جداً في هذا العمل، وللمرة الثانية سأكون ضحيته... وكنت مغفلاً إذ وقعت في الفخ بهذه السهولة!

لا أكاد أعرف ما فعلته بعد ذلك. خرجت من البيت وأنا أبدو في حالة عادية تماماً، لكنني عرفت بأن الأمر لن يطول كثيراً حتى يكتشفوا الجريمة ويعمموا أوصافي في أنحاء البلاد. اختبأت بضعة أيام لا أجرؤ على الحركة، وفي النهاية ساعدني الحظ؛ فقد سمعت حديثاً بين رجلين كهلين في الشارع أحدهما كان السير يوستيس بيدلار، ورأيت -على الفور- فكرة العمل كسكرتير له، وقد ساعدني على ذلك بعض الحديث الذي سمعته بينهما. لم أعد واثقاً كثيراً الآن بأن السير يوستيس

بيدلار هو «الكولونيل»، فربما حُدِّد بيته كمكان للقاء بالصدفة أو لسبب غامض لم أعرفه.

- هل تعرف أن غاي باجيت كان في مارلو يوم وقوع الجريمة؟

- إذن فهذا يحل المشكلة. لقد اعتقدت أنه كان في كانْ مع السير يوستيس.

- كان يفترض أن يكون في فلورنسا، ولكنه لم يذهب إلى هناك بالتأكيد. أنا متأكدة تماماً أنه كان في مارلو لكني لا أستطيع إثبات ذلك .

- أنا لم أشتبه في باجيت أبداً حتى جاءت تلك الليلة التي حاول فيها إلقاءك من فوق السفينة. إن الرجل ممثل رائع.

- نعم، أليس كذلك؟

- هذا يوضح سبب اختيار ميل هاوس. ربما كان باجيت يستطيع دخوله والخروج منه دون أن يلحظه أحد. إنه لم يمانع في مرافقتي للسير يوستيس في السفينة؛ إذ لم يُرِدْ أن يعتقلوني على الفور. من الواضح أن نادينا لم تحضر الألماسات معها إلى موعد اللقاء (وهو ما كانوا يعتقدون أنها ستفعله)، وأتصوّر أن كارتون كان يحتفظ بها ويخفيها في مكان ما في الباخرة... كان ذلك دوره. كانوا يأملون أن أعرف مفتاح الكشف عن مكان إخفائها؛ فما دام «الكولونيل» لم يستعد الألماسات فإنه ما زال في خطر، وهو ما يوضحه اهتمامه بالحصول عليها مهما كان الثمن. لا أعرف أين خبأها ذلك الشيطان كارتون... إن كان قد خبأها فعلاً.

- هذه قصة أخرى... قصتي أنا، وسوف أحكيها لك الآن.

* * *

الفصل السابع والعشرون

أصغى هاري إليّ باهتمام بينما أعدت عليه سرد جميع الأحداث التي سردتها في هذه الصفحات، وأكثر شيء حيره وأدهشه هو أن يعرف بأن الألماسات كانت بحوزتي طوال تلك الفترة... أو بالأحرى بحوزة سوزان. كانت تلك حقيقة لم يفكر بها أبداً.

وبالطبع -بعد أن سمعت قصته- أدركت مغزى عمل كارتون أو... بالأحرى عمل نادينا حيث لم يكن عندي أي شك أنها هي التي وضعت الخطة. وليس مدهشاً بأن التكتيكات التي نُفذت ضدها أو ضد زوجها كانت يمكن أن تؤدي إلى الاستيلاء على الألماس. كانت تحتفظ بالسر لنفسها ولم يكن من الممكن للكولونيل أن يخمن بأنها قد أودعتها بعهدة مضيف بحري!

كانت براءة هاري من تهمة السرقة القديمة تبدو أكيدة، لكن التهمة الأخرى والأخطر هي التي أصابت أعمالنا بالشلل؛ لأنه لن يستطيع الخروج لإثبات قضيته.

الشيء الوحيد الذي كنّا نعود إليه مرة تلو الأخرى هو هوية «الكولونيل». هل كان هو غاي باجيت أم لا؟

قال هاري: لولا شيء واحد لجزمت أنه هو. يبدو من الأكيد أن باجيت هو الذي قتل أنيتا غرونبرغ في مارلو... وهذا بالتأكيد يفسر الافتراض أنه هو الكولونيل بالفعل؛ حيث أن مسألة أنيتا لم تكن من النوع الذي يمكن أن يناقشها شخص آخر تابع له. ولكن الشيء الوحيد الذي يعمل ضد ذلك الافتراض هو محاولة التخلص منك ليلة وصولك إلى هنا. لقد رأيتِ باجيت وقد تخلف وراءكم في كيب تاون، ولا يمكن أن يكون قد وصل إلى هنا قبل الأربعاء التالي بأية وسيلة، ومن غير المحتمل أن يكون له أي جواسيس في هذا المكان، وقد كانت جميع خططه أن يتعامل معك في كيب تاون. قد يستطيع بالطبع إرسال برقية تعليماتٍ لمساعد له في جوهانسبرغ يستطيع بدوره ركوب القطار الروديسي في مافيكينغ، لكن تعليماته -في تلك الحالة- ينبغي أن تكون محددة بحيث يمكن تفسير كتابة تلك الرسالة.

جلسنا صامتين بعض الوقت ثم أكمل هاري حديثه ببطء: هل قلت إن السيدة بلير كانت نائمة عندما غادرت الفندق وأنك سمعت السير يوستيس يملي رسائله على الآنسة بيتيغرو؟ أين كان رايس؟

- لم أجده في أي مكان.

- هل كان لديه أي سبب يدعوه للاعتقاد... بأننا (أنا وأنت) على صداقة معاً؟

أجبته متأملة وأنا أتذكر حديثاً دار بيننا في طريق العودة من ماتوبوس: ربما كان لديه سبب لذلك. إنه ذو شخصية قوية لكنه لا يتطابق مع فكرتي عن «الكولونيل» على الإطلاق. وعلى أية حال فإن مثل هذه الفكرة ستكون سخيفة؛ فهو يعمل في جهاز المخابرات.

- وكيف نعرف ذلك؟ إن أسهل شيء في العالم التلميح بمثل ذلك؛ فلا أحد يعارض مثل تلك الإشارة، ثم تنتشر الشائعة إلى أن يعتقد كل واحد بأنها حقيقة لا ريب فيها. إنها تعطي مبرراً لجميع الأعمال المشكوك فيها. آن، هل يعجبك رايس؟

- يعجبني... ولا يعجبني. إنه ينفرني وفي نفس الوقت يسحرني، لكني أعرف شيئاً واحداً وهو أنني دائماً أخاف منه قليلاً.

قال هاري ببطء: لقد كان موجوداً في جنوب أفريقيا وقت حدوث عملية السطو في كيمبرلي.

- لكنه هو الذي أخبر سوزان بكل شيء عن «الكولونيل» وكيف كان في باريس يحاول تعقبه.

- تمويه... وتمويه ذكي جداً.

- ولكن ما علاقة باجيت بهذا؟ هل هو مخلب قط لدى رايس؟

- ربما لا علاقة له بذلك على الإطلاق.

- ماذا؟

- عودي بتفكيرك إلى الوراء يا آن. هل سمعت رواية باجيت عن تلك الليلة على الباخرة كيلموردن؟

- نعم... من خلال السير يوستيس.

أعدتُ عليه القصة، وأصغى هاري بانتباه ثم قال: لقد رأى رجلاً يأتي من جهة مقصورة السير يوستيس وتبعه إلى ظهر المركب. هل هذا ما يقوله؟ مَن كان يسكن في المقصورة المواجهة للسير يوستيس؟

الكولونيل رايس. افترضي أن الكولونيل رايس تسلل إلى ظهر المركب وعندما فشل في هجومه عليك هرب حول ظهر السفينة والتقى بباجيت الذي كان قادماً لتوه من خلال باب الصالون، فصرعه بضربة وقفز إلى الداخل بعد أن أغلق الباب. اندفعنا حول السفينة ووجدنا باجيت ممدداً هناك. ما رأيك بهذه؟

- لقد نسيتَ أنه أكد جازماً أنك أنت الذي ضربته.

- حسناً، افترضي أنه حالما استعاد وعيه رآني أختفي من بعيد؟ ألم يكن سيسلم جدلاً بأنني أنا الذي هاجمته؟ وخصوصاً أنه كان يعتقد من البداية بأنه كان يلاحقني أنا؟

قلت ببطء: هذا ممكن، بلى، وهو يغير كل أفكارنا. ولكن توجد أشياء أخرى.

- معظمها عرضة للتفسير. الرجل الذي تبعك في كيب تاون تحدث مع باجيت ونظر باجيت إلى ساعته. ربما سأله الرجل فقط عن الوقت.

- أتعني أن ذلك كان مجرد صدفة؟

- ليس ذلك بالضبط. في هذا كله أسلوب منظم يربط باجيت بالمسألة. لماذا اختير ميل هاوس مكاناً لجريمة القتل؟ هل ذلك لأن باجيت كان في كيمبرلي عندما سرقت الألماسات؟ أكان يمكن أن يُقدَّم كبشَ فداء لو لم أظهر على مسرح الأحداث بقدرة قادر؟

- إذن فأنت تعتقد أنه قد يكون بريئاً تماماً؟

- يبدو الأمر هكذا. ولكن إن كان كذلك، فيجب أن نعرف ماذا

كان يفعل في مارلو. لو كان عنده تفسير معقول لذلك فإننا نسير في الطريق الصحيح.

نهض من مكانه وهو يقول: لقد جاوزنا منتصف الليل. ادخلي يا آن ونامي، وسآخذك في القارب قبل الفجر. يجب أن تلحقي القطار في ليفينغستن. لديّ صديق هناك يخفيك عنده لحين انطلاق القطار. اذهبي إلى بولاوايو وخذي قطار بيرا من هناك، وأنا أستطيع أن أعرف من صديقي في ليفينغستن ما الذي يجري في الفندق وأين أصدقاؤك الآن.

قلت متأملة: بيرا؟

- نعم يا آن، إنها بيرا من أجلك. هذا عمل رجل؛ فاتركيه لي.

كنا قد أخذنا فترة راحة قصيرة من الانفعال ونحن نتدارس الموقف، ولكن الانفعال عاد ليسيطر علينا مرة أخرى حتى إن أياً منا لم ينظر إلى الآخر.

دخلت الكوخ واستلقيت على الأريكة المغطاة بالجلد، ولكني لم أنم. وفي الخارج كنت أسمع هاري رايبرن يجوب المكان جيئة وذهاباً خلال ساعات الظلام الطويلة. وأخيراً صاح يناديني: هيا يا آن، حان وقت الرحيل.

نهضت وخرجت طائعة. كان الظلام ما يزال مخيماً لكني عرفت أن الفجر لم يكن بعيداً.

بدأ هاري يقول: "سنركب زورق الكانو العادي وليس الزورق ذا المحرك..."، ثم سكت فجأة ورفع يده وقال: صه! ما هذا؟

أصغيت لكني لم أسمع شيئاً. كانت أذناه أحدّ من أذنيّ؛ كانتا أذني

رجل عاش في الغابات طويلاً. ثم سمعت الصوت أيضاً... صوتاً خفيفاً لحركة مجاديف في الماء آتية من اتجاه الضفة اليمنى للنهر وتقترب من مرسانا الصغير بسرعة.

أمعنّا النظر في الظلمة ورأينا خيالاً قاتماً غير واضح على سطح الماء. كان قارباً، ثم رأينا شعلة سريعة انطفأت بسرعة؛ فقد أشعل أحدهم عود ثقاب. وعلى ضوئه عرفت شخصاً... إنه الهولندي ذو اللحية الحمراء الذي رأيته في ذلك البيت في مويزنبرغ، أما الآخرون فكانوا من أهل البلد.

- أسرعي... عودي إلى الكوخ.

دفعني هاري معه إلى الوراء، وأنزل عن الحائط بندقيتين ومسدساً وقال: هل تستطيعين تعبئة بندقية؟

- لم أفعل ذلك أبداً... أرني كيف.

استوعبت تعليماته بسرعة، وأغلقنا الباب ووقف هاري قريباً من النافذة المطلّة على المرسى، وكان القارب على وشك الرسوّ عليه.

صاح هاري بصوت مدوٍّ: مَن هناك؟

ولئن كانت أية شكوك قد راودتنا بخصوص نوايا زائرينا فإن تلك الشكوك سرعان ما تلاشت؛ فقد انهمر حولنا وابل من الرصاص، ولحسن الحظ لم يصب أيٌّ منا. رفع هاري البندقية وراح يطلق النار، وسمعت أنّتين وصوت سقوط في الماء.

تمتم متجهماً وهو يمسك بالبندقية الثانية: هذا سيلقنهم درساً يفكرون

فيه. قفي في الخلف جيداً يا آن -أرجوك- وعبئي البندقية بسرعة.

وانهمر مزيد من الرصاص. كشطت رصاصة خد هاري، وكان ردّه على النار بنار أقوى منها. كنت قد عبأت البندقية ثانية عندما استدار ليأخذها قبل أن يعود إلى النافذة مرة أخرى، وفجأة صاح: إنهم ذاهبون... لقد أخذوا ما فيه الكفاية. إنهم واضحون هناك على الماء، ولا يستطيعون معرفة عددنا. لقد هزمناهم هزيمة منكرة الآن، ولكنهم سيعودون. سيتوجب علينا الاستعداد لهم.

ثم ألقى البندقية على الأرض والتفت إليّ قائلاً: آن، أيتها الجميلة... أيتها الرائعة... أيتها الملكة الصغيرة! شجاعةِ كالأسد؛ ساحرة سوداء الشعر!

أمسكني بذراعيه وقبّلني، ثم قال وهو يحررني فجأة: والآن إلى العمل؛ أخرجي علب البارافين هذه.

فعلت ما طلبه مني. وكان مشغولاً داخل الكوخ، وفي الحال رأيته على سطحه يمشي ببطء ويحمل شيئاً بين ذراعيه. ثم عاد إلي بعد دقائق وقال: انزلي إلى القارب، علينا أن نأخذه إلى الجانب الآخر من الجزيرة.

وعندما ذهبتُ رفع علب البرافين. ناديت بصوت خفيف: إنهم عائدون.

كنت قد رأيت شيئاً غير واضح يتحرك خارجاً من الشاطئ المقابل، فأسرع ناحيتي وقال: في الوقت المناسب. يا إلهي... أين القارب؟

كانت حبال القاربين قد قُطعت قطافا بعيداً. وصفر هاري بصوت خفيف وقال: إننا في مأزق يا حبيبتي. هل تخافين؟

- لا أخاف وأنا معك.

- آه، ولكن الموت معاً ليس متعة كبيرة. سنفعل أفضل من هذا؛ انظري... لقد أحضروا معهم قاربين مليئين هذه المرة، وسينزلون في نقطتين مختلفتين. والآن إلى عملي المسرحي.

وبعد أن فرغ من كلامه اندلعت من الكوخ ألسنة لهب طويلة، وقد أضاء نورها جسدين جاثمين على سطح الكوخ معاً. قال: إنها ملابسي القديمة حشوتها ببعض الأسمال البالية... ولكنهم لن يكتشفوا الأمر إلاّ بعد وقت طويل. هيا يا آن، علينا أن نجرب أساليب يائسة.

ركضنا إلى الجانب الآخر من الجزيرة يداً بيد. كانت هناك قناة ضيقة من الماء تفصل الجزيرة عن اليابسة في تلك الجهة. قال: يجب أن نسبح حتى نصل إليها. هل تعرفين السباحة يا آن؟ هذا لا يهم؛ فأستطيع مساعدتك في العبور. إنه مكان لا يصلح لرسوّ القوارب... فيه الكثير من الصخور، ولكنه يصلح للسباحة، ويصلح للوصول إلى ليفينغستن.

- أستطيع السباحة قليلاً أبعد من هذه المسافة. ما هو الخطر يا هاري؟

قلت هذا لأني رأيت على وجهه نظرة متجهمة. وتابعت السؤال: أهي أسماك القرش؟

- لا أيتها الوزّة الصغيرة؛ فأسماك القرش تعيش في البحر. لكنك حادة الذكاء يا آن. إنها تماسيح، هذه هي المشكلة.

- تماسيح؟

- نعم، ولكن لا تفكري بها... أو ادعي الله بالسلامة فقط.

دخلنا في الماء. لا بد أن دعائي قد استجيب لأننا وصلنا الشاطئ دون خطر وخرجنا من الماء ونحن نقطر ماء.

- والآن إلى ليفينغستن. أخشى أنها ستكون رحلة قاسية، والملابس المبتلة ستجعل الرحلة أصعب، ولكن يجب أن نفعل ذلك.

كان السير كابوساً؛ فقد التصقت تنورتي المبتلة والتفت حول ساقي وسرعان ما تمزقت جواربي من الأشواك، وأخيراً وقفت بعد أن نفذت قواي تماماً. التفت هاري إلي قائلاً: استمري يا حبيبتي؛ سوف أحملك قليلاً.

هكذا دخلت ليفينغستن محمولة على كتفه مثل كيس من الفحم. لا أعرف كيف حملني طوال ذلك الطريق. كان ضوء الفجر قد بدأ يبزغ، وكان صديق هاري شاباً في العشرين من عمره له مخزن لبيع التحف المحلية. كان اسمه نيد... وربما كان له اسم آخر لكني لم أعرفه أبداً. لم تبدُ عليه أي مفاجأة لرؤيته هاري وهو يدخل وملابسه تقطر ماء ممسكاً بيد فتاة مبتلة الثياب مثله... إن الرجال رائعون جداً.

قدم لنا طعاماً نأكله وقهوة ساخنة وجفف لنا ثيابنا بينما كنا نلف أجسامنا ببطانيات مانشستر ذات الألوان الزاهية. وكنا في مأمن في الغرفة الصغيرة الخلفية من الكوخ بعيداً عن الأنظار بينما غادر هو ليقوم بالاستعلام عما حدث لجماعة السير يوستيس وإن كان أي منهم ما زال موجوداً في الفندق أم لا.

عندها أبلغت هاري بأن شيئاً لن يغريني بالذهاب إلى بيرا. لم أكن أعتزم ذلك أبداً على أية حال ولكن زالت الآن جميع الأسباب التي تدعوني للذهاب إليها. لقد كان الهدف من الخطة هو أن أعدائي كانوا

يحسبونني ميتة؛ فأمّا وقد عرفوا الآن أنني لم أمت فإن ذهابي إلى بيرا لن يفيد بشيء. يستطيعون ملاحقتي هناك وقتلي بهدوء؛ فلا أحد هناك سيحميني. وقررنا أخيراً أن أنضم إلى سوزان أينما كانت وأكرس كل طاقتي للاهتمام بنفسي... كان مطلوباً مني أن لا أقوم بأي مغامرة.

كان علي أن أبقى معها هادئة وأنتظر تعليمات من هاري، وكان يفترض أن تودع الألماسات في أحد البنوك في كيمبرلي باسم باركر.

قلت متأملة: بقي شيء واحد؛ يجب أن تكون لدينا شيفرة معينة. لا نريد أن نُخدع مرة أخرى بالرسائل التي تطلب منّا المجيء من مكان لآخر.

- هذا سهل. أية رسالة تأتيك مني ستجدين فيها واو العطف وقد شُطبت بخطين متقاطعين.

- بلا هذه العلامة لن تكون الرسالة حقيقية. وماذا بخصوص البرقيات؟

- أي برقية مني ستكون موقعة باسم أندي.

قال نيد وهو يدخل رأسه في الغرفة: "سيتحرك القطار بعد قليل يا هاري"، ثم سحب رأسه بسرعة.

وقفت وسألته باحتشام: وهل أتزوج رجلاً مستقراً لطيفاً إن وجدت واحداً؟

اقترب هاري مني وقال: يا إلهي! إن تزوجتِ أي رجل غيري يا آن فسوف أدق عنقه.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

(من مذكرات السير يوستيس بيدلار)

كما قلت من قبل: أنا رجل سلام في الأساس، أتوق إلى حياة هادئة، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يبدو أنني أستطيع الحصول عليه؛ فأنا أكون دائماً في وسط العواصف والمخاطر. لقد كان ارتياحي عظيماً لخلاصي من باجيت الذي كان لا يفتأ يتشمم الدسائس، كما أن الآنسة بيتيغرو امرأة مفيدة بالتأكيد؛ فرغم أنه لم يكن فيها شيء من صفات الحورية إلاّ أن بعض أعمالها لا تقدر بثمن. صحيح أنني كنت في مزاج سيئ في بولاوايو وتصرفت كالدب نتيجة لذلك إلاّ أنني كنت قد قضيت الليلة في القطار قلقاً، فعند الساعة الثالثة صباحاً دخل عربتي شاب أنيق الثياب وسألني عن المكان الذي كنت ذاهباً إليه. كرر سؤاله متجاهلاً كلامي له: "شاي، وأرجوك أن لا تضع فيه سكراً"، وشدّد على حقيقة أنه ليس نادلاً لكنه ضابط الهجرة. وأخيراً أقنعته بأنني لم أكن أعاني من أي مرض مُعدٍ، وأنني ذاهب لزيارة روديسيا لدوافع بريئة، ثم أبلغته باسمي الكامل ومكان مولدي. بعد ذلك حاولت أن أختطف قليلاً من النوم، لكن حماراً فضولياً أيقظني في الساعة الخامسة والنصف ومعه فنجان من السكر السائل كان يسميه شاياً. لا أحسبني ألقيت الفنجان في

وجهه، ولكني أعرف أن ذلك هو ما كنت أريد عمله. أحضر لي في الساعة السادسة فنجاناً من الشاي دون سكر، وكان بارداً جداً، ثم رحت في نوم عميق بعد أن أُرهقت تماماً واستيقظت خارج حدود بولاوايو، ونزلت وقد حمّلوني تمثال زرافة من الخشب كله سيقان وعنق!

وفيما عدا هذه الحوادث الصغيرة المؤسفة، كان كل شيء يجري دون مشكلات. ثم وقعت كارثة جديدة.

كان ذلك في ليلة وصولنا إلى الشلالات؛ وكنت أملي رسائلي على الآنسة بيتيغرو في غرفة جلوسي عندما اقتحمت السيدة بلير عليّ الغرفة دون كلمة اعتذار وصاحت: أين آن؟

سؤال لطيف تسأله... وكأنني كنت مسؤولاً عن الفتاة. ماذا ستظن الآنسة بيتيغرو الآن؟ ألن تظن أنني معتاد على إخراج آن بيدنغفيلد من جيبي عند منتصف الليل أو نحو ذلك؟ كان ذلك أسلوباً فاضحاً جداً لرجل في مكانتي. قلت بفتور: أظن أنها نائمة في سريرها.

تنحنحتُ ونظرتُ إلى الآنسة بيتيغرو لكي أبين لها أنني كنت مستعداً لاستئناف الإملاء. كنت أرجو أن تفهم السيدة بلير هذه الإشارة مني، لكنها لم تفهم شيئاً مما فعلته، وبدلاً من ذلك ألقت بنفسها على كرسي وصاحت بانفعال: إنها ليست في غرفتها. لقد ذهبتُ هناك. لقد حلمتُ... حلماً فظيعاً... بأنها وقعت في خطر رهيب، فنهضتُ وذهبت إلى غرفتها لكي أُطمئن نفسي فقط. لم تكن هناك ولم يبدُ على سريرها أنها قد نامت فيه.

ثم نظرَتْ إليّ نظرة استجداء وقالت: ماذا أفعل يا سير يوستيس؟

كظمت في نفسي الرغبة في الرد عليها بالقول: "اذهبي إلى النوم ولا تقلقي دون داع؛ إن فتاة قوية الجسم مثل آن بيدنغفيلد قادرة تماماً على العناية بنفسها"، ولكني عبست بطريقة حكيمة، وقلت لها: ماذا يقول رايس في هذا الأمر؟

لماذا ينجو رايس من هذه الأمور؟ فلندعه يجابه بعض مساوئ صحبة النساء بالإضافة لما يناله من محاسنها.

ولكنها قالت: لا أستطيع أن أجده في أي مكان.

كان واضحاً أنها ستجعل من تلك الليلة ليلة سوداء. تنهدت وجلست على الكرسي، ثم قلت بصبر: لا أفهم تماماً سبب انفعالك.

- إن حلمي...

- هذا من الكاري الذي تناولناه على العشاء!

- آه، سير يوستيس!

كانت المرأة ساخطة تماماً، ومع ذلك فالجميع يعلمون أن الكوابيس نتيجة مباشرة للطعام غير الطبيعي. أكملتُ بأسلوب الإقناع: لماذا لا تخرج آن بيدنغفيلد ورايس للمشي قليلاً دون أن يعلم الفندق كله بذلك؟

- هل تعتقد أنهما خرجا يتمشيان معاً فقط؟ لكن الوقت بعد منتصف الليل؟

تمتمتُ قائلاً: المرء يفعل هذه الأمور الطائشة عندما يكون صغيراً، رغم أن رايس أكبر من أن يقع في هذه الأخطاء.

- أتعتقد ذلك حقاً؟

أكملت مهدئاً: أعتقد أنهما هربا ليجعلا من الأمر مباراة.

قلت هذا رغم أنني أدرك تماماً أن كلامي هذا سخيف. ففي مكان كهذا، أين يوجد مكان يهربان إليه؟

لا أعرف إلى متى كان من شأني أن أواصل طرح الملاحظات التي لا معنى لها، ولكن في تلك اللحظة دخل رايس نفسه. على أية حال كنت على حق جزئياً؛ فقد كان خارج الفندق يتمشى، لكنه لم يأخذ آن معه. ومع ذلك فقد كنت مخطئاً تماماً في طريقة تعاملي مع الموقف. لقد رأيت ذلك على الفور، فقد قلب رايس كل الفندق رأساً على عقب خلال ثلاث دقائق... لم أرَ في حياتي رجلاً منزعجاً أكثر منه.

كان الأمر غريباً جداً. أين ذهبت الفتاة؟ لقد خرجت من الفندق تلبس كامل ملابسها بعد الحادية عشرة بعشر دقائق تقريباً ولم تشاهَد ثانية أبداً. فكرة الانتحار تبدو مستحيلة؛ فقد كانت من أولئك الفتيات اللاتي يحببن الحياة ولا يمكن أن يفكرن أبداً بتركها، ولا قطار يتحرك في أي من الاتجاهين حتى منتصف نهار اليوم التالي، ولذلك لا يمكن أن تكون قد غادرت المكان. إذن أين هي؟

إن رايس المسكين شديد القلق... لم يترك حجراً إلاّ وقلبه بحثاً عنها، وتم استنفار كل مأموري الشرطة في دائرة قطرها مئات الأميال، وانطلق مُتعقبو الأثر المحليون يجرون بحثاً على أربع. تم القيام بكل ما يمكن عمله، ولكن لم يظهر لآن بيدتغفيلد أي أثر. كانت النظرية المقبولة هي أنها تمشي في نومها. توجد على الممر القريب من الجسر علامات يبدو أنها تدل على أن الفتاة قد خرجت عن حافة الطريق

متعمدة. لو كان ذلك صحيحاً فلا بد أنها تمزّقت إرباً على الصخور في قعر الوادي، ولسوء الحظ فإن معظم آثار الأقدام قد مسحها عدد من السائحين الذين اختاروا السير في ذلك الطريق في وقت مبكر من صباح يوم الإثنين.

لا أعرف إن كانت تلك نظرية مقنعة كثيراً؛ ففي أيام شبابي قيل لي بأن الذين يمشون في نومهم لا يمكنهم إيذاء أنفسهم... لأن حاستهم السادسة تنبههم. لا أظن أن هذه النظرية تقنع السيدة بلير أيضاً.

لا أستطيع فهم تلك المرأة! لقد تغير موقفها تجاه رايس تماماً؛ فهي تراقبه الآن كما تراقب القطة الفأر (وهما اللذان كانا دائماً صديقين!). لقد تغيرت تماماً وأصبحت عصبية وهستيرية وتخاف وتجفل عند أقل صوت. وبدأت أعتقد أنني ذهبت إلى جوهانسبرغ في الوقت المناسب!

سرت شائعة بالأمس عن وجود جزيرة غامضة في مكان ما أعلى النهر عليها رجل وفتاة، وقد انفعل رايس جداً. ولكن ظهر أن تلك الإشاعة كانت مجرد وهم؛ فالرجل يسكن هناك منذ سنوات وهو معروف جيداً لدى مدير الفندق. إنه يأخذ السائحين إلى أعلى وأسفل النهر في موسم السياحة ويريهم التماسيح وفرس نهر شارد أو غير ذلك (وأحسب أنه يقتني فرس نهر أليفاً مدرباً على أكل بقايا الطعام التي ترمى له من القارب في المناسبات، ثم يبعده بعد ذلك عن القارب بالمجداف، ويشعر السائحون أخيراً أنهم قد رأوا ما لم يره أحد من قبل!).

ليس معروفاً بالتحديد متى جاءت الفتاة إلى الجزيرة، لكن يبدو واضحاً تماماً أنها لا يمكن أن تكون آن. إن التدخل في شؤون الناس الخاصة يثير حساسيتهم؛ ولو كنت مكان هذا الشاب لطردتُ رايس من

الجزيرة إذا جاء يسألني عن علاقاتي الخرامية.

* * *

لاحقاً :

تقرر بشكل نهائي أن أذهب إلى جوهانسبرغ غداً. ألحّ عليّ رايس أن أفعل ذلك؛ إذ يبدو -من كل ما أسمعه- أن الأمور تسوء هناك، وربما كان من الأفضل أن أذهب قبل أن تسوء الأمور أكثر، وأحسب -على أية حال- أن أحد المضربين سيُطلق عليّ النار! كان يُفترض أن ترافقني السيدة بلير، ولكنها غيرت رأيها في آخر لحظة وقررت البقاء في الشلالات؛ إذ يبدو أنها لا تطيق التوقف عن متابعة رايس. جاءتني ليلاً وقالت -مترددةً- بأنها تطلب مني معروفاً. لقد طلبت مني الاهتمام بأغراضها التذكارية.

قلت مذعوراً: لا أحسبك تقصدين الحيوانات؟

كنت أشعر دائماً أنني سأعلق مع هذه الحيوانات عاجلاً أم آجلاً.

وفي نهاية الأمر توصلنا إلى تسوية. توليت أنا مسؤولية صندوقين خشبيين صغيرين لها يحتويان على أغراض قابلة للكسر، واتفقنا على تعبئة تماثيل الحيوانات من قبل المخزن المحلي في صناديق واسعة يرسلها بالقطار إلى كيب تاون حيث سيتولى باجيت هناك تخزينها.

يقول الأشخاص الذين يرزمون هذه التماثيل إنها ذات أشكال غريبة جداً (!) وإنها ستحتاج إلى صناديق خاصة. وقد أوضحتُ للسيدة بلير بأن كل واحد من هذه التماثيل سيكون قد كلفها جنيهاً كاملاً عندما تستلمه في إنكلترا!

إن باجيت متلهف على الانضمام إليّ في جوهانسبرغ، وسوف أجعل من صناديق السيدة بلير عذراً لإبقائه في كيب تاون. لقد كتبت له بأنه يجب عليه استلام الصناديق ووضعها في مكان آمن حيث أنها تحتوي على تحف نادرة ذات قيمة كبيرة.

وهكذا سوّيت كل المسائل وسافرت مع الآنسة بيتيغرو.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

جوهانسبرغ، السادس من آذار (مارس) :

يوجد شيء غير صحي أبداً في حالة الأمور هنا، وإذا ما أردتُ استخدام العبارة المعروفة التي كنت أقرؤها كثيراً لقلتُ إننا نعيش جميعاً على فوهة بركان؛ فجماعات من العمال المضربين يجوبون الشوارع يعبسون في وجه المرء وكأنهم يريدون قتله (أظن أنهم يتفرسون في الناس لمعرفة الرأسماليين السِّمان ليقتلوهم عندما تبدأ المذابح). إنك لا تستطيع ركوب سيارة أجرة، وإذا فعلت ذلك فإن المضربين سيسحبونك منها. كما أن أصحاب الفنادق يلمِّحون إلى أنه عندما ينفد الطعام فإنهم سوف يقذفونك خارج الفندق!

قابلت الليلة الماضية صديقي العمالي ريفز الذي كان على ظهر كيلموردن. كان فاقداً أعصابَه أكثر من أي رجل رأيته في حياتي. إنه كبقية هؤلاء الناس؛ فهم يلقون خطابات ملتهبة وطويلة جداً لأغراض سياسية فقط، ثم يتمنون لو لم يفعلوا ذلك. إنه مشغول الآن بالتنقل والقول إنه لم يقم بذلك حقاً! عندما لاقيته كان يريد السفر إلى كيب تاون حيث يعتزم إلقاء خطبة تستغرق ثلاثة أيام باللغة الهولندية يدافع فيها عن نفسه ويوضح بأن الأشياء التي قالها كانت تعني في الحقيقة شيئاً

مختلفاً تماماً. أحمد الله أنني لا أجلس في المجلس التشريعي لجنوب أفريقيا! صحيح أن مجلس العموم سيء بما فيه الكفاية، ولكننا -على الأقل- نتكلم لغة واحدة، وتوجد بعض القيود الخفيفة على الإطالة في الخطابات. عندما ذهبت إلى المجلس التشريعي قبل مغادرة كيب تاون استمعت إلى رجل أشيب الشعر بشاربين متهدلين بدا تماماً كالسلحفاة الزائفة في «أليس في بلاد العجائب». ألقى كلماته واحدة تلو الأخرى بطريقة كئيبة جداً، ولكنه كان -من وقت لآخر- يشُدُّ على نفسه قليلاً فينطق كلمة متبجحة ما بتشديد عظيم عليها. وعندما يفعل ذلك كان نصف مستمعيه يصيحون: "ووووف، وووف" (التي ربما كانت المقابل الهولندي لعبارة: "اسمع، اسمع")، أما النصف الآخر فيستيقظون جفلين من إغفاءتهم اللذيذة التي كانوا فيها. وقد فهمت أن الرجل قد مضت عليه ثلاثة أيام على الأقل وهو يتكلم... لا بد أن لديهم صبراً عظيماً في جنوب أفريقيا!

لقد اخترعت أعمالاً لا تنتهي لأبقي باجيت في كيب تاون، لكن خيالي نضب في النهاية، وسوف ينضم إلي غداً وكأنه كلب وفي يأتي ليموت بجانب سيده. كما أنني كنت أتقدم جيداً في مذكراتي؛ وقد اخترعت أقوالاً في غاية الذكاء قالها لي قادة الإضراب وقلتها لهم!

قابلني هذا الصباح مسؤول حكومي. كان مهذباً وغامضاً، وقد ألمح إلى موقعي الرفيع وأهميتي الكبيرة واقترح ضرورة أن أرحل أو يقوم هو بترحيلي إلى بريتوريا. سألته: إذن فأنت تتوقع حدوث مشكلات؟

وقد صاغ جوابه بشكل لا يجعل له معنى على الإطلاق، ولذلك عرفت أنهم يتوقعون متاعب خطيرة، وأخبرته بأن حكومته قد تركت الأمور تسير دون ضابط.

- توجد حكمة -يا سير يوستيس- تقول: أعطِ المرء حبلاً كافياً، واتركه يشنق نفسه.

- آه، تماماً، تماماً.

- ليس المضربون أنفسهم هم الذين يسببون المتاعب، بل توجد منظمة تعمل وراءهم. إن الأسلحة والمتفجرات تتدفق، وقد أمسكنا بمستندات معينة تلقي الكثير من الضوء على الأساليب المستخدمة في استيرادها باستخدام رموز منتظمة؛ فالبطاطا تعني «الصواعق»، والقرنبيط تعني «البنادق»، وخضراوات أخرى تعني متفجرات مختلفة.

قلت: هذا مثير جداً.

- وأكثر من هذا يا سير يوستيس، فلدينا سبب وجيه للاعتقاد بأن الرجل الذي يدير العمل كله (وهو العقل الموجه للمسألة) موجود في هذه اللحظة في جوهانسبرغ.

حدّق إلي بقوة جعلتني أخشى أن يكون قد شك في أنني أنا الرجل المقصود. بدأ العرق يتصبب منّي بسبب هذه الفكرة وبدأت أشعر بالندم على تفكيري أصلاً بفكرة دراسة ثورةٍ صغيرةٍ بشكل مباشر وعلى أرض الواقع.

أكمل حديثه: لا توجد قطارات ذاهبة من جوهانسبرغ إلى بريتوريا، لكنني أستطيع إرسالك إلى هناك بسيارة خاصة. وفي حال إيقافك في الطريق يمكنني إعطاؤك رخصتَيْ مرورٍ منفصلتين، إحداهما صادرة من الحكومة الاتحادية والأخرى توضح أنك زائر إنكليزي ولا علاقة لك بالاتحاد.

- واحدة أُبرزها لجماعتكم وواحدة للمضربين، أليس كذلك؟

- تماماً.

لم يَرُقْ لي ذلك المشروع؛ فأنا أعرف ما يحدث في مثل هذه الأحوال... يرتبك المرء ويخلط الأشياء بعضها ببعض، ويمكن أن أُبرز الرخصة الخطأ للشخص غير المقصود وسينتهي الحال إلى قتلي بسرعة على يد ثائر متعطش للدماء، أو أحد مؤيدي القانون والنظام الذين رأيتهم يحرسون الشوارع لابسين القبعات السوداء وهم يدخنون الغليون ويحملون البنادق دون اكتراث. وإلى جانب ذلك ماذا كنت سأفعلُ في بريتوريا؟ هل أجلس معجباً بالفن المعماري في مباني الاتحاد وأستمع لأصوات رماية الطلقات النارية حول جوهانسبرغ؟ كنت سأحتجز هناك لمدة لا يعلمها إلاّ الله. لقد سمعت أنهم فجروا خط السكة الحديدية أصلاً، وقد أخضعوا المنطقة لقانون الطوارئ قبل يومين.

قلت: يبدو يا عزيزي أنك لا تدرك أنني أدرس الأوضاع في الراند. وكيف يمكنني دراستها من بريتوريا؟ إنني أقدر اهتمامك بسلامتي ولكن لا تقلق علي، فسأكون على ما يرام.

- أنا أحذرك يا سير يوستيس بأن مسألة الغذاء خطيرة للغاية.

قلت متنهداً: إن قليلاً من الصيام سيحسن من شكلي.

قوطع حديثنا ببرقية سُلمت إليّ، وقرأتها ذاهلاً: "آن بخير. إنها معي هنا في كيمبرلي. سوزان بلير".

لا أظن أنني صدقت أبداً مقتل آن حقيقة؛ ففي هذه المرأة شيء غريب لا يمكن تحطيمه... إنها أشبه بتلك الكرة المطاطية التي تُعطى

للكلاب ليلهوا بها، ولا تتمزق أبداً. إن لديها موهبة عجيبة في أن تنقلب مبتسمة. ولكن ما زلت لا أفهم لماذا كان لزاماً عليها أن تخرج من الفندق في منتصف تلك الليلة لكي تذهب إلى كيمبرلي، وأيضاً لم يكن أي قطار ذاهباً هناك وقتها. لا بد أنها لبست أجنحة وطارت إلى هناك. ولا أظنها ستفسر ذلك... بل إن أحداً لا يفسر شيئاً... لي أنا! كان عليّ دائماً أن أخمن، وهذا يصبح أمراً رتيباً مملاً بعد فترة. أظن أن سرّ اختفائها يكمن في مقتضيات الصحافة. "كيف أمسكت بالمجرم"... من مراسلتِنا الخاصة!

طويت البرقية وتخلصت من صديقي الحكومي. لا أحب تصور حالي وأنا جائع لكني لست قلقاً على سلامتي الشخصية؛ إن سماتز قادر تماماً على التعامل مع الثورة.

لبست قبعتي وخرجت لشراء بعض التحف التذكارية. إن محلات التحف في جوهانسبرغ رائعة، وقد كنت أنظر إلى إحدى الواجهات المليئة بأثواب الكاروس المهيبة عندما اصطدم بي رجل خرج من المحل، ولشدة دهشتي كان هذا الرجل هو رايس!

لا أستطيع مدح نفسي بالقول إنه بدا مسروراً لرؤيتي. بل إنه -في الحقيقة- بدا واضح الانزعاج، ولكني أصررت على أن يصطحبني في طريق عودتي إلى الفندق. لقد سئمت من عدم وجود أحد أتحدث معه غير الآنسة بيتيغرو.

قلت من باب فتح حديث: لم أكن أعرف أنك موجود في جوهانسبرغ. متى وصلت؟

- الليلة الماضية.

- أين تقيم؟

- مع أصدقاء.

كان ميّالاً إلى التكتم بطريقة غريبة، وبدا مرتبكاً من أسئلتي.

قلت: أرجو أن يكونوا من مربي الدواجن. إن حميةً تتألف من بيض طازج وديك كبير من وقت لآخر ستكون قريباً أمراً مرغوباً جداً... من كل ما سمعته.

قلت عندما وصلنا إلى الفندق: على فكرة، هل سمعت أن الآنسة بيدنغفيلد في قيد الحياة؟

أومأ برأسه بالإيجاب، فقلت: لقد أصابتنا بذعر حقيقي. أين عساها ذهبت في تلك الليلة؟

- كانت في الجزيرة طوال الوقت.

- أي جزيرة؟ لا تقل لي إنها تلك التي يعيش فيها ذلك الشاب؟

- نعم.

- هذا غير لائق. سيصاب باجيت بالصدمة؛ فقد كان دائم الاستياء من آن بيدنغفيلد. أظن أن هذا هو الشاب الذي أرادت الالتقاء أصلاً به في دربان؟

- لا أعتقد ذلك.

قلت من باب تشجيعه: لا تخبرني أي شيء لا تريد إخباري به.

- أظنه شاباً سنكون مسرورين جميعاً لو أمسكنا به.

صحتُ وقد زاد انفعالي: لا تقل لي إنه...؟

أومأ برأسه وقال: هاري رايبرن، واسمه الآخر هاري لوكاس... وهذا هو اسمه الحقيقي. لقد أفلت منّا جميعاً مرة ثانية، لكننا على وشك القبض عليه قريباً.

همست: يا إلهي، يا إلهي!

- إننا لا نشتبه في اشتراك الفتاة معه بأية قضية؛ فالأمر من جانبها... مجرد علاقة غرامية.

لقد أحسستُ دوماً أن رايس يحب آن، وقد أكدت لي ذلك الطريقة التي قال بها تلك الكلمات الأخيرة.

أكمل بعجلة: لقد ذهبَتْ إلى بيرا.

قلت محدقاً إليه: أحقاً؟ كيف عرفت؟

- لقد كتبَتْ إليّ من بولاوايو تخبرني بأنها عائدة إلى الوطن من ذلك الطريق، وهذا أفضل ما تستطيع عمله تلك الفتاة المسكينة.

قلت متأملاً: لا أظن أنها موجودة في بيرا.

- عندما كتبَتْ لي كانت على وشك الانطلاق إلى هناك.

كنت متحيراً. من الواضح أن أحدهما كان يكذب، ومن غير استبعاد أن آن قد يكون لها أسباب وجيهة لأقوالها المضلِّلة، فقد استسلمتُ لمتعة تسجيل النقاط ضد رايس. إنه دائماً واثقٌ أكثر ممّا ينبغي. أخرجت البرقية من جيبي وسلمتها له.

سألته بلا مبالاة: إذن كيف تفسر هذه؟

بدا مذهولاً، ثم قال: لقد قالت إنها ذاهبة لتوها إلى بيرا.

أعرف أن من المفترض أن يكون رايس ذكياً، ولكنه -برأيي-

غبي بعض الشيء؛ فهو لم يخطر بباله أبداً أن الفتيات لا يقلن الحقيقة دائماً.

تمتم: كيمبرلي أيضاً. ماذا يفعلن هناك؟

- نعم، لقد فاجأني هذا. كنت أحسب أن الآنسة آن ستكون في خضم الأحداث هنا تجمع التقارير لصحيفة الديلي بدجيت.

مرة أخرى قال: كيمبرلي؟!

بدا أنه تضايق من هذه المدينة. لا يوجد هناك شيء تراه، والحفر في الطرق لم تُسوَّ بعد.

- أنت تعرف كيف هن النساء.

هز رأسه وخرج. كان واضحاً أنني جلبت له شيئاً يفكر فيه. ولم يمض وقت طويل على مغادرته حتى عاد المسؤول الحكومي ثانية.

- أرجو أن تسامحني على إزعاجي لك ثانية سير يوستيس، ولكن لديّ سؤال أو سؤالان أريد أن أسألك إياهما.

قلت مبتهجاً: تفضل يا عزيزي... اسأل ما بدا لك.

- إنه أمر يتعلق بسكرتيرك...

قلت بعجلة: لا أعرف عنه شيئاً؛ فقد فرض نفسه عليّ وأنا في لندن، وسرق مني أوراقاً ثمينة (سأنال التأنيب عليها) ثم اختفى في كيب تاون كالساحر. صحيح أنني كنت في منطقة الشلالات في نفس الوقت الذي كان هو فيها، ولكني كنت في الفندق وأستطيع أن أؤكد لك بأنني لم أره طوال الوقت الذي كنت فيه هناك.

سكتُّ لأخذ نفس فقال: لقد أسأتَ فهمي. ليس هذا من قصدته.

صحت مذهولاً: ماذا؟ باجيت؟ إنه يعمل معي، منذ ثماني سنوات... وهو شخص موثوق جداً.

ابتسم محدثي وقال: ما زلنا غير متفاهمين. إنني أعني السيدة.

- الآنسة بيتيغرو؟

- نعم. لقد شوهدت وهي تخرج من محل أغراساتو للتحف الوطنية.

- يا إلهي! لقد كنتُ على وشك دخول ذلك المحل بعد ظهر هذا اليوم، وربما كان من شأنك أن تمسكني أنا وأنا خارج منه!

يبدو أنه لا يوجد في جوهانسبيرغ شيء بريء يمكن أن يفعله المرء دون الاشتباه به.

- آه! ولكنها شوهدت هناك أكثر من مرة... وفي ظروف مريبة. وقد أُخبرك أيضاً -بيني وبينك يا سير يوستيس- بأن المكان مشبوه باعتباره مكاناً معروفاً للقاءات التي تجريها المنظمة السرية التي تقف وراء هذه الثورة، وسأكون مسروراً لو سمعت منك كل ما تستطيع أن تخبرني به عن هذه المرأة. أين وكيف وظفتها عندك؟

أجبته ببرود: لقد أعارتها لي حكومتك.

انهار محدثي تماماً.

* * *

الفصل الثلاثون

(آن تستأنف روايتها)

أبرقتُ إلى سوزان حالما وصلت إلى كيمبرلي، وقد جاءتني إلى هناك بسرعة خيالية وأعلنت عن وصولها ببرقيات أرسلتها قبل أن تصل. لقد فوجئتُ تماماً إذ اكتشفت أنها تحبني كثيراً... كنت أظن علاقتي معها مجرد حدث جديد في حياتها، ولكن عندما التقيت بها ألقت بنفسها علي تعانقني وذرفت عيناها.

وعندما عدنا إلى حالتنا الطبيعية بعد الانفعال جلست على السرير وأخبرتها بالقصة كلها من ألفها إلى يائها.

قالت متأملة بعد أن انتهيت: كنتِ دائماً تشكّين في الكولونيل رايس، ولكني لم أشك فيه إلى أن جاءت الليلة التي اختفيت فيها. لقد أعجبني كثيراً منذ البداية ورأيت أنه قد يكون زوجاً مناسباً لك. آه، لا تغضبي يا عزيزتي آن، ولكن كيف تعرفين أن الشاب صاحبك هذا يقول الحقيقة؟ أنت تصدقين كل كلمة يقولها.

صحت ساخطة: أصدقه بالطبع.

- ولكن ما هو الشيء الذي جذبك فيه؟ لا أرى أن فيه أي شيء

يجذب سوى شكله القاسي الجميل وأسلوبه البدائي في الحب.

صببت كل غضبي على سوزان لبعض الوقت، ثم أنهيت كلامي قائلة: لمجرد أنك مرتاحة في زواجك وتزدادين سمنة، فقد نسيتِ أنه يوجد شيء اسمه الرومانسية.

- آه، أنا لا أزداد سمنة يا آن؛ لا بد أن القلق الذي انتابني عليك مؤخراً قد أضعفني تماماً.

قلت ببرود: أنت تبدين في عافية ممتازة، وأحسب أن وزنك قد ازداد بعض الشيء.

قالت سوزان بصوت كئيب: كما أنني لستُ مرتاحة كثيراً في زواجي أيضاً. إنني أتلقى برقيات رهيبة من كلارنس تأمرني بالعودة إلى البيت على الفور، وفي نهاية الأمر لم أعد أرد عليها والآن لم تصلني منه برقية منذ أكثر من أسبوعين.

أخشى أنني لم أحمل متاعب سوزان الزوجية على محمل الجد. سيكون بإمكانها أن تراضي كلارنس تماماً عندما يحين الوقت. وحولت الحديث إلى موضوع الألماس.

نظرت سوزان إليّ وقد فغرت فمها وقالت: لا بد أن أوضح لك الأمر يا آن. حالما بدأت أشك في الكولونيل رايس قلقت كثيراً على أمر الألماس، وكنت أريد البقاء في منطقة الشلالات لأنني شككت بأنه قد يكون خطفك إلى مكان قريب، ولكني لم أعرف ماذا أفعل بالألماسات. كنت خائفة من الاحتفاظ بها عندي...

نظرت سوزان حولها خائفة، وكأنها كانت تخاف أن يكون للجدران آذان، ثم همست في أذني -بحماسة- بضع كلمات.

وافقتها قائلة: فكرة جيدة تماماً، أعني في ذلك الوقت، إلاّ أنها غريبة الآن بعض الشيء. وماذا فعل السير يوستيس بالصناديق؟

- أُرسلت الكبيرة منها إلى كيب تاون. لقد أخبرني باجيت بذلك في رسالة قبل أن أغادر الشلالات وقد أرفق مع الرسالة وصلاً بتخزينها. وعلى فكرة، سيغادر كيب تاون اليوم لينضم إلى السير يوستيس في جوهانسبرغ.

قلت متأملة: فهمت. وأين الصناديق الصغيرة؟

- أظن أن السير يوستيس أخذها معه.

قلّبت النظر في المسألة، وأخيراً قلت: هذا فظيع... ولكنه تصرف مأمون تماماً. من الأفضل أن لا نفعل شيئاً في الوقت الحالي.

نظرت سوزان إليّ مبتسمة وقالت: أنت لا تحبين عدم فعل شيء يا آن؟

أجبتها صادقة: لا أحب ذلك كثيراً.

الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع عمله هو الحصول على جدول مواعيد القطارات لنرى متى يمر قطار غاي باجيت من كيمبرلي، وقد وجدت أنه سيصل الساعة الخامسة وأربعين دقيقة بعد ظهر الغد ثم يغادر ثانية الساعة السادسة. كنت أريد رؤية باجيت في أسرع وقت ممكن وقد بدت لي هذه فرصة جيدة. كان الوضع في الراند يزداد خطورة وقد يمضي وقت طويل قبل حصولي على فرصة أخرى.

الشيء الوحيد الذي جعل اليوم يبدو حيوياً كانت برقية أُرسلت من جوهانسبرغ. كانت تبدو برقية عادية: "وصلت بأمان. كل شيء يجري بشكل طبيعي. إيريك هنا وأيضاً يوستيس ولكن ليس غاي. ابقي حيث أنتِ في الوقت الحالي. أندي".

كان إيريك هو الاسم المتعارف عليه بيننا لرايبر، وقد اخترته لأنه اسم كنت أكرهه كثيراً. كان واضحاً عدم وجود شيء أفعله إلى أن أتمكن من رؤية باجيت، وقد شغلت سوزان نفسها بكتابة برقية تهدئة طويلة إلى كلارنس البعيد. لقد أصبحت مشاعرها مرهفة تجاهه؛ فهي مغرمة بكلارنس كثيراً بطريقة تختلف عن طريقتي مع هاري. قالت: أتمنى لو أنه هنا يا آن. لقد مضى وقت طويل على فراقنا.

قلت أهدئها: سوزان، قريباً ستكونين قد انتهيت من جنوب أفريقيا ومن المغامرة.

قالت سوزان حزينة: أريد قبعة جميلة. هل آتي معك غداً للقاء غاي باجيت؟

- أفضل الذهاب وحدي؛ فسيكون أكثر خجلاً لو أراد الحديث أمامنا نحن الاثنتين.

وهكذا كنت أقف عند مدخل باب الفندق بعد ظهر اليوم التالي أحاول جاهدة فتح مظلة الشمس التي أبت أن تفتح بينما كانت سوزان مستلقية في سريرها بهدوء تقرأ كتاباً وبجانبها سلة من الفواكه.

وحسب كلام عامل الفندق فإن القطار يسير بشكل طبيعي اليوم وسيصل في الوقت المحدد تقريباً، رغم أنه كان متشككاً جداً إن كان

سيتمكن من مواصلة طريقه إلى جوهانسبرغ؛ فقد أكد لي جازماً بأن خط السكة الحديدية قد تم تفجيره. وبدا ذلك مُفرحاً!

وصل القطار متأخراً عشر دقائق فقط. الجميع بدأ يخرج إلى الرصيف ويتحرك بنشاط جيئة وذهاباً، ولم أجد صعوبة في رؤية باجيت. دنوت منه متلهفة، وقد جفل جفلته المعتادة التي كانت تصدر منه عندما يراني... وكانت زائدة بعض الشيء هذه المرة.

- يا إلهي، لقد فهمت أنك اختفيت يا آنسة بيدنغفيلد!

أخبرته بهدوء: لقد ظهرتُ ثانية. وكيف حالك يا سيد باجيت؟

- بخير، أشكرك. إنني أتطلع لمواصلة عملي مع السير يوستيس ثانية.

- لديّ شيء أودّ سؤالك عنه يا سيد باجيت. أرجو أن لا تتضايق، ولكن الكثير من الأمور مرهونة به، أكثر مما يمكنك تصوره. أريد أن أعرف ماذا كنت تفعل في مارلو يوم الثامن من كانون الثاني الأخير؟

حدّق غاضباً: ما هذا يا آنسة بيدنغفيلد... إنني... الحقيقة...

- لقد كنتَ هناك، أليس كذلك؟

- لقد... كنت في الجوار لأسباب خاصة بي، بلى.

- ألا تقول لي ما هي تلك الأسباب؟

- ألم يخبرك السير يوستيس أصلاً؟

- السير يوستيس؟ وهل يعرف؟

- أنا متأكد تقريباً من أنه يعرف. كنت أرجو أن لا يكون قد ميّزني،

ولكن من التلميحات التي كان يلمح بها وكلامه فإنني أخشى أن هذا أكيد. على أية حال كنت أعتزم مصارحته بالأمر وعرض استقالتي عليه. إنه رجل غريب الأطوار يا آنسة بيدنغفيلد، ذو روح فكاهية شاذة، ويبدو أنه يسلي بإبقائي معلقاً بالمسامير. أحسب أنه كان يدرك الحقائق تماماً منذ البداية، وربما قد عرف هذه الأشياء منذ سنوات.

كنت أرجو أن أستطيع عاجلاً أم آجلاً فهم الموضوع الذي يتحدث عنه باجيت. أكمل حديثه بطلاقة: من الصعب على رجل بمكانة السير يوستيس أن يضع نفسه مكاني. أعرف أنني كنت الملوم، ولكنه بدا خِداعاً غير مؤذ، وكان الأَولى به أن يصارحني مباشرة... بدلاً من إلقاء النكات المُقنَّعة على حسابي.

دوّى صفير القطار وبدأ الركاب يعودون إلى القطار.

- نعم يا سيد باجيت. أنا متأكدة أنني أتفق معك في كل ما تقوله عن السير يوستيس، ولكن لماذا ذهبت إلى مارلو؟

- كان خطأ مني، ولكنه طبيعي في مثل تلك الظروف... نعم، ما زلت أشعر أنه كان عملاً طبيعياً في تلك الظروف.

صحت يائسة: أية ظروف؟

لأول مرة بدا أن باجيت أدرك أنني أسأله سؤالاً. تخلى عن التفكير في غرابة أطوار السير يوستيس وتبرئة نفسه وبدأ يركز تفكيره علي. قال بصلابة: أرجو عفوك يا آنسة بيدنغفيلد، ولكني لا أفهم سبب اهتمامك في هذه المسألة.

كان قد عاد إلى القطار الآن ويتحدث معي وهو يحني جسمه إلى

أسفل. أحسست باليأس؛ فماذا يمكن للمرء أن يفعل حيال رجل كهذا؟ قلت مُناكِفةً: يمكنك بالطبع إن كان ما ستقوله فظيعاً بحيث تخجل من قوله لي...

وجدتُ في النهاية المفتاح المناسب لدفعه للكلام. تصلب باجيت واحمرّ وجهه غضباً وقال: فظيع؟ أخجل؟ لا أفهم ما تقولين.

- إذن أخبرني.

أخبرني بثلاث جمل قصيرة. وفي النهاية عرفت سر باجيت، ولم يكن ذلك ما توقعته أبداً!

عدت إلى الفندق مشياً على الأقدام ببطء، وهناك سلموني برقية فتحتها. كانت تحتوي على تعليمات واضحة وكاملة للتوجه إلى جوهانسبرغ، أو بالأحرى إلى محطة معينة في جوهانسبرغ حيث ستلاقيني هناك سيارة. ولم تكن موقعة باسم أندي بل باسم هاري.

جلست على الكرسي أفكر تفكيراً جاداً.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

(من مفكرة السير يوستيس بيدلار)

جوهانسبرغ، السابع من آذار (مارس) :

وصل باجيت. إنه بالطبع خائف جبان، وقد اقترح على الفور أن نذهب إلى بريتوريا. ولكن عندما أخبرته -بلطف وحزم في آن واحد- بأننا سنبقى هنا انقلب تماماً وتمنى لو أن معه بندقيته هنا، وبدأ يتبجح ويتحدث عن جسر كان يحرسه أثناء الحرب العظمى، وكان جسراً لخط السكة الحديدية في بلدة باديكوم عند ملتقى الطرق فيها أو شيئاً من هذا.

قاطعته على الفور طالباً منه إخراج آلة الطباعة الكبيرة من صندوقها. رأيتُ أن ذلك سيشغله لبعض الوقت، لأن آلة الطباعة لا بد أن تكون قد خربت -كشأنها دائماً- وكان سيتوجب عليه أخذها لإصلاحها في مكان ما. لكنني كنت قد نسيت قدرة باجيت في الاحتياط لهذه الأمور.

- لقد أخرجتُ جميع الأغراض من كل الصناديق يا سيدي، وآلة الطباعة في حالة ممتازة.

- ماذا تعني بقولك... كل الصناديق؟

- الصندوقين الصغيرين أيضاً.

- ليتك تكون قليل اللهفة على تقديم خدمات لا يريدها أحد يا باجيت. لا شأن لك بهذين الصندوقين الصغيرين؛ فهما للسيدة بلير.

بدا باجيت خائب الأمل؛ فقد كان يكره ارتكاب أي خطأ. أكملت: لذلك يجب حزم الأغراض فيهما مرة أخرى وبترتيب، وبعد ذلك يمكنك الخروج والتنزه. ربما تكون جوهانسبرغ غداً كومة أبنية مدمرة يتصاعد منها الدخان، ولذلك قد تكون هذه فرصتك الأخيرة لرؤيتها.

اعتقدت أن ذلك سيخلصني منه طوال الصباح، ولكنه قال: عندي شيء أود قوله لك عندما يكون عندك وقت فراغ يا سيدي.

قلت بسرعة: ليس عندي وقت فراغ الآن... في هذه الدقيقة ليس عندي أي وقت فراغ على الإطلاق.

انسحب باجيت، فناديته قائلاً: على فكرة، ماذا كان يوجد في صناديق السيدة بلير؟

- بعض ملابس الفرو و... قبعات فراء على ما أظن.

وافقته: هذا صحيح. لقد اشترتها وهي في القطار. إنها قبعات... من نوع ما! لن أعجب لعدم تمييزك لها كقبعات. وماذا غير ذلك؟

- بعض بكرات الأفلام وبعض السلال... الكثير من السلال...

- هذا هو المُتوقع؛ فالسيدة بلير من أولئك النساء اللاتي لا يشترين أبداً أقل من دزينة من أي شيء.

- أحسب يا سيدي أن هذا كل ما في الصندوقين ما عدا بعض النثريات المتنوعة، غطاء سيارة وبعض القفازات الغريبة...

- لولا أنك غبي من يوم مولدك يا باجيت لفهمتَ من البداية أنها لا يمكن أن تكون أغراضاً خاصة بي.

- كنت أعتقد أن بعضها ربما كان للآنسة بيتيغرو.

- آه، لقد ذكّرتني... ماذا تقصد من وراء اختيارك امرأة مريبة كسكرتيرة لي؟

أخبرته عن الاستجواب الذي خضعت له، وعلى الفور شعرتُ بالأسف؛ فقد رأيت في عينيه التماعة تقول: لقد كنت أعرف ذلك جيداً. غيرت مجرى الحديث بسرعة، ولكن الوقت كان قد تأخر؛ فقد كان باجيت غاضباً.

ثم شرع يضجرني بقصة طويلة لا معنى لها عن كيلموردن. كانت عن بكرة أفلام وعن رهان، وقال لي إن بكرة الأفلام قد أُلقيت من خلال كُوّة في منتصف الليل من قبل مضيفٍ جاهل. إني أكره المزاح السمج، وقد أخبرت باجيت بذلك، فبدأ يقص علي الحكاية كلها مرة أخرى. وعلى أية حال فإنه يروي القصص بطريقة رديئة تماماً، وقد مرّ وقت طويل قبل أن أفهم رأس القصة من ذيلها.

لم أره بعدها إلاّ عند ساعة الغداء. وقتَها جاء مليئاً بالانفعال مثل كلب صيد يلاحق طريدة، والقصة باختصار أنه شاهد رايبرن.

صحت مذعوراً: ماذا؟

نعم، لقد لمح شخصاً كان متأكداً أنه رايبرن وكان يقطع الشارع وقام بتتبعه. ثم سألني: ومع مَن -باعتقادك- رأيته يقف ويتحدث؟ مع الآنسة بيتيغرو!

- ماذا؟

- نعم يا سير يوستيس. وهذا ليس كل شيء، فقد كنت أقوم بالاستعلام عنها...

- انتظرْ قليلاً. ما الذي حدث لرايبرن؟

- دخل هو والآنسة بيتيغرو إلى محل التحف ذاك عند الزاوية...

صدرت عني صيحة عجب لا إرادية، وسكت باجيت متسائلاً فقلت: لا شيء، أكمل.

- انتظرت في الخارج طويلاً، ولكنهما لم يخرجا. وفي نهاية الأمر دخلت، ولم يكن في المحل أحد! لا بد أن له مخرجاً آخر.

حدقت إليه فيما مضى قائلاً: كما كنت أقول، عدتُ إلى الفندق وقمت بعمل بعض الاستعلامات عن الآنسة بيتيغرو.

كان باجيت قد خفض صوته وتنفس بصعوبة (وهو ما يفعله دائماً عندما يريد أن يفضي لي بشيء خاص): سير يوستيس، لقد شوهد رجل يخرج من غرفتها الليلة الماضية.

رفعت حاجبي دهشة وتمتمت: وأنا الذي كنت أعتبرها دائماً سيدة محترمة!

أكمل باجيت دون اكتراث: ذهبتُ إلى غرفتها مباشرة وفتشتها. وماذا تظنني وجدت؟

هززت رأسي متسائلاً فقال: "هذا!"، وقدّم لي آلة حلاقة ومعجون حلاقة قائلاً: ماذا تعمل امرأة بهذه الأشياء؟

لم أكن أعتزم مجادلته في هذا الموضوع، إلاّ أنني رفضت اعتبار العثور على آلة حلاقة في غرفة الآنسة بيتيغرو دليلاً ضدها.

- أنت لست مقتنعاً يا سير يوستيس، ولكن ماذا تقول في هذه؟

نظرت إلى الشيء الذي كان يدلّيه عالياً وهو مبتهج. قلت باستياء: كأنها شعر.

- إنها شعر... وأحسب أنها ما يسمونه باروكة.

- بالفعل.

- والآن هل اقتنعتَ بأن بيتيغرو في حقيقتها رجل متخفٍ في شكل امرأة؟

- أظن -يا عزيزي باجيت- أنني مقتنع بذلك. كان عليّ أن أميز ذلك من قدميها.

- انتهينا إذن. والآن يا سيدي، أريد أن أتحدث معك عن أموري الخاصة، لا أشك -من خلال تلميحاتك وإشاراتك الضمنية الكثيرة إلى فترة وجودي في فلورنسا- في أنك قد اكتشفت عنّي شيئاً.

أخيراً سيكشف الغطاء عن الذي فعله باجيت في فلورنسا!

قلت بلطف: تكلم وأزِح هذا الهم عن صدرك يا عزيزي، فهذه أفضل طريقة.

- أشكرك يا سير يوستيس.

- أهو زوجها؟ إن الأزواج مزعجون؛ دائماً يظهرون من حيث لا يتوقع المرء.

- أنا لا أفهمك يا سير يوستيس... زوج مَن؟

- زوج السيدة.

- أية سيدة؟

- ما بالك يا باجيت؟ السيدة التي التقيت بها في فلورنسا. لا بد من وجود امرأة في الأمر. لا تقل لي إنك قد اكتفيت بسرقة كنيسة أو طعنت إيطالياً في ظهره لمجرد أن شكله لم يعجبك.

- إنني عاجز عن فهمك سير يوستيس... أظن أنك تمزح.

- أحياناً أكون رجلاً مسلّياً عندما أتحمل عناء المحاولة، ولكني أؤكد لك أنني لا أحاول أن أبدو مسلّياً هذه اللحظة.

- كنت أرجو أن أكون بعيداً عنك بعداً لا تستطيع معه تمييزي يا سيدي.

- تمييزك أين؟

- في مارلو، يا سير يوستيس.

- في مارلو؟ وماذا كنت تفعل بالله عليك في مارلو؟

- ظننتُ أنك فهمت أن...

- لقد بدأتُ لا أفهم شيئاً. عُد إلى القصة من بدايتها واحكها لي مرة أخرى. ذهبتَ إلى فلورنسا...

- إذن فأنت لا تعرف... ولم تميزني في نهاية المطاف!

- يبدو -فيما أرى- أنك قد فضحت نفسك دون حاجة وجعلك ضميرك جباناً، ولكني سأتمكن من الحكم أفضل عندما أسمع الرواية كلها. والآن، خذ نفَساً عميقاً وابدأ ثانية. ماذا حدث بعد أن ذهبتَ إلى فلورنسا...

- ولكني لم أذهب إلى فلورنسا. هذا هو لب الموضوع.

- حسناً، أين ذهبت إذن؟

- ذهبت إلى البيت... إلى مارلو.

- ولماذا ذهبت إلى مارلو؟

- أردت أن أرى زوجتي. كانت مريضة وتتوقع...

- زوجتك؟ لكني لم أعرف أنك كنت متزوجاً!

- نعم يا سيدي، هذا ما أريد أن أقوله لك. لقد خدعتُك في هذه المسألة.

- منذ متى وأنت متزوج؟

- منذ أكثر من ثمانية أعوام. كان قد مضى على زواجي ستة أشهر فقط عندما عملت سكرتيراً لك. وقد خشيت أن أفقد الوظيفة؛ فالسكرتير المقيم يجب أن لا يكون متزوجاً، ولذلك كتمت الحقيقة.

- إنك تفاجئني. وأين كانَتْ زوجتك كل تلك السنوات؟

- كان لنا بيت صغير على النهر في مارلو قرّب ميل هاوس، وذلك منذ أكثر من خمس سنوات.

- يا إلهي! هل من أطفال؟

- أربعة أطفال يا سير يوستيس.

حدقت إليه مذهولاً. كان ينبغي أن أعرف من البداية أن رجلاً كباجيت لا يشعر بالذنب لسر يكتمه. لقد كان الاحترام الذي يبدو على باجيت هو مصدر اللعنة التي تلاحقني دائماً؛ فهذا -بالضبط- هو النوع من الأسرار التي يمكن أن يخفيها... زوجة وأربعة أطفال.

سألته أخيراً عندما نظرت إليه فترة طويلة باهتمام شديد: هل أخبرت أحداً غيري بذلك؟

- الآنسة بيدنغفيلد فقط؛ لقد جاءت إلى المحطة في كيمبرلي.

واصلت النظر إليه بإمعان. وقد تململ من نظراتي تلك وقال: أرجو أن لا تكون قد تضايقت يا سير يوستيس؟

- يا صاحبي العزيز، إنني لا أجد حرجاً من أن أقول لك دون مواربة إنك قد أفسدت الحكاية تماماً!

خرجتُ متكدراً تماماً، وعندما مررت من أمام محل التحف في الزاوية هاجمني إغراء مفاجئ لم أستطع مقاومته فدخلت المحل. وجاءني صاحب المحل متذللاً وهو يفرك يديه قائلاً: هل يمكنني تقديم أي شيء لك؟ فراء، تحف؟

- أريد شيئاً غير عادي؛ شيئاً من أجل مناسبة خاصة. هل يمكنك أن تريني ما عندك؟

- هلاّ أتيت إلى غرفتي الخلفية؟ لدينا الكثير من السلع الفريدة هناك.

هناك ارتكبت الخطأ، وأنا الذي كنتُ أظن أنني سأكون ذكياً جداً. تبعته إلى الغرفة خلف الستارة.

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

(آن تستأنف روايتها)

واجهتُ متاعب كبيرة مع سوزان. جادلَتْ وتوسلَتْ، بل حتى إنها بكت قبل أن تتركني أنفذ خطتي، ولكني -في النهاية- أقنعتها برأيي. وعدتْني بأن تنفذ تعليماتي حرفياً وجاءت إلى المحطة تودعني وداعاً باكياً.

وصلتُ إلى وجهتي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. قابلني رجل هولندي قصير أسود اللحية لم أكن قد رأيته من قبل، وكانت معه سيارة تنتظرني ثم انطلقنا. كنت أسمع دوياً غريباً عن بُعد، وسألته عن كنهه فأجابني باقتضاب: "بنادق". إذن كان القتال قد نشب في جوهانسبرغ!

فهمتُ أن وجهتنا كانت منطقة في ضواحي المدينة. انعطفنا ودرنا عدة مرات إلى هناك، وفي كل دقيقة كانت أصوات البنادق تقترب أكثر. كان وقتاً مثيراً، وتوقفنا أخيراً أمام مبنى آيل للسقوط إلى حد ما. فتح لنا البابَ خادمٌ وأشار إليّ دليلي بالدخول.

وقفت مترددة في الصالة الكبيرة القذرة، وتقدمني الرجل وفتح

أحد الأبواب. قال: "السيدة التي تريد رؤية السيد هاري رايرن"... ثم ضحك.

دخلت بعد أن تم تقديمي على هذا النحو. كانت الغرفة قليلة الأثاث تفوح منها رائحة التبغ الرخيص، وكان رجل يجلس خلف مكتب يكتب. وقد رفع بصره ثم رفع حاجبيه دهشة وقال: يا إلهي! أليست هذه هي الآنسة بيدنغفيلد؟

اعتذرت قائلة: لا بد أنني مزدوجة الرؤية؛ أهذا السيد تشيتشيستر أم الآنسة بيتيغرو؟ أرى تشابهاً غريباً بينهما.

- لقد جُمّد العمل بكلا الشخصيتين الآن... لقد خلعت تنورتي... وثوبي الكهنوتي أيضاً. هلاّ جلست؟

جلست رابطة الجأش وقلت: يبدو أنني جئت إلى العنوان الخطأ.

- أخشى أن هذا صحيح من وجهة نظرك الشخصية. الحق يا آنسة بيدنغفيلد أنك ما كان يجب أن تقعي في الفخ للمرة الثانية!

اعترفت بشيء من الخضوع: لم يكن ذلك ذكاء بالغاً من طرفي.

بدا أن شيئاً ما في أسلوبي قد حيّره، فقال بجفاء: ولكنك لا تكادين تظهرين بمظهر المنزعج لذلك.

سألته: وهل من شأن أي بطولات أبديها أن تؤثر عليك؟

- كلا بالتأكيد.

قلت: "لقد كانت عمتي جين تقول دائماً إن المرأة الحقة لا تُصدَم

ولا تُفاجأ لأي شيء قد يحدث"، ثم أضفت بأسلوب حالم: وأنا أسعى لأكون بمستوى مُثُلها.

قرأت رأي السيد تشيتشيستر-بيتيغرو على وجهه واضحاً بحيث أسرعت للحديث مرة أخرى، فقلت له عن طيب خاطر: أنت بارع جداً في التنكر؛ لم أعرفك أبداً طوال تقمصك لشخصية الآنسة بيتيغرو... حتى عندما كسرت قلم الرصاص عندما فوجئت وأنت تراني أتعلق بالقطار في كيب تاون.

ضرب بقلم الرصاص الذي كان يحمله على الطاولة وقال: هذا كله جيد، ولكن يجب أن ندخل في العمل. ربما تخمنين يا آنسة بيدنغفيلد سبب طلبنا حضورك إلى هنا؟

- أرجو المعذرة، ولكني لا أدخل بأي عمل مع أحد سوى الرأس الكبير.

كنت قد قرأت هذه العبارة أو شيئاً مثلها في بعض الروايات، وكنت مسرورةً بها. وقد كان لها -بالتأكيد- تأثير مدمر على السيد تشيتشيستر-بيتيغرو. فتح فمه، ثم أغلقه ثانية.

ابتسمت في وجهه ثم أضفت مستدركة: كان هذا هو شعار العم جورج؛ زوج العمة جين.

أشك أن تشيتشيستر-بيتيغرو قد اغتاظ في حياته أكثر من هذه المرة. لم يَرُق له ذلك أبداً وقال: أحسب أن منَ الحكمة أن تغيّري أسلوبك أيتها الفتاة.

لم أرد عليه، ولكني تثاءبت... ثؤَباءة صغيرة دلّت على شدة

ضجري. وبدأ يقول بقوة: ماذا تظنين أنك...

قاطعته: أؤكد لك أن الصياح في وجهي لا ينفع. نحن نضيع وقتنا هنا؛ فليست عندي أية نية في التحدث مع المرؤوسين. ستوفر على نفسك الكثير من الوقت والإزعاج لو أنك أخذتني إلى السير يوستيس بيدلار مباشرة.

- إلى مَن...

بدا مصعوقاً، وأعدت عليه القول: نعم، إلى السير يوستيس بيدلار.

قال: "إنني... إنني... أرجو المعذرة..."، ثم هرب من الغرفة كالأرنب.

انتهزت هذه الاستراحة فعدّلت قبعتي إلى زاوية أكثر تناسباً، ثم انتظرت بصبر عودة عدوي. وأخيراً جاء بمزاج يشي بالخضوع وقال: هلاّ جئت من هنا يا آنسة بيدنغفيلد؟

تبعته صعوداً على الدرج. قرع باب إحدى الغرف، وجاءت من الداخل كلمة "تفضل" سريعة، ففتح الباب وأشار لي بالدخول.

قفز السير يوستيس بيدلار لتحيتي بلطف وابتسام قائلاً: "حسناً، حسناً، ها هي الآنسة آن". ثم صافحني بحرارة وقال: أنا مسرور لرؤيتك... تعالي واجلسي. هل أنت متعبة بعد رحلتك هذه؟ هذا جيد.

جلس في مواجهتي وهو ما زال متهلل الوجه ممّا جعلني متحيرة؛ فقد كان تصرفه معي طبيعياً تماماً.

أكمل حديثه: كنتِ محقة تماماً في إصرارك على الحضور مباشرة

إليّ أنا. إن مينكس مغفل... ممثل ذكي، ولكنه مغفل. كان ذلك مينكس الذي رأيته في الطابق السفلي.

قلت بوهن: آه، حقاً؟

قال السير يوستيس مبتهجاً: والآن لندخل في الحقائق. منذ متى تعرفين بأنني «الكولونيل»؟

- منذ أن أخبرني السيد باجيت أنه رآك في مارلو في وقت كان يُفترض أن تكون فيه في مدينة كان.

أومأ السير يوستيس برأسه بحزن وقال: نعم، لقد أخبرت المغفل بأنه قد أفسد الأمور تماماً. لم يفهم بالطبع؛ فقد كان كل عقله مركزاً على مسألة ما إذا كنتُ أنا قد ميّزتُه، ولم يخطر بباله أبداً أن يتساءل ماذا كنت أفعل هناك. كان ذلك حظاً سيئاً للغاية؛ لأنني كنتُ قد رتّبت الأمر بكل حرص، فأرسلتُه إلى فلورنسا، وأخبرت الفندق أنني ذاهب إلى مدينة نيس ليلة واحدة وربما ليلتين. وما أن تم اكتشاف جريمة القتل حتى كنت قد عدت ثانية إلى كانْ، دون أن يحلم أحد بأنني غادرت منطقة الريفيرا.

كان ما زال يتكلم بطريقة طبيعية ودون انفعال. كان عليّ أن أقرص نفسي للتأكد من أنني لست أحلم وأن هذا كله كان حقيقة... أن الرجل الجالس أمامي هو المجرم شديد التستر، «الكولونيل».

قلّبت الأمور في نفسي ثم قلت ببطء: إذن فأنت مَن حاول إلقائي عن ظهر سفينة كيلموردن... أنت من تبعه باجيت إلى ظهر السفينة في تلك الليلة؟

رفع كتفيه دون مبالاة وقال: أعتذر لك يا طفلتي العزيزة، أعتذر حقاً. لقد أُعجبتُ بك دوماً... ولكنك كنت تتدخلين في شؤوني بطريقة مزعجة جداً، وما كنت لأسمح بأن تضيع خططي هباء بسبب فتاة صغيرة.

قلت وأنا أحاول النظر إلى المسألة نظرة مجردة: أعتقد أن خطتك عند الشلالات كانت هي الأذكى؛ فقد كنتُ مستعدة تماماً لأن أُقسمَ بأنك كنت في الفندق عندما خرجت أنا. لن أصدق مستقبلاً إلاّ ما تراه عيناي.

- نعم، لقد حقق مينكس واحداً من أعظم نجاحاته بقيامه بدور الآنسة بيتيغرو، وهو يستطيع تقليد صوتي بشكل جيد تماماً.

- بقي أمر واحد أود لو أعرفه.

- وما هو؟

- كيف أقنعتَ باجيت بتوظيفها؟

- آه، كان ذلك بسيطاً للغاية؛ فقد التقَتْ باجيت عند مدخل مكتب المفوض التجاري (أو غرفة تجارة المناجم أو كائناً ما كان المكان الذي ذهب إليه)... وأخبرَتْه بأنني قد خابرت مستعجلاً وأن الدائرة الحكومية المعنية قد اختارتها سكرتيرة لي، وقد تقبل باجيت الأمر بسهولة.

قلت وأنا أتفحصه: أنت صريح جداً.

- لا سبب يدعوني لأكون عكس ذلك.

لم أرتَح للتلميح في عبارته هذه، وسارعت لوضع تفسيري لتلك

العبارة: أنت مؤمن -إذن- بنجاح هذه الثورة؟ لقد أحرقت كل سفنك.

- هذه ملاحظة تفتقر إلى الذكاء، رغم أنها تأتي من فتاة شديدة الذكاء. كلا يا عزيزتي، أنا لا أؤمن بهذه الثورة، بل أتوقع أن تستمر يومين فقط ثم تفشل فشلاً ذريعاً.

قلت بلؤم: ليست حقاً أحد نجاحاتك، أليس كذلك؟

- أنت -كجميع النساء- لا تعرفين شيئاً عن عالم الأعمال. كان عملي الذي توليته هو تقديم متفجرات وأسلحة معينة... مقابل مبلغ كبير من المال، وذلك لإثارة المشاعر بشكل عام ولتجريم أشخاص معينين تماماً. وقد نفّذت عقدي بمنتهى النجاح، وقد حرصت على أن يدفعوا لي مقدماً. لقد اهتممت اهتماماً خاصاً بالأمر كله، إذ أردتُه أن يكون آخر مشروع أقوم به قبل تقاعدي. أما بالنسبة لإحراق سفني (كما أسميتِها) فإنني -ببساطة- لا أعرف ما تعنينه. أنا لست قائد الثورة أو أي شيء من هذا النوع... إنني زائر إنكليزي بارز قاده حظه العاثر إلى دس أنفه والدخول إلى محل تحف معين... فرأى أكثر بقليل مما كان مسموحاً له أن يرى، ولذلك فقد اختُطِف هذا الرجل المسكين. غداً أو بعد غدٍ، عندما تسمح الظروف، سيجدونني مقيداً في مكان ما في حالة يرثى لها من الخوف والجوع.

قلتُ ببطء: آه! ولكن ماذا عن معرفتي أنا بالأمر؟

- هذا هو السؤال... ماذا عن معرفتك أنت؟ أنت عندي هنا. لا أريد تكرار ما هو مُحرج، ولكنني أحضرتك إلى هنا بطريقة محكمة للغاية. السؤال هو: ماذا سأفعل بك؟ إن أبسط طريقةٍ للتخلص منك (وقد أُضيف بأنها أسعد طريقة بالنسبة لي) هي طريقة الزواج. الزوجات لا يستطعن

اتهام أزواجهن، وأنا أحب وجود زوجة شابة جميلة تمسك بيدي وتنظر إليّ بعينين صافيتين... لا تدعيهما يلتمعان نحوي هكذا؛ إنك تخيفينني تماماً! أرى أن هذا المقترَح لا يروق لك؟

- إنه لا يروق لي.

تنهد السير يوستيس وقال: أمر مؤسف! أظن أنها المشكلة المعتادة؛ أنت تحبين شخصاً آخر كما تقول الروايات.

- نعم، أحب رجلاً آخر.

- هذا ما ظننتُه... في البداية كنت أحسب أنه ذلك الحمار المغرور صاحب الساقين الطويلتين رايس، ولكني أحسبه البطل الشاب الذي أخرجك من الشلالات في تلك الليلة. إن النساء عديمات الذوق! إن أياً من هذين الاثنين لا يملك نصف ما لديّ من العقل. إنني شخص من السهل جداً أن يبخسه المرءُ قدرَه!

أظنه كان مصيباً في ذلك، ورغم أنني كنت أعرف أي نوع من الرجال هو إلاّ أنني لم أستطع حمل نفسي على إدراك الحقيقة. لقد حاول قتلي أكثر من مرة، وقتل بالفعل امرأة أخرى، وكان مسؤولاً عما لا يحصى من الأعمال الأخرى التي لا أعرف عنها شيئاً، ومع ذلك لم أكن قادرة على إرغام نفسي على تقمص الحالة الذهنية التي يمكن أن أُقدّر فيها أعماله بالدرجة التي تستحقها. لم أستطع أن أرى فيه أحداً غير رفيق سفرنا المسلي واللطيف، ولم أستطع حتى الشعور بالخوف منه... ومع ذلك كنت أعرف أنه قادر على قتلي بدم بارد إذا رأى في ذلك ضرورة.

قال هذا الرجل الغريب وهو يسند ظهره إلى كرسيه: حسناً، حسناً،

أمر مؤسف أن لا تروق لك فكرة أن تكوني الليدي بيدلار؛ فالبدائل الأخرى قاسية بعض الشيء.

أحسست بشعور مخيف ينخر في عظامي. كنت أعرف طبعاً منذ البداية بأنني أجازف مجازفة كبيرة، ولكن بدا أن الجائزة تستحق ذلك. هل ستنتهي الأمور وفق حساباتي أم لا؟

مضى السير يوستيس قائلاً: حقيقة الأمر هي أن لديّ نقطة ضعف أمامك، ولا أريد -حقاً- اللجوء إلى الإجراءات المتطرفة. ما رأيك أن تقصّي عليّ الحكاية كلها من البداية، ثم سنرى ما يمكننا أن نفعل بعدها. ولكن احذري، دون خيالات رومانسية... أريد الحقيقة.

لم أكن أعتزم ارتكاب أي خطأ في ذلك؛ فأنا أُكِنّ لدهاء السير يوستيس قدراً كبيراً من الاحترام. كانت لحظة لقول الحقيقة، الحقيقة كلها، ولا شيء غير الحقيقة. أخبرته بالحكاية كلها ولم أحذف منها شيئاً، وصولاً حتى لحظة إنقاذي على يدِ هاري.

وعندما انتهيت أومأ برأسه استحساناً وقال: فتاة حكيمة. لقد أفرغتِ كل ما في صدرك، ودعيني أخبرك بأنني كنت سأكشف أمرك بسرعة لو لم تفعلي ذلك. وما كان كثيرٌ من الناس على أية حال ليصدقوا قصتك، وخصوصاً بدايتها، ولكني أصدِّقك. إنك فتاة من النوع الذي ينطلق بهذه الطريقة... دون سابق إنذار، ولدوافع بسيطة جداً. لقد صادفك حظ مذهل بالطبع، ولكن عاجلاً أو آجلاً سيصطدم الهاوي فجأة بالمحترف، ثم تكون النتيجة محسومة، وأنا المحترف! فقد بدأت هذا العمل عندما كنت شاباً صغيراً، ورغم كل الاعتبارات بدت هذه طريقة جيدة للوصول إلى الثراء بسرعة. أستطيع دائماً التفكير بحلول للمشكلات ووضع خطط ذكية... ولم أكن أخطئ أبداً فأحاول تنفيذ خططي بنفسي. كنت دائماً

أوظف الخبير؛ هذا هو شعاري دائماً. وفي المرة الوحيدة التي خرجتُ فيها عن هذا الشعار شعرت بالأسف، لكني لم أستطع وقتها الثقة بأحد ليقوم لي بذلك العمل. كانت نادينا تعرف الكثير. أنا رجل بسيط رقيق القلب وذو مزاج جيد ما دمت لا أجد من يتحداني، وقد تحدتني نادينا وهددتني... في وقتٍ كنت فيه في قمة نجاحي، وكنتُ سأبقى بأمانٍ بمجرد موتها ووقوع الألماسات بيدي. لقد وصلتَ الآن إلى نتيجة مفادها أنني أفسدتُ تلك المهمة. ذاك الأبله باجيت بقصته حول زوجته وعائلته! كانت الغلطة غلطتي... كان توظيفي لذلك الرجل يدغدغ روح المرح والفكاهة لدي. خذيها حكمة لك يا عزيزتي آن: لا تدعي روح الفكاهة لديك تسيطر عليك. كان لديّ إحساس غريزي منذ سنوات بأن من الحكمة التخلص من باجيت، ولكن الرجل كان جاداً في عمله ويعمل بضمير حي إلى الحد الذي لم أجد معه عذراً لفصله، ولذلك تركت الأمور تسير كما هي. ولكننا نبتعد عن الموضوع. السؤال هو: ماذا أفعل بك. كانت روايتك واضحة بطريقة تثير الإعجاب، ولكن بقي شيء واحد لا أعرفه: أين الألماسات الآن؟

قلت وأنا أرقبه: إنها مع هاري رايبرن.

لم تتغير ملامح وجهه، بل حافظ على روح الفكاهة الساخرة وقال: هممم، أريد تلك الألماسات.

- لا أرى لديك فرصة كبيرة في الحصول عليها.

- أحقاً؟ بل لديّ. لا أريد أن أكون كريهاً، ولكني أريدك أن تفكري بأن العثور على فتاة مقتولة في هذه المنطقة من المدينة لن يفاجئ أحداً. في الطابق السفلي رجلٌ يقوم بهذه الأعمال بدقة متناهية، وأنت فتاة واعية. إن ما أقترحه هو التالي: ستجلسين وتكتبين لهاري رايبرن تخبرينه

بأن يأتي إليك هنا ويحضر الألماسات معه.

- لن أفعل شيئاً من ذلك.

- لا تقاطعي من هم أكبر منك سناً. إنني أقترح عقد صفقة معك: الألماسات مقابل حياتك. ولا ترتكبي أي خطأ في حساباتك في هذا الشأن؛ فحياتك طوع يدي دون شك.

- وهاري؟

- أنا أرَقُّ كثيراً من أن أفصل عاشقَين بعضهما عن بعض؛ سيكون حراً هو الآخر... بعد أن نتفاهم بالطبع على أن لا يتدخل أحد منكما في شؤوني في المستقبل.

- وما ضمانتي على أنك ستلتزم بتنفيذ وعدك في هذه الصفقة؟

- لا ضمانة أبداً يا فتاتي العزيزة. سيتعين عليك أن تثقي بي وتأملي خيراً. وبالطبع إذا كنت في مزاج بطولي تفضلين معه الموت فتلك مسألة أخرى.

هذا ما كنت أعمل من أجله. كنت حريصة أن لا أقفز بلهفة على الطُعم، فتركته يهددني ويغريني بحيث استسلمتُ تدريجياً. كتبت ما أملاه عليّ السير يوستيس:

عزيزي هاري،

أعتقد أنني رأيت فرصة لإثبات براءتك دون أي احتمال للشك. أرجو أن تتبع تعليماتي بدقة. اذهب إلى محل أغراساتو للتحف. اطلب أن ترى شيئاً «غير عادي» و«لمناسبة خاصة». سيسألك الرجل عندها بأن «تأتي معه

إلى الغرفة الخلفية». اذهب معه. ستجد رسولاً سيحضرك إليّ. افعل ما يطلبه منك بالضبط. تأكد من أنك أحضرت الألماسات معك. لا تخبر أحداً بشيء.

سكت السير يوستيس ثم قال: سأترك اللمسات العاطفية لخيالك، ولكن احذري من القيام بأي خطأ.

قلت: ستكون عبارة "المخلصة لك إلى الأبد، آن" كافية.

ثم كتبت الكلمات. مدّ السير يوستيس يده لأخذ الرسالة وقرأها بإمعان ثم قال: لا بأس بهذا، والآن العنوان.

أعطيته له. كان ذلك العنوان هو المحل الصغير الذي كان يستلم الرسائل والبرقيات مقابل مبلغ من النقود.

ضرب بيده جرساً على الطاولة، وردّ مينكس على النداء فقال له: أرسل هذه الرسالة على الفور... بالطريق المعتاد.

- حسناً يا كولونيل.

نظر إلى الاسم المكتوب على الظرف. وكان السير يوستيس يراقبه بإمعان، ثم قال: أحسبه صديقاً لك، أليس كذلك؟

- صديقي؟

بدا الرجل مرعوباً.

- لقد تحدثتَ معه حديثاً مطولاً بالأمس في جوهانسبرغ.

- جاء رجل وسألني عن تحركاتك وتحركات الكولونيل رايس،

فأعطيته معلومات مضللة.

- رائع يا عزيزي، رائع. أنا المخطئ إذن.

نظرت صدفة إلى الرجل فيما كان يغادر الغرفة. كان شاحب اللون وكأنه يحس برعب قاتل، وحالما خرج رفع السير يوستيس جهاز الاتصال الداخلي القريب منه وتحدث مع الطابق السفلي: أهذا أنت يا شوارت؟ راقب مينكس؛ يجب أن لا يغادر البيت دون أوامر.

وضع السماعة وقطب جبينه وهو يربت على الطاولة بيده. وبعد لحظات من الصمت قلت: هل لي أن أسألك بضع أسئلة يا سير يوستيس؟

- بالتأكيد. أية أعصاب رائعة هذه التي عندك يا آن! إنك قادرة على إعطاء اهتمام ذكي للأمور في الوقت الذي تبكي فيه معظم الفتيات ويعصرن أيديهن من الذعر.

- لماذا أخذت هاري سكرتيراً لك بدلاً من أن تسلمه إلى الشرطة؟

- كنت أريد تلك الألماسات التعِسة؛ فقد كانت تلك الشيطانة الصغيرة، نادينا، تثير صاحبك هاري عليّ لفائدتها الخاصة، وقد هدّدت بأن تبيعها له إذا لم أعطها السعر الذي أرادته. كانت تلك غلطة أخرى ارتكبتُها أنا... اعتقدتُ أنها ستحضر الألماسات معها في ذلك اليوم، ولكنها كانت أذكى من أن تفعل ذلك. وكان كارتون زوجها ميتاً أيضاً، ولم أعد أملك أي مفتاح يوصلني إلى مكان إخفاء الألماسات. ثم تمكنتُ من الحصول على نسخة من البرقية التي أرسلها إلى نادينا شخص ممن كانوا على ظهر السفينة كيلموردن... إمّا أنه كارتون أو

رايبرن، لا أعرف من منهما. كانت تلك نسخة عن تلك الورقة التي التقطتِها أنتِ عن الأرض وكان مكتوباً فيها نفس الأرقام (٢٢، ١، ١٧) وأوصلتني إلى نفس الاستنتاجات التي وصلتِ أنت إليها. اعتبرتها موعداً مع رايبرن، وعندما حاول يائساً ركوب الباخرة كيلموردن اقتنعت بأنني كنت مصيباً في فهمي، ولذلك تظاهرت بالاقتناع بأقواله وتركته يأتي. وبقيت أراقبه مراقبة لصيقة آملاً أن أعلم المزيد. ثم وجدت أن مينكس يحاول اللعب بمفرده ويتدخل في شؤوني، فأوقفت ذلك على الفور، وعاد ليصبح تحت السيطرة تماماً. كان مزعجاً أن لا أحصل على الغرفة رقم ١٧ وقد أقلقني أن لا أستطيع تحديد دورك أنت. هل كنت تلك الفتاة البريئة كما تبدين، أم أنك غير ذلك؟ عندما انطلق رايبرن للوفاء بالموعد في تلك الليلة طلبت من مينكس أن يذهب ليعترض سبيله، وقد فشل مينكس في هذه المهمة بالطبع.

- ولكن لماذا كانت البرقية تقول "١٧" بدلاً من "٧١"؟

- لقد وجدتُ تفسيراً لذلك. لا بد أن كارتون قد أعطى موظف البرقيات مذكرته الخاصة لكي ينسخها على النموذج الخاص بالبرقيات، ولم يقرأ النسخة ويدققها. وقد ارتكب الموظف الخطأ نفسه الذي ارتكبناه جميعاً وقرأها على أنها "١٧,١,٢٢" بدلاً من "٢٢,٧١,١". الشيء الذي لا أعرفه هو كيف ذهب مينكس إلى الغرفة ١٧... لا بد أنها الغريزة فقط.

- وماذا عن الرسالة التي كُلِّفتَ بحملها من إنكلترا إلى الجنرال سماتز؟ من الذي عبث بها؟

- أظن -يا عزيزتي آن- أنك لا تتوقعين أن أكشف الكثير من

خططي دون أن أبذل جهداً لحمايتها؟ فمع وجود قاتل هارب متخفٍ بهيئة سكرتير لي لم أتردد أبداً في أن أستبدل بالرسالة ورقة فارغة. وما كان أحد ليشك في العجوز بيدلار المسكين.

– وماذا عن الكولونيل رايس؟

– نعم، كان وجوده أمراً بغيضاً. عندما أخبرني باجيت بأنه رجل مخابرات أحسست بداخلي إحساساً كريهاً. تذكرت أنه كان يتطفل ويتابع نادينا في باريس أثناء الحرب، وقد راودتني شكوك مريعة بأنه يلاحقني أنا! لا أحب طريقة التصاقه بي منذ ذلك الحين... إنه رجل من أولئك الأقوياء الصامتين الذين يخفون أشياء دائماً في أنفسهم.

رنّ جرس خفيف، ورفع السير يوستيس جهاز الاتصال الداخلي وأصغى بعض الوقت ثم أجاب: "حسناً، سأراه الآن". ثم قال لي: جاءني عمل. دعيني أريك غرفتك يا آنسة آن.

قادني إلى جناح صغير سيء الحال، وأحضرَ خادمٌ صبيٌ حقيبتي الصغيرة، وخرج السير يوستيس بعد أن ألحّ علي أن أطلب أي شيء أريده، وكان صورة للمضيف المهذب. كانت على المغسلة علبة فيها ماء حار وشرعت في إخراج بعض الأغراض الضرورية من الحقيبة، وقد حيّرني وجود شيء صلب وغير مألوف في الحقيبة الصغيرة الخاصة بمستلزمات الحمام. ففككت رباطها ونظرت إلى داخلها.

ولشدة دهشتي أخرجت منها مسدساً صغيراً ذا مقبض من اللؤلؤ، ولكنه لم يكن موجوداً هنا عندما خرجت من كيمبرلي! وتفحصته بحذر فوجدته محشواً.

أمسكته وأنا أشعر بالارتياح. كان شيئاً مفيداً في مثل هذا البيت، لكن الملابس الحديثة غير مناسبة أبداً لإخفاء أسلحة نارية، وفي نهاية الأمر دسستُه بحذر داخل جوربي من أعلى.

وقد شكل كتلة فظيعة على ساقي من الداخل، وتوقعت أن تنطلق رصاصة منه في أي لحظة وتصيبني، ولكنه بدا لي المكان الوحيد الممكن.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

لم أُدعَ للمثول أمام السير يوستيس إلاّ في وقت متأخر من بعد الظهر بعدما جاؤوا لي بالشاي في الساعة الحادية عشرة ثم بوجبة غداء مُشبِعة، وأحسست بالقوة استعداداً لمزيد من الصراع.

كان السير يوستيس وحيداً يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وكان في عينيه بريق وفي سلوكه قلق لم تفتني ملاحظته. كان منفعلاً لأمر ما، وكان في سلوكه معي بعض التغير الطفيف.

قال: عندي أخبار لك؛ إن صاحبك في الطريق، وسيكون هنا خلال بضع دقائق. خففي من حماستك، فلديّ المزيد مما أقوله: لقد حاولتِ خداعي صباح اليوم. لقد حذّرتك وقلت لك إن من الحكمة قول الحقيقة، وقد أطعتِني حتى نقطة معينة، ثم انحرفت عن الطريق. لقد حاولتِ جعلي أصدِّق أن الألماسات بحوزة هاري رايبرن، وفي ذلك الوقت قبلت كلامك هذا لأنه سهّل علي مهمتي... مهمة إقناعك بإحضار هاري رايبرن إلى هنا. ولكن يا عزيزتي آن، كانت الألماسات في حوزتي منذ أن غادرت الشلالات... مع أنني لم أكتشف هذه الحقيقة إلاّ بالأمس.

قلت لاهثة: أنت تعرف!

- قد يهمك أن تعرفي أن باجيت هو الذي كشف الأمر. لقد أصرّ على إثارة سأمي بقصة طويلة لا معنى لها عن رهان وعلبة أفلام، ولم يأخذ مني استنتاج الحقيقة طويلاً... عدم ثقة السيدة بلير بالكولونيل رايس، وغضبها، ومناشدتها لي أن أهتم بتماثيلها التذكارية. وكان باجيت الممتاز قد فتح الصناديق أصلاً بدافع الحماسة المفرطة. وقبل أن أغادر الفندق نقلت جميع بكرات الأفلام إلى جيبي، وها هي في الزاوية هناك. أعترف بأنني لم أحصل على فرصة لفحص تلك العُلب حتى الآن (فقد لُصقت أغطيتها بشكل قوي بحيث لا تُفتح بغير مفتاح للعلب المعدنية) ولكني لاحظت أن واحدة منها تختلف تماماً في وزنها عن البقية وتخشخش بطريقة غريبة. إن القضية تبدو واضحة، أليس كذلك؟ والآن -كما ترين- فقد أوقعتكما في الفخ بطريقة جميلة. أمر مؤسف أن لا تروق لك فكرة أن تصبحي الليدي بيدلار!

لم أردّ عليه، بل وقفت أنظر إليه. وسمعت صوت أقدام على الدرج، وفُتح الباب ودفع رجلان بهاري رايبرن إلى داخل الغرفة. نظر السير يوستيس إليّ نظرة المنتصر، وقال بهدوء: كانت الخطة تقضي أن تضعا نفسيكما -أيها الهاويان- في مواجهة المحترفين.

صاح هاري بصوت أجش: ما معنى هذا؟

قال السير يوستيس بمرح في غير أوانه: قال العنكبوت للذبابة: هذا يعني أنكِ دخلتِ حوزتي. يا عزيزي رايبرن، إنك سيء الحظ إلى درجة غريبة.

- لقد قلتِ -يا آن- إن باستطاعتي المجيء بأمان.

- لا تلمها يا عزيزي. أنا الذي أمليت عليها تلك الرسالة، ولم

تستطع الفتاة إلاّ أن تستجيب. كان من الحكمة أن لا تكتبها، ولكني لم أخبرها بذلك في ذلك الوقت. وقد اتبعت أنت تعليماتها وذهبت إلى محل التحف وأخذوك من خلال الممر السري من الغرفة الخلفية... ثم وجدت نفسك بين يديْ أعدائك!

نظر هاري إليّ ففهمت نظراته واقتربت أكثر من السير يوستيس الذي تمتم قائلاً: نعم، أنت غير محظوظ دون شك! أظن أن هذه هي المرة الثالثة التي تقع فيها.

قال هاري: أنت على حق؛ هذه هي المرة الثالثة. لقد هزمتني مرتين، ولكن ألم تسمع أبداً بأن الحظ يتغير في المرة الثالثة؟ لقد جاء الآن دوري... عليكِ به يا آن.

كنت جاهزة تماماً، وفي سرعة البرق أخرجت المسدس من تحت جوربي وصوبته نحو رأسه. قفز الرجلان اللذان يحرسان هاري إلى الأمام لكن صوته منعهما: خطوة واحدة أخرى ويموت! إذا اقتربا منك أكثر يا آن فاضغطي على الزناد... لا ترددي.

أجبته مبتهجة: لن أتردد، ولكني أخاف قليلاً من الضغط عليه على أية حال.

أحسب أن السير يوستيس كان يشاركني مخاوفي؛ فقد كان يرتجف خوفاً ككتلة هُلام. وقد أمر الرجلين قائلاً: ابقيا حيث أنتما.

توقف الرجلان طائعين. وقال هاري: قل لهما أن يغادرا الغرفة.

أعطى السير يوستيس أوامره لهما. خرج الرجلان، وأغلق هاري الباب بالمزلاج وراءهما ثم قال عابساً: "والآن نستطيع أن نتحدث". ثم

جاء ناحيتي وأخذ المسدس من يدي.

تنهد السير يوستيس بارتياح ومسح جبينه بمنديل قائلاً: لقد خرجتُ عن طوري بالفعل. أحسب أن لديّ ضعفاً في القلب دون شك، وأنا مسرور لأن المسدس الآن في يد رجل قدير؛ فلم أكن لأثق بحمل الآنسة آن له. حسناً يا صديقي الشاب، كما قلت، نستطيع الآن أن نتحدث. أعترف -طائعاً- بأنك سجّلتَ نقطة ضدي. لا أعرف من أين جاء ذلك المسدس؛ فقد جعلتُهم يفتشون أمتعة الفتاة عندما وصلت. من أين أخرجتِه الآن؟ لا أظنه كان معك قبل دقيقة؟

أجبته: نعم، كان معي. كان في جوربي

قال السير يوستيس بحزن: ليست لدي معلومات كافية عن النساء. كان يجب أن أدرسهن أكثر. أتساءل إن كان من شأن باجيت أن يعرف ذلك؟

ضرب هاري على الطاولة بحدة وقال: لا تمثِّل أمامي دور المغفل. لولا الشعر الأبيض في رأسك لقذفت بك خارج النافذة... أيها الوغد السافل! وسواء أكان شعرك أبيض أم غير أبيض فسوف...

تقدم خطوة أو خطوتين، فقفز السير يوستيس وراء الطاولة بخفة وقال مؤنباً: الشباب عنيفون دائماً؛ فهم -إذ لا يستطيعون استخدام عقولهم- تراهم يعتمدون كلياً على عضلاتهم. دعنا نتحدث بلغة العقل. أنت الآن صاحب اليد العليا، ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تستمر. إن البيت مليء برجالي، والتفوق العددي يجعلك في موقف يائس، وقد كان نجاحك المؤقت هذا ناتجاً عن حادث عرضي.

- أحقاً؟

بدا أن شيئاً في نبرة هاري (أو شيئاً من السخرية المُرّة) قد لفت انتباه السير يوستيس فأخذ يحدّق إليه، فقال هاري ثانية: "أحقاً؟ اجلس سير يوستيس واسمع لما أقوله لك". ثم واصل حديثه وهو ما زال يصوب المسدس إليه: إن الأوراق ضدك هذه المرة. أولاً اسمع هذا!

كان هذا صوتَ دقات غامضة على الباب أسفل منّا. كنّا نسمع صيحات وضجيجاً ثم صوت إطلاق نار. شحب لون السير يوستيس وقال: ما هذا؟.

- رايس ورجاله. لعلك لم تكن تعرف -يا سير يوستيس- بأن آن قد اتفقت معي على ترتيبٍ نستطيع من خلاله معرفة إن كانت الرسائل المتبادلة بيننا حقيقية أم لا؟ كان يجب أن توقع البرقيات باسم «أندي» وكان يجب كتابة حرف واو العطف في الرسائل مشطوباً عليه بإشارة متقاطعة في مكان ما من الرسالة. كانت آن تعرف أن برقيتك مزيفة. لقد جاءت إلى هنا بمحض إرادتها ودخلت الشرك متعمدة على أمل أن تمسك بك في فخك نفسه، وقبل أن تغادر كيمبرلي أرسلت لي برقية وأخرى إلى رايس، وكانت السيدة بلير على اتصال معنا منذ البداية. لقد استلمتُ الرسالة التي أمليتَها عليها، والتي كانت كما توقعتها تماماً. وكنت قد ناقشت مع رايس احتمالات وجود ممر سري يؤدي إلى خارج محل التحف وقد اكتشفَ هو المكان الذي يقع فيه المخرج.

سُمعت أصوات صراخ وتهدّم وانفجار كبير هز الغرفة فقال هاري: إنهم يقصفون هذا الجزء من البلدة... يجب أن أخرجك من هذا المكان يا آن.

برق ضوء وهّاج في الخارج واشتعلت النيران في البيت المقابل لنا. كان السير يوستيس قد نهض وأخذ يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً، وبقي هاري يصوب المسدس عليه.

- وهكذا -يا سير يوستيس- فقد انتهت اللعبة كما ترى. أنت نفسك الذي زودتنا -بكل لطفك- بمفتاح عرفنا منه مكان وجودك. كان رجال رايس يراقبون مخرج الممر السري، ورغم الاحتياطات التي أخذتها أنت فقد نجحوا في متابعتي إلى هنا.

التفت السير يوستيس فجأة وقال: عمل ذكي جداً، وجدير بالإكبار. ولكن ما زالت لدي كلمة أقولها. إن كنتُ قد خسرتُ اللعبة فقد خسرتَها أنت أيضاً. لن تستطيع أبداً أن تدينني بجريمة قتل نادينا. إن كل ما لديك من دليل ضدي هو أنني كنتُ في مارلو في ذلك اليوم، ولا أحد يمكنه أن يثبت معرفتي بالمرأة. ولكنك كنت تعرفها، ولديك دافع لقتلها... كما أن سجلك يدينك. تذكّرْ أنك لص. ولعله يوجد شيء آخر لا تعرفه؛ وهو أن الألماسات عندي، وهنا يذهب...

وبحركة سريعة لا تصدق انحنى ولوح بذراعيه ورمى. سمعنا صوت انكسار الزجاج حيث كسر الشيء الذي رماه زجاج النافذة واختفى في كتلة النار المتقدة مقابلنا.

- وهنا يذهب أملك الوحيد في إثبات براءتك بخصوص قضية كيمبرلي. والآن سوف نتحدث: سأجري صفقة معك. لقد حشرتني في الزاوية، وسوف يجد رايس كل ما يحتاجه في هذا البيت. توجد فرصة لي إن أنا خرجتُ من هنا، وإذا بقيت فسأنتهي، ولكنك ستنتهي أنت أيضاً أيها الشاب! توجد فتحة في سقف الغرفة المجاورة، فإذا ما منحتني دقيقتين للانطلاق سأكون على ما يرام. لدي بعض الترتيبات الصغيرة

الجاهزة أصلاً. اتركني أخرج من هنا وأعطني فرصة دقائق أنطلق فيها... وسأترك لك اعترافاً خطياً موقّعاً بأنني قتلت نادينا.

صحت قائلة: نعم يا هاري. نعم، نعم، نعم!

التفت إلي بوجه عابس وقال: كلا يا آن، لا وألف لا. أنت لا تعرفين ما تقولينه.

- بل أعرف؛ فهذا يحل كل شيء.

- لن أستطيع بعدها النظر إلى وجه رايس ثانية. تباً لي إن أنا تركتُ هذا الثعلب العجوز المراوغ يهرب. لا فائدة يا آن؛ لن أفعل ذلك.

ضحك السير يوستيس. قَبِلَ بالهزيمة دون أي انفعال وقال: حسناً، حسناً، يبدو أنك وجدتِ من يضاهيك عناداً يا آن، ولكني أؤكد لكما أن الاستقامة الأخلاقية لا تفيد دائماً.

سمعنا صوت خشب يتصدع ووقع أقدام تصعد الدرج. فتح هاري المزلاج، وكان الكولونيل رايس أول رجل يدخل الغرفة. أشرق وجهه عندما رآنا وقال: "أأنت بخير يا آن. كنت أخشى..."، ثم التفت إلى السير يوستيس وقال: لقد كنتُ ألاحقك منذ فترة طويلة يا بيدلار... وقد أمسكتُ بك أخيراً.

صاح السير يوستيس متصنعاً: يبدو أن الجميع قد جُنّوا تماماً. لقد كان هذان الشابان يهددانني بالمسدسات ويتهمانني بأفظع الأشياء. لا أعرف ما معنى هذا كله.

- ألا تعرف معناه؟ معناه أنني وجدت «الكولونيل»... معناه أنك يوم الثامن من كانون الثاني (يناير) الماضي لم تكن في مدينة كان بل في

مارلو... معناه أنك قد خططتَ للتخلص من مدام نادينا عندما انقلبت عليك بعد أن كانت أداة بيدك... وأخيراً سنكون قادرين على إثبات الجريمة عليك.

- حقاً؟ وممّن حصلت على كل هذه المعلومات المثيرة؟ من الرجل الذي ما زال الشرطة يبحثون عنه حتى في هذه اللحظة؟ ستكون شهادته بالغة القيمة!

- لدينا دليل آخر؛ شخص آخر عرف أن نادينا كانت ذاهبة لمقابلتك في ميل هاوس.

بدت المفاجأة على السير يوستيس. أشار الكولونيل رايس بيده، فتقدم آرثر مينكس المعروف باسم الكاهن إدوارد تشيتشيستر والمعروف بالآنسة بيتيغرو.

كان شاحباً قلقاً، ولكنه تكلم بصوت واضح: رأيت نادينا في باريس في الليلة التي سبقت ذهابها إلى إنكلترا. كنت في ذلك الوقت أتقمص شخصية كونت روسي، وقد أخبرتْني عن خطتها. حذرتُها لأنني كنت أعرف نوعية الرجل الذي كانت تتعامل معه، ولكنها لم تأخذ بنصيحتي. وكانت على الطاولة برقية، وقد قرأتها. وبعد ذلك فكرت بمحاولة الحصول على الألماسات لنفسي. وفي جوهانسبرغ لقيني السيد هايبرن صدفة وأقنعني بأن أنضم إلى جانبه.

نظر السير يوستيس إليه ولم يقل شيئاً، ولكن بدا واضحاً انهيار مينكس. وأخيراً قال السير يوستيس: الجرذان دائماً تترك السفن الغارقة. لا أهتم بأمر الجرذان، ولكنني أقضي على الطفيليات عاجلاً أم آجلاً.

قلت: بقي شيء واحد أريد قوله لك يا سير يوستيس؛ إن تلك

العلبة التي ألقيتَها خارج النافذة لم تكن تحتوي على الألماسات، بل كانت تحتوي على بلّورات عادية. أما الألماسات الحقيقية فهي موجودة في مكان آمن تماماً. إنها -في الواقع- بداخل معدة الزرافة الكبيرة. حفرت سوزان تجويفاً في التمثال وحشرت الألماسات فيه مع كمية من القطن حتى لا تُصدر أصواتاً، ثم أغلقت عليها ثانية.

نظر السير يومستيس إليّ لبعض الوقت، وكان ردُّه يعبر عن شخصيته أفضل تعبير، إذ قال: لقد كرهت تلك الزرافة التعِسة على الدوام... لا بد أنه كان إحساساً غريزياً مني.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

لم نتمكن من العودة إلى جوهانسبرغ تلك الليلة كانت القذائف تتساقط من فوقنا متسارعة، وفهمتُ أننا كدنا نصبح الآن معرولين بسبب سيطرة الثوار على مناطق جديدة

كان المكان الذي لجأنا إليه مزرعة تبعد نحو عشرين ميلاً عن جوهانسبرغ على المروج الخضراء. وكنت منهارة من التعب؛ فقد تركتني الأحداث المثيرة والمقلقة في اليومين الأخيرين خاوية القوى.

بقيت أقنع نفسي بأن متاعبنا قد انتهت دون أن أتمكن من تصديق ذلك. لقد اجتمعنا أنا وهاري ويجب أن لا ننفصل مرة أخرى، ومع ذلك كنت أدرك -طوال الوقت- وجود حاجز بيننا. تحفظ من جانبه لم أستطع إدراك سببه

أما السير يوستيس فقد اقتيد في الاتجاه المعاكس برفقة حراسة مشددة، وقد لوّح لنا بيده بمرح عند مغادرته.

خرجت إلى الشرفة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ونظرت عبر المرج الأخضر في اتجاه جوهانسبرغ. كنت أرى مستودعات الذخيرة الكبيرة وهي تلمع في شمس الصباح المشرقة وأسمع تراشق نيران الأسلحة عن بعد. لم تكن الثورة قد انتهت بعد.

نادتني زوجةُ المزارع لتناول الإفطار. كانت امرأة لطيفة حنونة، وكنت قد بدأتُ أحبها كثيراً، وقد أخبرتني بأن هاري قد خرج عند الفجر ولم يعد بعد. ومرة أخرى شعرت بشيء من عدم الارتياح يجتاحني. ما هو ذلك الظل الذي كنت أحس بقوة بوجوده بيننا؟

بعد الإفطار جلست على الشرفة وبيدي كتاب لم أقرأه. كنت غارقة في أفكاري حتى إنني لم ألحظ الكولونيل رايس حين جاء على فرس ما لبث أن ترجل عنه. لم أدرك وجوده إلاّ بعد أن قال لي: "صباح الخير يا آن".

قلت وقد احمرّ وجهي: آه، إنه أنت.

- نعم، هل لي أن أجلس.

سحب كرسياً بجانبي. كانت تلك هي المرة الأولى التي نجلس فيها وحدنا منذ ذلك اليوم في الماتوبوس. وكالعادة، أحسست بذلك المزيج الغريب من السحر والخوف الذي كان دائماً يسببه رايس لي.

سألته: ما هي الأخبار؟

- سيكون سماتز في جوهانسبرغ غداً. إنني أُقدّر أن تستمر هذه الثورة ثلاثة أيام أخرى قبل أن تنهار كلية، وحتى ذلك الحين فإن القتال مستمر.

- ليت المرء يستطيع التأكد من أن مَن يستحقون القتل هم الذين يُقتلون فعلاً. أقصد أولئك الذين أرادوا القتال... وليس المساكين الذين صدف أنهم يعيشون في المناطق التي يجري فيها القتال.

أومأ برأسه وقال: أعرف ما تقصدين يا آن. هذا هو وجه الظلم في الحرب، ولكن لديّ أخبار أخرى لك.

- وما هي؟

- اعتراف بعدم كفاءتي؛ لقد نجح بيدلار في الهروب.

- ماذا؟

- نعم. لا أحد يعرف كيف نجح في ذلك. لقد أقفلوا عليه إحدى الغرف بإحكام لقضاء الليل... كانت غرفة في الطابق العلوي في إحدى المزارع القريبة التي استولى عليها الجيش، ولكن الغرفة كانت فارغة هذا الصباح، وكان العصفور قد طار من قفصه.

كنت في قرارة نفسي مسرورة بعض الشيء؛ إذ لم أستطع أبداً (حتى هذا اليوم) أن أتخلص من حب خفي مِلحاح تجاه السير يوستيس. وأحسب أن ذلك أمر بشع، ولكن هذا ما حصل. صحيح أنه كان وغداً بكل ما في الكلمة من معنى، ولكنه كان وغداً مرحاً... لم أقابل شخصاً مسلياً مثله أبداً!

أخفيت مشاعري بالطبع. أمر طبيعي أن يشعر الكولونيل رايس بأحاسيس مختلفة تماماً عن أحاسيسي؛ فقد كان يريد تقديم السير يوستيس للمحاكمة. ولو أمعن المرء التفكير في هروبه لما وجد فيه ما يثير الدهشة؛ فلا بد أن يكون لديه جواسيس وعملاء حول جوهانسبرغ كلها. وبغضّ النظر عن رأي الكولونيل رايس، كنتُ متشككة -إلى أبعد حد- في قدرتهم على إلقاء القبض عليه. ربما كان لديه أسلوب مخطط جيداً للانسحاب، والحقيقة إنه قال لنا شيئاً من هذا القبيل.

عبّرت عن أفكاري بطريقة مناسبة، وإنْ كانت فاترة، ثم قلّ الحديث بيننا. وفجأة سأل الكولونيل رايس عن هاري. أخبرته بأنه قد خرج عند الفجر وأنني لم أره هذا الصباح.

- هل تعرفين يا آن بأنه بريء تماماً باستثناء بعض الإجراءات الرسمية؟ بقيت -بالطبع- أمور فنية، ولكن جرم السير يوستيس ثابت تماماً. لا شيء الآن يبقيكما بعيدين بعضكما عن بعض.

قال هذا دون أن ينظر إلي وبصوت بطيء مهتز.

قلت بامتنان: أعرف.

- كما لا يوجد أي سبب يمنعه من العودة إلى اسمه الحقيقي على الفور.

- بالطبع لا يوجد.

- هل تعرفين اسمه الحقيقي؟

فاجأني سؤاله. قلت: أعرفه بالطبع... هاري لوكاس.

لم يجبني، وقد بدا لي أن في طبيعة صمته شيئاً غريباً.

عاد يقول: آن، هل تذكرين عندما كنا نسير بالسيارة عائدين من ماتوبوس ذلك اليوم وأخبرتك بأنني أعرف ما يتوجب عليّ عمله؟

- بالطبع أتذكره.

- أظن أن بوسعي القول إنني قد عملته؛ لقد بُرِّئت ساحة الرجل الذي تحبينه.

- هل هذا ما كنت تعنيه؟

- بالطبع.

طأطأت رأسي وأنا أشعر بالخزي من ذلك الشك الوضيع الذي راودني وقتها.

تحدث ثانية بصوت حالم: عندما كنت في مطلع صباي أحببت فتاة لكنها نبذتني، وبعد ذلك لم أفكر إلاّ في عملي. وكانت حياتي المهنية تعني كل شيء بالنسبة لي، ثم التقيت بك يا آن...

كنت صامتة. أظن أن الفتاة لا يمكن أن تحب رجلين في آن واحد، ولكن يمكنها الشعور بمعنى ذلك. كانت جاذبية هذا الرجل هائلة جداً، ورفعت بصري أنظر إليه فجأة وقلتُ: أعتقد أنك ستحقق نجاحاً عظيماً، وأن أمامك حياة مهنية عظيمة. ستكون واحداً من الرجال المشهورين في العالم.

أحسست وكأنني أُطلق نبوءة.

- ومع ذلك سأكون وحيداً.

- هذا شأن كل من يفعلون أشياء عظيمة حقاً.

- أتظنين ذلك؟

- بل أنا واثقة منه.

قال بصوت منخفض: كنت أفضّل... الأخرى.

ثم جاء هاري يتمشى حول زاوية البيت فنهض الكولونيل رايس وقال: "صباح الخير يا... لوكاس". ولسبب ما احمرّ وجه هاري كثيراً.

قلت بمرح: نعم، يجب أن تُنادى باسمك الحقيقي الآن.

لكن هاري مضى يحدّق إلى الكولونيل رايس، وأخيراً قال: إذن فأنت تعرف يا سيدي.

- أنا لا أنسى وجهاً رأيتُه أبداً؛ وقد رأيتك مرة وأنت صبي.

سألتُ متحيرةً أنقل بصري من واحد إلى الآخر: ما كل هذا؟

بدا الأمر أشبه بصراع إرادات بينهما، وقد ربح رايس الصراع. ابتعد هاري قليلاً وقال: أظن أنك على حق يا سيدي. أخبرها عن اسمي الحقيقي.

- آن، هذا ليس هاري لوكاس. لقد قُتل هاري لوكاس في الحرب. هذا جون هارولد إيردسلي.

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

ومع كلماته الأخيرة تلك استدار الكولونيل رايس وتركنا. ووقفتُ أحدق إليه وهو يبتعد، إلاّ أن صوت هاري أعادني إلى نفسي: آن، سامحيني، قولي إنك تسامحينني.

أمسك بيدي فسحبتُها بطريقة آلية تقريباً وقلت: لماذا خدعتني؟

- لا أعرف إن كنتُ أستطيع جعلك تفهمين. كنت خائفاً من كل ذلك الشيء... قوة وسحر الثروة. كنت أريدك أن تحبيني لشخصي فقط... للرجل الذي كنته، دون حُليٍّ وزخارف.

- أتعني أنك لم تثق بي؟

- بوسعك التعبير عن الأمر بهذا الشكل إن شئت، ولكنه ليس صحيحاً تماماً. كنت قد أصبحت شديد المرارة مشجوناً بالشكوك... أميل دوماً للبحث عن دوافع خفية... وكان شيئاً رائعاً أن أحظى بمثل هذا الحب الذي أبديتِه لي.

قلت ببطء: فهمت.

كنت أقلب في ذهني القصة التي أخبرني بها، ولاحظت -للمرة

الأولى- أن بها تناقضات كنت قد تجاهلتها... الثّقة التي يمنحها المال، القدرة على شراء أحجار الألماس من نادينا مرة أخرى، والطريقة التي فضّل بها أن يتحدث عن الرجلين من منظور شخص خارجي آخر. وعندما قال «صديقي» لم يكن يعني إيردسلي ولكن لوكاس. كان لوكاس الشاب الهادئ هو الذي أحب نادينا حباً عميقاً.

سألته: كيف حدث ذلك؟

- كنّا نحن الاثنين متهورين... متلهفين على الموت. وذات ليلة تبادلنا السلسلة التي يُكتب عليها اسم الجندي... لجلب الحظ! وقد قُتل لوكاس في اليوم التالي وتمزق جسده إرباً.

ارتعدتُ وقلت: ولكن لماذا لم تخبرني بذلك الآن؟ هذا الصباح؟ لا يُعقل أنك كنت تشك في حبي لك بعد كل هذا الوقت؟

- آن، لم أرد أن أفسد الأمر كله. كنت أريد أخذك معي إلى الجزيرة. ما فائدة المال؟ لا يمكنه شراء السعادة. كان من شأننا أن نكون سعداء على الجزيرة. إنني خائف من تلك الحياة الأخرى... لقد كادت تفسدني ذات يوم.

- هل كان السير يوستيس يعرف حقيقة شخصيتك؟

- آه، نعم.

- وكارتون؟

- لا. رآنا نحن الاثنين مع نادينا في كيمبرلي ذات ليلة، ولكنه لم يعرف من منا فلان ومن منا فلان الآخر. وقد قبل كلامي بأنني لوكاس، وخُدعت نادينا ببرقيته. لم تكن تخاف من لوكاس أبداً؛ فقد كان شاباً

هادئاً... مخلصاً جداً. أما أنا فكنتُ دوماً ذا مزاج ناري حاد. كانت ستموت خوفاً لو عرفت آنني عدت إلى الحياة مرة أخرى.

- هاري، لو لم يخبرني رايس، فما الذي كنت تعتزم فعله؟

- لا أقول شيئاً. أواصل حياتي على أنني لوكاس.

- وملايين والدك؟

- كنت أرضى بأن يأخذها رايس. كان -على أية حال- سيستفيد منها أفضل مني. ما الذي تفكرين فيه يا آن؟ إنك عابسة.

قلت بتمهل: إنني أفكر، وأكاد أتمنى لو لم يجعلك الكولونيل رايس تخبرني.

- كلا... كان مصيباً؛ فأنا مدين لك بقول الحقيقة.

سكت قليلاً ثم قال فجأة: أتعرفين يا آن أنني أغار من رايس. إنه يحبك هو الآخر... وهو رجل أعظم مما أنا عليه، أو مما يمكن أن أكون عليه في أي يوم قادم.

التفتُّ إليه ضاحكة وقلت: هاري، أيها الأحمق. أنت الذي أريده... وهذا كل ما يهمني.

انطلقنا نحو كيب تاون بأسرع وقت ممكن. كانت سوزان هناك لتحيتي، وقد نزعنا أحشاء الزرافة الكبيرة معاً. وعندما خمدت الثورة تماماً جاء الكولونيل رايس إلى كيب تاون، وبناء على اقتراحه أعيد فتح فيلا مويزنبرغ (التي كانت ملكاً للسير لورنس إيردسلي) وأقمنا فيها جميعاً.

هناك وضعنا خططنا؛ إذ تقرر أن أعود إلى إنكلترا مع سوزان وأتزوج انطلاقاً من بيتها في لندن، وجهاز العروس يُشترى من باريس! كانت سوزان تستمتع بوضع كل هذه التفاصيل كثيراً، وكذلك أنا. ومع ذلك كان المستقبل يبدو خيالياً بصورة غريبة، وكنت أشعر أحياناً دون أن أعرف السبب بالاختناق الشديد... وكأنني لا أستطيع التنفس.

وفي الليلة التي سبقت إبحارنا لم أستطع النوم، فقد كنت أحس بالتعاسة ولم أعرف السبب. لقد كرهت مغادرة أفريقيا؛ فهل ستبقى على حالها عندما أعود إليها مرة أخرى؟ هل سأجد فيها قط ما وجدته من قبل؟

ثم أجفلني صوت دقات آمرة على النافذة فقفزت من مكاني. كان هاري على الشرفة خارج البيت وقال: ضعي عليك ملابس تقيك البرد يا آن واخرجي؛ أريد الحديث معك.

لبست بسرعة وخرجت إلى هواء الليل البارد، وكان ساكناً عَطِراً يوحي بإحساس مخملي. أشار هاري إليّ بالابتعاد عن البيت حتى لا يسمعنا أحد. كان وجهه يبدو شاحباً وحازماً وكانت عيناه تلتهبان.

- آن، هل تذكرين عندما قلتِ لي مرة بأن النساء يستمتعن بعمل أشياء يكرهنَها من أجل شخص يحبينه؟

قلت وأنا أتساءل عن الذي سيقوله: نعم.

أمسك بي بذراعيه وقال: آن، تعالي معي بعيداً... الآن؛ هذه الليلة.

لنعُد إلى روديسيا... إلى الجزيرة. لا أستطيع تحمل كل هذه الهراء. لا أستطيع انتظارك أكثر من هذا.

تحررت من قبضته بعض الوقت، ثم قلت وأنا أتصنع الحسرة: وماذا عن ملابسي الفرنسية؟

حتى هذا اليوم لا يعرف هاري أبداً متى أكون جادة ومتى أكون متاكِفةً له فحسب!

- تباً لملابسك الفرنسية. أتظنين أنني أهتم بهذه السخافات؟ لن أدعك تذهبين، أسمعت؟ أنت امرأتي. إذا تركتك تذهبين فقد أفقدك؛ إنني لا أثق بك أبداً. ستأتين معي الآن... هذه الليلة... وتباً للجميع.

اعترضت قائلة: وفرشاة أسناني؟

- سنشتري غيرها. أعرف أنني مجنون، ولكن تعالي أرجوك!

انطلق في خطوات سريعة، وتبعته بمثل إذعان تلك المرأة التي رأيتها عند الشلالات (إلاّ أنني لم أكن أحمل أثقالاً فوق رأسي مثلها). ثم أسرع في سيره ممّا جعل من الصعب عليّ اللحاق به، وأخيراً قلت بصوت خانع: هاري، هل سنسير كل هذه الطريق إلى روديسيا على الأقدام؟

التفت فجأة وهو يضحك ملء شدقيه وقال: أنا مجنون يا حبيبتي... أعرف هذا، لكني أحبك كثيراً.

- نحن زوج من المجانين. آه، هاري أنت لم تسألني أبداً، ولكني لا أقدم تضحية إذ أجيء معك؛ فقد أردتُ المجيء!

* * *

الفصل السادس والثلاثون

كان ذلك قبل سنتين، وما زلنا نعيش على الجزيرة. أمامي على الطاولة الخشبية الخشنة كانت الرسالة التي كتبتها لي سوزان.

"عزيزيّ الساذجين القابعين في الغابة.. عزيزيّ المجنونين في الحب،

لست مدهوشة... أبداً. كنت أشعر طوال الوقت ونحن نتكلم عن باريس وجهاز العروس أن ذلك الحديث لم يكن حقيقياً... وأنكما ستختفيان يوماً ما لتتزوجا سراً على الطريقة الغجرية القديمة والجميلة. ولكنكما فعلاً زوج من المجانين! فهذه الفكرة في التخلي عن ثروة واسعة سخيفة. أراد الكولونيل رايس أن يجادل في هذه المسألة لكنني أقنعته بأن يترك الحكم للزمن. إنه يستطيع إدارة الأملاك لصالح هاري... وهو أفضل من يقوم بهذا العمل؛ ذلك أن أشهُر العسل لا تدوم إلى الأبد في نهاية المطاف... إنك لست هنا يا آن ولذلك يمكنني أن أقول ذلك بأمان دون أن تنفجري في وجهي-غضباً كقطة متوحشة: إن الحب في البرية يدوم فترة من الزمن، ولكن يوماً ما ستبدئين فجأة بالحلم ببيوت بارك لين، وبمعاطف الفراء، وملابس

باريس، وأكبر السيارات وأحدث عربات الأطفال. آه، نعم؛ ستفعلين ذلك!

ولكن استمتعا بشهر عسلكما أيها المجنونان العزيزان، وليكن شهراً طويلاً. وفكرا فيّ أحياناً وأنا أسمن متنعمة في الترف!

صديقتكما المحبة: سوزان بلير"

وكانت عندي أيضاً رسالة أخرى كنت أقرؤها أحياناً. جاءت بعد تلك الرسالة بوقت طويل وكانت مصحوبة بطرد ضخم، ويبدو أنها قد كُتبت من مكان ما في بوليفيا.

كانت الرسالة تقول:

"عزيزتي آن بيدنغفيلد،

لا أستطيع مقاومة رغبتي في الكتابة إليك، والدافع لذلك ليس -في جزء كبير منه- المتعة التي أجنيها في الكتابة إليك، بل المتعة الكبيرة التي أعرف أنك ستشعرين بها عندما تسمعين أخباري. لم يكن صديقنا رايس ذكياً كما كان يظن نفسه، أليس كذلك؟

أظن أنني سأُعيّنك وصيةً على أعمالي الكتابية، وها أنا أرسل لك مذكراتي. ليس فيها ما يثير اهتمام رايس وجماعته، لكنني أظن أن بها بعض الفقرات التي ستسليك. استخدميها كما تشائين. وأقترح عليك كتابة مقال للديلي بَدجِيت بعنوان "مجرمون التقيتهم"، وأشترط عليك فقط أن أكونَ الشخصيةَ المركزية.

لا أشك في أنك في هذا الوقت لم تعودي الآنسة آن

بيدنغفيلد ولكن الليدي إيردسلي، وتتصرفين باللقب في بارك لين كالملكة. أحب أن أقول إنني لا أحمل لك في قلبي أي ضغينة. من الصعب على المرء -بالطبع- أن يبدأ من جديد في مثل هذا العمر، ولكن لديّ -لحسن الحظ- مال مدخر احتفظت به لمثل هذه الأحداث غير المتوقعة. وقد نفعني هذا المال الآن كثيراً، وأنا أجمع حولي دائرة صغيرة لطيفة. وبالمناسبة، إذا التقيتِ صديقك الغريب ذاك، آرثر مينكس، فأخبريه فقط أنني لم أنسه؛ فسيسبب له ذلك هلعاً شديداً.

وإجمالاً أعتقد أنني أظهرت روحاً عالية من التسامح، حتى مع باجيت. لقد سمعت أنه أنجب (أو أن السيدة باجيت بالأحرى) قد أنجبت الولد السادس قبل أيام؛ ستكون إنكلترا -عمّا قريب- مأهولة كلياً بأولاد باجيت. أرسلت للمولود الجديد كأساً فضياً، مع بطاقة تهنئة، وأستطيع تخيّل باجيت وهو يأخذ الكوز وبطاقة المعايدة إلى شرطة سكوتلانديارد مباشرة دون أن ترتسم بسمة على وجهه!

فليباركك الله يا ذات العينين الصافيتين. سترين يوماً من الأيام أيّ خطأ هذا الذي ارتكبتِه عندما لم تتزوجيني.

لك إلى الأبد: يوستيس بيدلار"

* * *

كان هاري غاضباً. إنها النقطة الوحيدة التي لا أتفق معه فيها اتفاقاً تاماً؛ فبالنسبة له كان السير يوستيس الرجل الذي حاول قتلي، وهو الذي يعتبره مسؤولاً عن وفاة صديقه. وقد كانت محاولات السير يوستيس للقضاء على حياتي تحيرني دائماً؛ فهي لا تنسجم مع الصورة العامة إذا

صح التعبير، حيث أنني متأكدة من أنه كان يشعر دائماً بإحساس لطيف وحقيقي صوبي.

إذن لماذا حاول قتلي مرتين؟ يقول هاري: "لأنه وغد سافل"، ويبدو أن هذا يفسر الأمر باعتقاده. أمّا سوزان فكانت أكثر تمييزاً. تحدثتُ معها عن ذلك كثيراً، وقد أرجعتْ ذلك لـ«عقدة الخوف»؛ فهي تميل قليلاً إلى التحليل النفسي. لقد ذكرتْ لي بأن حياة السير يوستيس كلها كانت مدفوعة بالرغبة في الأمان والراحة. كان لديه إحساس حاد بالرغبة بالمحافظة على الذات، وقد أزال قتلُ نادينا مخاوف معينة لديه. إن تصرفاته تجاهي لا تُمثِّل حقيقة مشاعره نحوي، بل كانت نتيجة مخاوفه المُلحّة على سلامته الشخصية، وأظن أن سوزان على حق. أما بالنسبة لنادينا فقد كانت امرأة تستحق الموت. الرجال يفعلون جميع الأمور المريبة ليصبحوا أغنياء، ولكن على النساء أن لا يتظاهرن كذباً بأنهن يعشقن لدوافع خفية.

يمكنني أن أسامح السير يوستيس بسهولة، ولكني لن أسامح نادينا. أبداً، أبداً!

قبل أيام كنتُ أفتح بعض العلب التي كانت ملفوفة بأوراق من نسخة قديمة لصحيفة ديلي بَدجيت، وفجأة لاحظت الكلمات: «الرجل ذو البدلة البنية». لَكَمْ بدا ذلك موغلاً في الماضي! كنت قد قطعت صلتي طبعاً بصحيفة ديلي بَدجيت منذ زمن طويل وأنهيت علاقتي معها قبل أن تنهي هي العلاقة من جانبها. وكان زواجي الرومانسي قد حظي بهالة كبيرة من الشهرة.

ابني يستلقي تحت الشمس ويرفس برجليه. إنه «رجلٌ ذو بدلة

بنية» إن شئت! إنه يلبس أقل قدر من الملابس، وذلك أفضل ما يناسب أفريقيا، وملابسه بنية تماماً. إنه ينقب في الأرض دائماً، وأحسبه سيشبه والدي، وسيكون عنده نفس الهوس بخزف العصر البلستوسيني.

أرسلت لي سوزان برقية عندما ولدتُه:

"تهانيّ وحبي لآخر القادمين إلى جزيرة المجانين. هل رأسه طويل أم عريض؟".

ما كنت لأتحمل ذلك من سوزان، وقد أرسلت لها رداً من كلمة واحدة توفر المصاريف وتجيب عن سؤالها تماماً: "مسطَّح"!

* * *

ذو البَدْلَة البُنِّيّة

لقد جاءت آن إلى لندن بحثاً عن المغامرة. وهي قد عثرت عليها على الفور... على رصيف قطار الأنفاق في محطة هايد بارك. هناك؛ حيث تراجع الرجل النحيل مذعوراً ليسقط على قضبان القطار ويموت بالصعقة الكهربائية.

الشرطة يقولون إن الوفاة حادث عرضي، ولكن آن غير مقتنعة. وعلى أي حال: مَن كان "الرجل ذو البدلة البنية" الذي انكبَّ على الجثّة لفحصها؟ وما هي تلك الرسالة الغريبة التي سقطت منه وهو ينطلق هارباً؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجِمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!

ISBN 2-1957-2645-8



9782195726453

توزيع دار الأفق
٦ شارع حسين فهمي من عباس العقاد
ت: ٢٧٧٥٢٣٣٥ - موبايل: ٠١٢/١٠٣٢١٦٠

Agatha Christie

The Man in the Brown Suit







الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers